أودعتك الجزائر و مصر

أمينة شرنيخ

رقم إيداع : 2022
ردمك : 978-9931-19-007-3
عنوان الكتاب :أودعتك الجزائر و مصر.
المؤلفة : أمينة شرنيخ
اصدار : 2022
الناشر : دار البينة للنشر و التوزيع شركة ذات مسؤلية محدودة
04 شارع الاخوة وردي- لافيمي، بوزريعة ـ الجزائر 16040
تليفون/ فاكس : 234 180 23(0) 213 +
البريد الإلكتروني : elbayina.edition@gmail.com

جميع الحقوق ذات الصلة بالمضمون و محتوى الكتاب خاضعة و محفوظة
لملكية المؤلفة امينة شرنيخ

إنّ دار البيّنـة غيـر مسـؤولة عن الآراء الواردة فـي الكتاب، وإنّما تعبّر عن آراء مؤلّفه

﴿لا إلٰه إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين﴾
87 سورة الأنبياء

أما عن الحقيقة التي هي حقيقتي والتي يسعى إلى جرها نحو الوأد فهي كالآتي:

«على بطاقتي جنسية عربية واحدة لكن قدري يحمل كل الوطن العربي»

ودفاعا عن الحقيقة كتبت التالي:

الفصل الأول

لزم الجميع الصمت حين انكببت على أشيائي أجمعها لأزيل من ذلك المكان كل ما قد يذكر بأني مررت به ذات يوم، وما استوحشت وأنا ألتقطها بهدوء وأضعها في علبتي دونما ترتيب، ما استوحشت قط صمتهم وصمتي فقد كانا أكثر ما تشاركناه مذ لقاءنا الأول، لا بل كانا كل ما عمدوا إلى وهبي إياه وكل ما استطعت تقديمه إليهم.

دونما قصد لمحت انعكاس صورتي بزجاج النافدة الداكن الذي لم أك قد لاحظت من قبل أنه يعكس وجودي، تأملت لوهلة مظهري ثم قلت في نفسي «إن سواد ثوبي ووشاحي ليس كسواد خصل شعري فقد كشف حدادي وكل الذي أحمله من الرثاء والتعازي، جرحي ووجعي وما جرت به وما جار به غيري، تالله هو لون يستطيع لوحده أن يحكي».

عدت من بعد هذا ببصري إلى علبتي فأدركت مثلما فعل الجميع في تلك اللحظات الأخيرة بأن جل ما امتدت إليه يداي لتوضيبه قد كان صحفا ومنديلا؛ بياض غزاه الحبر فلم يعد من بعد الغزو إلى سابق عهده وبياض ناجاه الدمع فلم تكسبه ذي المناجاة ذرة ولم تسلبه فتيلا.

حين انتهيت من التقاط ذاك الماضي الموضوع كله بالدرج تأهبت لمفارقتهم فخطوت باتجاه الرواق خطوة أولى، فجأة قطع الصمت تلفظ أحدهم باسمي فاستغربت على عكسهم فعلته، غير أني ما أبديت استغرابي أمامه وأمامهم بل استوقفت نفسي ثم آمأت ليفصح.

بهدوء المحزون أصغيت إليه، وبذات الهدوء أصغيت إلى أصحابه من بعده حين ساءلوني وهم ينظرون لأول مرة مليا إلي وينتظرون دون كلل حراك شفتي، ساءلوني وهم ملتفون على غير العادة من حولي، جاثمون بالزوايا الأربع التي اهتزت بنبضي وأنفاسي، ساءلوني الواحد تلو الآخر مع أنهم لم يدركوا حتى

السبب الذي دفع بي إلى اتخاذ الرحيل قرارا، لم يأبهوا لهذا الهجر المفاجئ ولو قليلا، لا أسفوا على ثوبي الأسود ولا تصنعوا شيئا من الأسف، ساءلوني ولسانهم أجنبي قائلين: «لم الحداد على موتاهم؟»

كانوا على يقين أني صدقتهم الرد حين تلفظت بالعبارة الوحيدة التي تنسج روايتي مذ واحد وعشرين عاما، فلا نبرة صوتي ولا نظرتي حملتا الريب والشك لحظة نطقت قائلة: «القومية»، فالقومية هي عنوان الرواية التي جمع حبرها الجزائر ومصر وأنا، والقومية فصولها وتفاصيلها والنقطة التي حام السرد حولها ثم انتهى إليها.

اكتفى الجميع بهذه الوحيدة التي لم يعرفوها فلم يألفوها والتي لم تنبض بها قلوبهم ولن تفعل، عادوا في هدوء الغريب إلى التزام الصمت دون أن يبدوا عجبا للواحد والعشرين عاما التي نسجت، هذا لأنهم ذهلوا لنسجها الذي سيستمر أبدا.

بتلك الحجرة الباردة التي جمعتني وهم والتي طالما شعرت فيها بالعزلة بينهم نازعهم جوابي فحاول كل منهم كتمان هذا النزاع عن غيره وعني لكن بصيصه لمع قويا في عيونهم، ولست ألومهم، بل لا أقدر إلا عذرهم فبعضهم عرف قصة بلغت من العمر واحدا وعشرين عاما، وبعضهم الآخر ذو حظ وافر فقد عرف قصة فاقت هذا العمر، إلا أنهم لن يحظوا برواية تدوم أبدا، هذا لأن عناوين ما عرفوه وفصوله وتفاصيله قد حوى كل عاطفة وكل رابط ماعدا القومية.

لم يفقهوا حق الفقه عظيم ما ينبض بأرض الجزائر وأرض مصر وقلب فتاة صبية، بيد أنهم أدركوا وأنا أرحل للأبد حاملة علبة البياضين أن القومية ميزة أمتي عن غيرها وأنها ما سيفجر ذات يوم مجدنا...

وأنا أقص عليكم سؤالهم وجوابي، فما نازعهم وخالجني تذكرت أني ما أخبرتكم بعد من هم ولا من أكون فهممت أن أفعل، ولكن القصص منعني فقد تدفق سيله بمجرد أن هززته وسيله الأقوى، جرفني من سرد تفاصيل هذا الوداع القحل ثم عبر بي الحول تلو الحول، تجاوز دون طلب مني عقدا من الزمن، ثم لم يتوقف أو يتباطأ حتى بلغ بي عهد الطفولة الذي كنت أجلس فيه والأمان يطوقني لأطالع كتبا متفردة عن غيرها من الكتب.

ولما أك في هذا العهد الآمن قد اقترفت بعد ذنبا، لم أك حينها جريحا جارحا إنما قارئا بريئا مغتبطا، ومع أني ما أخفيت أثناء ذا العهد المنقضي خبر الكتب التي أطالع، ما واريتها عن الأنظار وما تواريت عند حملها إلا أن جوهرها ظل سرا زمنا ليس بالقصير!

قد بدا قولي هذا غريبا لدى بعضكم، وقد بدا مستحيلا لجلكم، أجل، ليس يخفى علي ما يدور بفكركم فقد تعودتم جميعكم على أن السر لا يظل على حاله إلا إذا تبعه الكتمان، وهو من دون هذا الأخير كالبيت العاري من الجدران، يرى حرمته كل عابر ومار، ولست أنكر ما تعودتم عليه فهو صائب ولكن سر هذه الكتب فارق، ظل على حاله رغم العلانية لأن أرضه ويمه وسماءه مكتبة، ثم لم يسبق لأحد أن زار هذه المكتبة وهي شاغرة ليكتشفه بنفسه، ولم يسبق لأحد أن زارها وأنا فيها ليكتشفه بمساعدتي.

كثيرا ما سألت في نفسي بعهد طفولتي قائلة: «لم لا يزور المكتبة أحد؟»، وها أنتم ترددون في أنفسكم ذات السؤال، أو يخيل إلي أنكم تفعلون تماما كما يخيل إلي أن الفضول لدى بعضكم، والوقار الذي يكنه إلى هكذا مكان أكثركم هما الدافع إليه، والحق هو أني أحب مخيلتي التي لا تغير أثناء تصورها أقوال الناس وأفعالهم المختلفة والمتضاربة، لا تغير بفعلها هذا الرواية التي أسرد، إنما تمنحني وقت الضيق الشديد فسحة أطلق فيها عنان تصورات شفافة

لينشغل القلم والورق، لا لشيء إلا لأقدر سرقة نفس عميق أفك به قبضة الضيق عن صدري.

أما وقد أخذت هذا النفس للتو، فإني أعود لأتذكر الوحدة التي كابدتها المكتبة سنينا وعقودا، ولأتذكر النهاية التي آلت إليها، والدمع يود مواساتي كما اعتاد أن يفعل ولكني أحبسه ليتسنى لي تكليمكم عن هذه المكتبة التي لم يسبق لكم رؤيتها بالقول: لم يك لها الباب العالي، ولم يك فيها الأثاث الفخم النحيت، ولا مصابيح البلور المتدلية والستائر المخملية وبلاط الرخام ومدفأة الحجر، بل كانت صفة البساطة التي أحب أن أتلفظ بها بدل صفة الفقر لما فيها من الرحمة والأدب، كانت ببابها العتيق وبراغيه الصدئة، بطاولتها الخشبية البيضاء وما يلتف حولها من الكراسي الصغيرة، بستائرها البالية الممزقة والأرضية المتصدعة، بمدفأة البنزين التي منع العطب استعار نارها، وبالمصباح الوحيد الذي ما كان ليبعث النور في أرجائها لولا الضيق في تلك الأرجاء.

أضحيتم تعرفون عن المكتبة القليل الذي يفي لأواصل الكلام عنها بإخباركم أني ما تساءلت عن سبب عدم زيارة الناس لها بمجرد أن ودعت الطفولة، هذا لأني أدركت حين بلغني شيء من النضج أن الناس جلهم لا يطرقون بابا آله البساطة.

فإن أنتم أحببتم لفظي كما أحببته فتبنوه، وإن أنتم بغضتموه لعذر تحسبونه صائبا فأبقوا على الصفة الفظة ولكن لا تغيروا الحقيقة التي أخبرتكم بها إن هي ما راقت لكم، ثم قولوا حين تحدثون أنفسكم أو بعضكم عني أني أدركت بأن الناس جلهم لا يطرقون بابا آله الفقر.

وبالإفصاح عما أدركته فإني أمنح كل فاقد للصبر أثناء الإبحار في عرض يم الروايات، وكل ميال إلى الشك والريب بنوايا الرواة، أمنح هؤلاء وغيرهم حقا في مساءلتي عن الميزة التي وهبتها من بين الحشود لشخصي والتي دفعت بي

إلى زيارة هذه المكتبة الفقيرة؟

فيا مسائلي، أيا كان دافعك لمساءلتي، لست أخص نفسي بميزة لا يملكها سائر الناس، فأنا على يقين بأني لا أغاير جل البشر السجيات وبأني لا أملك ما يرفع مقامي على مقامهم ولا ما يحط منه، فإن خالفت طباعهم اتجاه هذه المكتبة فلسبب بعيد عن المفاضلة والاعتداد بالنفس.

لكن ها أنت لا تزال وبالرغم من صدق كلماتي، لا تزال متمسكا بمساءلتي إلى حد شبيه بالاتهام الذي لا يسقطه الصدق في القول بل البينة أو الشهيد، ومع أني أستطيع رفع براءتي بالذي ذكرت إلا أني أود بيانها بسؤالين سيغنيك جوابهما عن ذا الموقف الذي سارت بك طبيعتك إليه ألا وهما: كيف لي زيارة مكتبة أعيش فيها؟ كيف أطرق بابي؟

لقد ولدت بإحدى أيام الربيع لبستاني يقطن حجرة بسيطة بدار الستة التي يزاول مهنة البستنة فيها فنشأت في هذا المكان المقدس، فطمت فيه وأتقنت به أولى خطواتي وكلماتي، ثم سرعان ما أصبح المكان الذي أرتدي له ثوب الدار الخاص، أو أرتدي فيه وله هذا الثوب فأنا لم أغادر بيتي للتوجه صوب الدار كما فعل كل أترابي، بل كان كافيا مغادرة الحجرة التي أقمت وأسرتي فيها لأجد نفسي جاثمة بين صفوف أشباهها.

وهذا شأن المكتبة، فهي لم تك مكانا غريبا أزوره وأطرق عند كل زيارة بابه، بل كانت حجرة أخرى من حجر الدار التي ترعرعت فيها، عرفتها مذ خلقت لأنا نعرف بيوتنا ونحفظ كل شبر منها ونحبها ونصاحبها ونكن لها العاطفة، ولا تمنعنا عن هذه المعرفة ولا عن هذا الحفظ والحب والمصاحبة والعاطفة البساطة.

لم يزر الناس مكتبة بيتي ولم يطرق بابها صديق أو غريب بسبب مظهرها الذي لم يشرح يوما نفسا منقبضة وقبض كل نفس منشرحة، لم يزرها أحد فلم

يكتشف سر ما كانت تخفيه أو يعلم شيئا عن جوهره وكنت على عكس الجميع أعلم، فأنا من تصفحت كتبها ونظرت إلى الصور الموجودة بها لما كنت بسن لا أفقه فيها من الكتب حرفا واحدا، ولم أك حينها أهوى اللعب أكثر منها، حتى أني ما تعلقت بالدمى بقدر ما تعلقت بها، أحببت ألوانها وملامسة أناملي لها، استعنت دوما بمخيلتي الطفولية وبكلماتي البريئة والساذجة لأعطي كل واحدة منها اسما مميزا، لم أك أفارقها إلا لماما وكثيرا ما كنت أغفو وهي بحضني وكثيرا ما غفوت وأنا واضعة خذي الصغير في حضنها.

بخطاي الصغيرة التي عثرت مرات ومرات صعدت الدرج المؤدي إليها وبذات الخطى تجولت بين رفوفها، لم أخش أبدا بابها العتيق الذي اقشعر منه بدن كل من رآه، لم ألتفت يوما للصوت العالي الذي رفعه عمال وزوار الدار: «ابتعدي أيتها الصغيرة عنه، إنه هرئ مخيف قد يسبب الأذى لمن يلمسه»، لا بل طالما توهمت أنه يبتسم كلما رآني خفية عني وأنه باب سحري لا ينفتح إلا بعد أن أوشوش له بكلمة السر التي اتفقت وهو عليها.

مضى الزمن سريعا وظل الناس مستمرين في تجنب زيارة المكتبة، أما أنا فكنت وحيدة بين رفوفها أتعلم هجاء الحروف فقراءة الكلمات ثم الجمل حتى صار في وسعي الترحال كل يوم من كتاب إلى كتاب...

ثم اكتشفت عالما تتحدث فيه الحيوانات وتخطئ ثم تتسامح وتهنأ، وعرفت من حكايات الجدات الشر الذي يزيله الحب، والجمال الذي يخلقه التعاون، والعظمة التي توجدها الشجاعة، تذوقت الأضداد في العواطف فأحببت الملك العادل وبغضت الملك المستبد، اغتبطت عند كل لقاء وحزنت بعد كل فراق، اشتقت مرات وعاديت الحنين مرات أخرى، أملت كثيرا وغلبني اليأس على أمري أحيانا، استقويت وضعفت ثم عدت استقويت لأواصل السير على الدرب الورقي، هذا وقد غامرت مع كل من غامر في أراضي السحرة والغيلان

فكانت العثرات قدرنا وكانت نهاياتنا الانتصار.

وكنت بتلك الأيام أدعو كل من يزور دار الستة لطرق باب المكتبة، فلما يرفض الزائر طلبي جاعلا من مظهرها حجة تمنعه عن تلبيته أجلس بجانبه ثم أقص على مسمعه بعضا مما قرأت، وكان يبدو علي أثناء القص تصديقي لوجود هذا العالم بكل من فيه وما فيه حتى الشمس الضاحكة والقمر المبسام.

هكذا استمرت السنوات في التتابع دون أن أشعر ودون أن يتغير قدر المكتبة فقد كنت الوحيدة التي تمد اليد صوب قفل بابها البسيط، أسير بين رفوفها العامرة كمدللة قصر، أحمل الكتب بالرقة التي تحمل بها الأميرات حليهن، ثم أجلس إلى الطاولة الهرئة دون صاحب لأقرأها، ولم يك ليبعدني عنها أحد أو شيء ما عدا اصطفاف أشبال الدار جنب سارية العلم لأداء النشيد الوطني.

كنت أركض وأنا بنت الخامسة عشر ربيعا بأقصى ما لدي لآخذ مكانا بينهم، وكنت الأكبر سنا والأطول قامة إلا أني لم أشعر في حضور المرفرف العملاق بشيء من الاختلاف عنهم، ولم يكن الأشبال بدورهم يبدون التعجب عند رؤيتي فقد كانوا معتادين على أدائي لتحية العلم برفقتهم، تماما كما كانوا معتادين على الجلوس من حولي للاستماع إلى قصي.

كان النشيد الوطني أول وأكثر نشيد سمعته في حياتي، قالت لي والدتي مرارا أن علاقة جمعتني به مذ ميلادي فقد كان أداء الأشبال له يدوي ساحة وسماء الدار فيصل إلى مهدي الخشبي الصغير، وكنت عندئذ أجول بعيني في أرجاء الغرفة بحثا عن مصدر هذا الصوت الجماعي العذب، لا بل وكنت حينها أمتنع عن الطعام إن كانت تطعمني أو أتوقف عن البكاء إن كنت لسبب أو حتى دونه أبكي ولكأن سحرا يشدني إليه، فلما بلغت السنة صارت تحملني بين ذراعيها كل يوم لأرى عبر النافذة الأشبال وهم ينشدون قسما، وكنت أحاول لحظتها الأداء مثلهم فأصدر أصواتا لا تشبه النشيد ولو قليلا.

قالت والدتي أني حفظت النشيد كله لما جاوزت السنوات الثلاث الأولى بقليل، وكنت في هذه السن أغادر الحجرة التي نقطن فيها فيأخذ الأشبال بيدي ويلاعبونني ويقدمون لي الحلوى قبل أن يجدوا لي مكانا بينهم لأحيي العلم معهم، ثم ما هي إلا بعض السنة حتى صرت شبلا مثلهم أحيي وإخوتي العلم قبل الشروع في نشاطات الدار وبعد الانتهاء منها، ولكني بلغت سن عشر فكان علي ترك العضوية لطفل أصغر سنا.

اعتقد الجميع أني ودعت تحية العلم يوم ودعت ثوب الستة وشارتها غير أنهم أخطأوا الاعتقاد فقد وقفت باليوم الموالي في الصف لأرفع على مسمعهم صوتي ووطنيتي، وكذلك فعلت في كل أيام ذلك الأسبوع وفي كل أيام الأسابيع التي تلته، وهكذا كان أداء النشيد رفقة الأشبال عادتي التي لم أتخل عنها حتى بعد أن صار عمري أكبر من عمر بعضهم بسنوات وضعف عمر بعضهم الآخر، عادة لها وحدها القدرة على دفعي إلى مغادرة المكتبة.

❄❄❄

راح كثير من أقاربي ومعارفي يحدثون والدي عن الزمن الذي أقضيه كل أمسية في المكتبة المهجورة، والواضح في حديثهم أنهم لم يحبذوا جلوس بنت الخامسة عشر ربيعا وحيدة في حجرة متداعية تكاد تهوي بدل ارتياد حفلات أعياد الميلاد والزفاف، أو مرافقة الفتيات إلى النوادي والسوق وغيرها من الدعوات التي تحب تريباتي تلبيتها والأمكنة التي تهوين قصدها.

لم أعر حديثهم اهتماما، هذا ولم أشعر أن علاقتي بالكتب والكتاب قد تعدت حقا علاقة محب المطالعة بما يقرأه وبمن يقرأ له، وأني قد اختلفت عن أولئك الذين لا يجتمعون بكتاب، وأني قد اختلفت عن أولئك الذين لا يفارقون الكتاب، وأني صاحبة هبة متفردة العطايا والمحن، لا، لم أشعر بهذا كله فقد كنت لينة العمر، ولين العمر شبيه بالورد؛ يتفتح رويدا رويدا ليتفجر

جمالا قبل الذبول.

لم أعر حديث أولئك الذين لم يلبوا يوما دعوتي لزيارة المكتبة اهتماما، ولم اختل بنفسي لحظة واحدة للتفكير في العادة التي لا تحبذها تربياتي وأولياؤهن، واصلت المطالعة وواصلوا ابداء الاستهجان، استمر أبي في الرد عليهم بضحكة عالية وأصرت والدتي على اتخاذ التجاهل جوابا لهم، لكن لم يمض من الزمن شيء يذكر حتى راح ما يجمعني بتلك الكتب يبرز، كبذرة كانت أصغر البذور، شقت الأرض الصلبة لتصير من بعد الشجرة الباسقة.

كان يبدو في أوله يوما عاديا، قضيت ساعات صباحه الأولى أدرس، فلما انتهى الدوام جلست رفقة زميلاتي بالثانوية لتناول وجبة الغداء، رحنا نسلي بعضنا بسرد النكت والطرائف، فلما كشفنا عن كل ما في حوزتنا ساد مجلسنا صمت مضجر وسكون ممل، سارعت لحظتها كل واحدة منا إلى البحث عن موضوع للكلام سواء كان جدا أو هزلا، ثم ما قطع علينا بحثنا سوى همس إحدانا وهي تسألنا عما إذا كنا قادرات على حفظ سرها الذي تود كشفه للمرة الأولى؟

هزت بعضنا رأسهن للتعبير عن قدرتهن وصرخت الباقيات بأعلى صوتهن قائلات أجل، دنونا منها، وأحطنا بها، ودونما تردد راحت تقص علينا مغامرتها الغرامية دون أن تخفي فصلا أو تنسى تفصيلا، فلما أفرغت كل ما في جعبتها اندفعت كثيرات إلى سرد مغامراتهن السرية، والتباهي بالكلام المعسول الذي قيل عن جمالهن، وعد الهدايا التي قدمت لهن في مناسبة وفي غير مناسبة، وسردن وهن تضحكن الكذبات التي لفقنها وقدمنها لأهاليهن كلما رغبن في لقاء أحبائهن فالورطات التي وقعن فيها بسبب ما لفقن ثم سألنني عما في جعبتي.

ابتسمت وأخبرتهن أني بعيدة عن مثل ما تسردن على مسمعي، وأني عاجزة

عن الإتيان بكذب كالذي تكلمن عنه، قلت أني أقضي وقت الفراغ بين رفوف الكتب، وبأني أتطوع كثيرا للعمل في دار الستة التي تعرفنها وتعرفن أني أقطن وأسرتي بإحدى حجرها.

أصغين إلي فلما أنهيت حديثي تضاحكن وتنافسن في السخرية مني، لا بل وقلن بأني الساذجة بينهن، وبألا مكان لمثيلاتي في جلساتهن، أحزنتني كلماتهن وكادت تذرف دمعي فقمت ودعتهن واتجهت صوب بيتي، ثم ما هي إلا لحظات حتى فوجئت بلحاق إحداهن بي.

ربتت زميلتي على كتفي وطلبت إلي ألا أكترث لمضايقات الأخريات فجميعهن مررن بهذا الموقف بادئ الأمر، ثم شدت يدي وراحت تحدثني أثناء سيرنا عن جمال الحياة حين تملأها قصص الغرام، وعن السعادة التي توهج قلب الفتاة لدى تلقيها الهدايا والأشعار من عاشق ولهان، وصفت لي طعم ليالي الحب وصفا بديعا ورسمت للقاء أروع اللوحات، كلمتني عن هذا كله وبسمة تداعب ثغرها وبريق يتراقص في عينيها، لكن البسمة اختفت والبريق ما إن سألتها عن موقف أهلها من علاقتها.

تركت الزميلة يدي وقطبت ثم قالت بصوت حازم أن الحب والحبيب يستحقان التمرد على الأهل والمجتمع اللذان لا يفهمان مشاعرنا ولا يحاولان تفهمها، وأنا أحرار، والحرية هي أكثر ما ينادي به عصرنا ويناضل من أجله جيلنا.

ما قاطعتها حين تكلمت وما واصلت الحوار لما انتهت من الكلام، دون نبس كلمة واحدة بدا علي عدم الاقتناع بحججها فظهر عليها الاستياء بسبب عجزها عن استمالتي إلى مذهبها، همت فجأة بمفارقتي فخطت خطوتين للابتعاد عني، ثم استوقفت نفسها واستدارت نحوي، وبدل أن تذكر عبارة للوداع أضافت فيما يشبه النصح كلاما حول خوض علاقة أحيا فيها ما

تحياه تريباتي، أو أتحدث عنها حتى لا أكون غريبة الميول والأطوار في جلساتهن فلا أحد يحب الغريب سوى غريب مثله.

ودعتها على أني لم أودع كلماتها، سرت عائدة إلى البيت ولكن في حال مغايرة عن الحال التي غادرته فيها فقد كنت مجرد فتاة مراهقة تبسط العواطف سلطانها علي، ويفتقر فكري للخبرات القادرة على توضيح الحقائق كلها، كنت أود خوض ما تخوضه فتيات من مثل عمري ولكني ما استطعت في ذات الآن سوى التمسك بالسؤال عن كل ما يدفع بالأهل والمجتمع إلى رفض هذا الشعور وتجريمه، فلما ضاق صدري بسبب الصراع بين رغبة فؤادي والمتاهة التي علق بها فكري، لما ضاق صدري بسبب هذا الصراع انزويت في المكان الوحيد الذي أستطيع الاختلاء فيه بنفسي دون أن يقطع خلوتي إنس أو طير، انزويت في المكتبة.

لا يحدثنا أهلنا أثناء نشأتنا عن العلاقات الغرامية، بل يكتفون بتحذيرنا منها وتوعدنا بالعقاب الشديد إن خضناها، حسبهم أن الخوف الذي يبثه في نفوسنا تحذيرهم ووعيدهم قادر على الحلول دون أمر يدفعنا إليه فضولنا الفتي وعاطفتنا المراهقة وأحلامنا الساذجة، فأما الخوف فحاجز لا يدوم أبدا، وأما الصواب فهو البوح بحقيقة هذه العلاقات وما تخفيه ثم مدنا فسحة لبناء قرار فالذي نختاره طوعا لن نتردد في الذود عنه حتى الموت، أما ما يفرض علينا بالوعيد والتهديد فسجن لابد أن نفر منه يوما.

لا يحدثنا أهلنا عن العلاقات الغرامية وحجتهم أنا صغيرات على كل حديث يخصها وقاصرات على اتخاذ القرار الصائب في شأنها، وهم بحجتهم يحرموننا المعرفة ثم يحملوننا مسؤولية الجهل بها بالرغم من درايتهم أن المرء لا يستطيع تحمل مسؤولية لا يعرف لها مفهوما ولا وصفا ولا أثرا، فهل يعقل أن تكون هذه الحجة خدعة يوهموننا بها وأن يكون سبب امتناعهم عن الحديث علمهم

أنهم قد لا يملكون القدرة على توضيح الأمر والقدرة على إزالة كل إبهام محيط به؟

كنت بتلك الأمسية مراهقة واقعة في واحدة من أكثر مسائل المراهقة غموضا وخطرا وجاذبية، كنت بحاجة إلى صديق أتجاذب معه أطراف الحديث دون أن أخشى استنكاره لأسئلتي، أو غضبه من أفكاري أو سخريته مما يخالجني، ولما كنت على يقين بألا وجود لشخص مستعد لخوض حديث كالذي أرغب فيه ازداد الضيق في صدري فقمت من أمام الطاولة، سرت بين رفوف المكتبة بحثا عن كتاب يرحل بي إلى دنيا لا مكان فيها لهذه الحيرة ولا زاوية لهكذا هم وإذا بي ألاقي قصة «سارة».

نادت هذه الفتاة اسمي ثم طلبت إلي مرافقتها فلبيت دون تردد طلبها وكيف لي أن أرفض نداء لكتاب، سرت وهي زمنا طويلا في أزقة مصر، تلك الأزقة التي قرأت عنها حتى حفظت أسماءها، والتي انشغلت بوصفها حتى تراءت أمامي أكثر من مرة، أزقة تنسمت طيب الشاي المنبعث منها، وبلغ مسمعي صوت عربة بائع الرغيف المتجول بها، ووقع أقدام الشيخ المتجه صوب المسجد ليصلي للواحد الأحد.

سرت وهذه الفتاة الملقبة سارة بأزقة مصر دون أزقة الدنيا كلها وكذلك فعل همام حبيبها، كنت أتلفت بينهما كلما قرأت فقرة أو كلما انتقلت من صفحة إلى الصفحة التي تليها، كنت أحدق إليهما مليا إذا ما تبادلا النظرات وأحدق إذا ما أشاح كل منهما بوجهه عن الآخر، كنت عليمة بأن لهما وجهة سيبلغانها لا محالة، وتصورت الوجهة بيتا شعبيا بحارة السيدة زينب يجمعهما برابطي العشق والزواج، وريثما يتحقق تصوري رحت أصغي بفكري وفؤادي إلى كل ما قالته هذه الصبية وإلى كل ما قيل لها وعنها.

دون أن أشعر انتهت الأقاويل التي بدا لزمن أنها لن تفعل، ودون أن أحرز

افترق ثلاثتنا عند نقطة النهاية مع أن الفراق قدر حسبت أنه لن يكتب، فلما وجدت نفسي وحيدة من بعد صحبتهما، ووجدتهما وحيدين من بعد هيامهما انبثق بفكري رأي لم أقدر كتمانه، وتفجرت بصدري عاطفة عجزت عن السيطرة عليها فسألت في نفسي: «من سيرضى احتواء رأيي وعاطفتي كاملين دون استنكار أو غضب أو سخرية، من سيهبني برهة أكون فيها على سجيتي دون قيد من خوف أو قناع من تصنع»، غير أني ما عثرت على هذا الأنيس حين تصفحت ذاكرتي وما كنت لأعثر عليه حتى لو تصفحتها مرة أخرى.

بعثرت أناملي الأوراق البيضاء الموضوعة فوق الطاولة ثم عادت إلى ترتيبها وكذلك فعلت بالأقلام، لم يك في وسعي تناسي ما انبثق بداخلي ولا تجاهل ما تفجر، جل ما رغبت فيه هو الرفقة الطيبة غير أن هذه الرفقة نادرة المنال، نظرت بعين تفيض يأسا إلى حبر ‹سارة› وإذا بي ألمح في الحبر الرفيق الذي كنت بأمس الحاجة إليه!

جثمت لوهلة وكأن عقارب معصمي قد توقفت لتجعل مني سيدة الزمن؛ آمره أن يعود أدراجه للذي تجاوزه فلا يعصي أمري، أشير إليه أن يكمل تقدمه فينصاع لإشارتي، أطالبه بالسكون فيمتثل لطلبي، كانت تلك الوهلة خاصتي أصنع بها ما أشاء فاخترت حمل قلمي الأسود لأكتب للرفيق الذي لمحت التالي:

حضرة المعلم عباس محمود العقاد

يا صاحب العبقريات، عرفتك عصاميا فذا ومفكرا فريدا ومؤلفا عملاقا قد لا ألتقي في عمري القصير مثيلا له أبدا، وبينما كنت أقرأ اليوم من موروثك تعرفت على فتاة أسميتها ‹سارة› ثم عرفت نهاية قصة غرامها فسألت في نفسي: أما كان حبرك قادرا على

إنهاء ما جمع بين هذه الفتاة وحبيبها بغير الهجر والفراق؟ أما كان قادرا على إدامة ذاك الفيض من العشق الذي كناه لبعضهما؟ لا بل كان لو سمحت له أن يفعل ولكنك عمدت إلى منعه وحرصت على أن تذيق هذين العاشقين عذاب حب خلص إلى ذكريات.

وبينما كنت أسائل نفسي رأيتك جالسا بجانبي، باسما عليما أن هذه الصبية التي تمضي في الفتوة والتي تسأل لتزيل سواد الجهل، إنما هي صبية تحب كل ما يشع منك لأن شعاعك في نفسها كشعاع الشمس دافئ ومنير.

فيا سيدي، لو كان ختام قصة هذه الفتاة وحبيبها طيب الوقع لصدقته تماما كما أصدق الآن النهاية التي أبيت إلا أن يؤولا إليها، وأصدق وهذه النهاية كل خطوة خطياها، وكل كلمة نبسا بها وكل كلمة لمحا إليها وكتماها، وأصدق نظراتهما التي تخيلتها دون أن أراها، ودقات قلبيهما في جميع أحوالهما التي شعرت بها تخفق بيميني أو بيساري أو بهما معا، أفتدري لم؟

قد سمعت كثيرا من تربياتي تتحدثن عن أنفسهن بذات ما تحدثت به عن›سارة›، سمعتهن ترويـن الكثير عن علاقاتهن الغرامية بشباب ورجال، عن الأوقات التي يقضينها برفقتهم في مكان يتسلون فيه ويضحكون، أو زاوية يتسامرون بها ويتغازلون، وكن تجعلن نهاياتهن التي لما تحن بعد عكس نهاية هذه الفتاة المصرية، فقد زعمن بألا أحد وبألا شيء قادر على إنهاء ما يجمعهن برفاقهن، وكنت أحيا بسببهن في حيرة تميل بي حينا نحو التشكيك في نهاياتهن المزعومة، ثم تميل بي حينا آخر نحو تصديقها، وكيف لي أن أجزم وأنا لم أعرف قبلك شيئا عن خبايا نفس المرأة ونفس الرجل في قصص الحب بعد أن حرمت حرية

الحديث عنها وفسحة السؤال؟

ولكن الحيرة زالت ما إن أريتني في موروثك غلبة العادات والأعراف على فؤاد الرجل العربي مهما تحصن هذا الفؤاد بهوى امرأة أذنبت في حق شرفها، وكيف يدين المجرم حامله إلى الجرم وكيف يعاقب الآثم شريكه في الإثم، ثم يبقى للذكر الغد ويفنى كل شيء بيمين الأنثى.

في مجتمعنا العربي ينكر أولياؤنا بالجزائر كما بمصر العلاقات الغرامية التي لا تبدأ بخطبة ولا تنتهي بزواج، ولكن إنكارهم دوافع لا تكشف وحوار لا يستهل وحديث لا يبادر إليه، إنما إنكارهم غيرة جارفة تسيطر عليهم وتجعل من محاولتهم لحمايتنا أذية، فبدل تكليمنا وتوعيتنا وتثبيت المفاهيم السليمة بعقولنا يشيدون لنا سجنا من الوعيد والتهديد والتخويف والحراسة، والسجن مكان خانق للمذنب فكيف للبريء الذي لم يقترف ذنبا.

يا ابن النيل والهرم، ما أعظم الرجل الغيور حين يحوي لبه غيرته فيحكمها ولا تحكمه، ويأمرها ولا تأمره، ثم يقودها ولا تقوده لأن الغيرة العمياء هوس قاتل أما الغيرة البصيرة فمنقذ من ذئاب تهوى نهش الشرف، فشكرا يا من كانت غيرته فذة وفريدة وعملاقة على قصة ‹سارة› ذات النهاية القاسية، إنك بالقسوة على ‹سارة› قد حنوت على حواء أمة ‹سارة› كلهن.

حدثني الكاتب عباس محمود العقاد وأنا بنت الخامسة عشر ربيعا بالفكر والقلم عن الذي منعت من الحديث عنه فمكنني من إبصار حقيقة مفادها ألا مستقبل للفتاة العربية دون شرفها ولها المستقبل كله بالحفاظ عليه ولئن فقدت كل شيء غيره، كلمني الكاتب العقاد بالفكر والقلم رغم صغر سني وأجاب

عن كل سؤال راودني وكشف عن كل مبهم نازعني فاتخذت موقفا نابعا من الاقتناع لا من الخوف، استطعت بفضله اشباع ذاك الفضول الفتي بداخلي ومراعاة تلك العاطفة المراهقة والأحلام الساذجة.

أخذت نفسا عميقا وأنا أنظر إلى ما فعله قلم وورق، أزالا حجرا من دربي لئن بدا للبعض بسيطا فإن الكثيرين يعرفون كم عثرت فيه بنات حواء وكم سقطن بسببه، قلم وورق مكناني من تكليم أديب ما حسبت أنه قد وجد سبيل لتكليمه، فلكأنهما ألقيا علي هبة في المكان الوحيد الذي لا يهبه أحد زيارة أو سلاما.

قرأت رسالتي التي حوت كل عواطفي وأفكاري دون زيف أو تنميق ثم تساءلت عن التوقيع الذي ستحمله، لم أرده غريب الوقع أو متكلف الصياغة أو متصنع الجوهر، جل ما رغبت فيه هو أن يرفع أمانة قلمي في خط أفكاري وعواطفي، وأن يشير إلى الوطن الذي أنجبني حتى يعرف عصامي مصر الأرض التي يحفظ فيها موروثه الأدبي، ولهذين السببين العفويين أخذت قلمي بهدوء ووقعت على ذيلها ‹صادقة في الجزائر›.

ابتسمت حين وقعت رسالتي ابتسامة لم أعرفها من قبل فقد رأيت في توقيعي الخصلة التي لا يصلح فعل المرء وقوله دونها، الخصلة التي علمتنيها أمي ودار الستة مذ ولدت.

نظرت إلى الرسالة التي ما كان سعاة بريد الدنيا كلهم قادرين على وضعها في صندوق بريد المرسل إليه ثم ابتسمت مرة أخرى، ما أخفيت عنها فخري بها فقد ولدت لي من أدب وفصاحة وقيم، هذا وما أخفيت أيضا سعادتي فقد كانت خطابي لواحد من أحب الكتاب إلى نفسي.

لامستها بأناملي لمسا ناعما ثم تساءلت في نفسي عن المكان الذي يليق

أن أحتفظ بما فيه، وبدل الفكرة الوحيدة هبت علي كالريح الأفكار، وراحت تدعي كل واحدة منها أنها الأمثل فخاطبتها دون أن أشعر قائلة: «أأضعك بمحفظتي أم آخذك إلى غرفتي؟ أأبقيك بخزانتها أم تودين المكوث جنب تختي؟».

فجأة راودني أن هذه الرسالة قد تقع بيد غريبة؛ زائر جمعت الصدفة بينها وبينه، أو زائر متطفل عرف كيف يكون له بها لقاء، تملكتني القشعريرة وخشيت أن يقرأ أحد الزائرين فحواها وهو عاجز كل العجز عن بلوغ فكري، ضارب بعواطفي عرض الحائط، خشيت أن يتهمني على حين غرة بالذي لن أعرف كيف أدفعه عني، تصورت أنه سيعيب أخلاقي ويدين نظري إلى الأمر الذي ما كان علي النظر إليه، ثم قد يلقي باللوم الأكبر على الكتاب وصاحبه، ثم قد يعلو صوته ولومه فيصغي والداي اللذان طالما عبر لهما الآخرون عن امتعاضهم من تواجدي بالمكتبة المهجورة، يصغي والداي لهذا الصوت واللوم ثم يمنعانني من الجلوس بين ذراعيها ويحرمانني من لقاء الكتب.

وفي تلك اللحظة التي فقدت فيها الأمان بعد أن راعني المصير الذي سيجلبه صدقي في الموضوع الممنوع، بتلك اللحظة، اتخذت القرار الذي اعتبرته الصواب فثنيت الرسالة ثم أخفيتها بدرج طاولة المكان الذي لا يطرقه أحد غيري.

أعدت قصة ‹سارة› إلى الرف وغادرت المكتبة، نزلت الدرج وتوجهت صوب غرفتي، راجعت بعضا من دروسي، ثم خلدت إلى النوم ونفسي مطمئنة بعد أن أنقذتها من أكثر زوبعات المراهقة غموضا وخطرا وجاذبية.

أفقت في صباح اليوم الموالي وكلي نشاط، رويت شجرة التوت وألقيت بالحب إلى سرب اليمام ثم سرت إلى الثانوية، فلما رأتني فتيات صفي أجتاز عتبة بابها عدن إلى محاولة مضايقتي وقلن لي: «عمي يا محبة الكتب فلا صاحب لك»، قلت لهن: «قد نعمت برفقة تغنيني عن الرفقة المنكرة، إني لا أخشى بفضلها لوم بشر ولا أخشى على غدي، تخفين عني وعن بعضكن

ريبكن حول رفاقكن وهو يخفى ولا يختفي، لا تحسبن أنكن غيرتن مبادئ الأخلاق إنما غيرتن أنفسكن».

لزمن الصمت بعد أن اختفت نظرة الاستخفاف من عيونهن فواصلت السير نحو حجرة الدرس، وآه كم وددت قص ‹سارة› عليهن بدل مشاجرتهن ولكني لمست في نظراتهن غضبا يمنعهن من الاستماع إلي، هذا ولمست أيضا غيرة من قدرتي على التمسك بمبدأ كن قد تخلين عنه جميعهن.

حين عدت إلى البيت بعد الدوام توجهت صوب المكتبة، قرأت رسالتي مرة أخرى ثم عدت إلى إخفائها، حاولت أن أتصور ما كان ليقوله الآخرون عنها لو علموا بملهمي لكتابتها لا بفحواها: «رحل العقاد، لن يقرأها أبدا»، أخبرت الكتب بالذي أتصوره وجعلت نبرة صوتي غليظة خشنة حين نطقت بهذا التصور، ثم ضحكت واسترجعت نبرتي الدافئة الهادئة وقلت لها «أهوى فكره وفؤاده فكاتبته وقد رحل».

حسبت أن رسالتي للمفكر العقاد هي أول وآخر رسالة أخطها لأديب أهواه وأحظى بنصيب وافر من موروثه، لم أشك قط أني سأدمن الكتابة للمؤلفين تماما كما أدمنت القراءة لهم، وأني سأضيف إلى الدنيا التي كنت أحياها برفقتهم مذ نعومة أظافري زاوية من صنيع فكري وفؤادي، وأني بهذا أبدأ عهدا جديدا في المكتبة.

مرت أيام امتنعت أثناءها بعض من زميلاتي عن تكليمي وألقت علي أخريات كلما سنحت لهن الفرصة تعليقات ساذجة حينا وجارحة أكثر الأحيان، وأمضيت أنا هذا الزمن في تجنبهن والانشغال عنهن بالدراسة الجادة والمراجعة اليومية، ثم حلت العطلة الأسبوعية فحظيت بفسحة من السكينة بعيدا عنهن، ساعدت أثناءها الأشبال على زراعة بعض الشجيرات في واحدة من حدائق العاصمة العامة، فلما أنهينا العمل كله وعدنا إلى دار الستة، حملت

أدوات التنظيف وتوجهت صوب مكتبتي.

لم يكن أحد يعنى بنظافة المكتبة المهجورة فتوليت هذه مهمة مذ كنت بنت الثامنة ربيعا، جعلت وأنا في هذه السن الصغيرة من عطلة نهاية الأسبوع موعدا لإزالة الغبار عن علميها وكتبها ورفوفها وطاولتها، وعن مصباحها وأرضيتها ونافذتها، وكنت كلما فرغت من التنظيف نظرت إليها سعيدة بمظهرها وريحها ثم جلست فيها وبيدي كتاب ينسيني التعب.

ما إن فرغت من التنظيف بذلك المساء الذي عقب أسبوعي المميز برسالتي السرية حتى سارعت كعادتي إلى رفوف الكتب، وبينما رحت أبحث بينها عن أدب أثري به جعبتي، وقع نظري على كتاب «المعذبون في الأرض».

أشار إلي هذا العنوان بفحوى الصفحات العتيقة فتشوقت لقراءة قصص عذاب أشخاص لم تجمعني الحياة بهم من قبل، ولم يك سبب تشوقي رغبتي في الاطلاع على أخبار غيري، لا بل طالما كنت من أشد الكارهين للجلسات التي لا حديث فيها سوى أحوال الناس وأسرارهم، إنما كان سبب هذا التشوق رغبتي في معرفة العذاب الذي سار بالكاتب طه حسين نحو الحبر والورق.

مددت يدي دونما تردد وأخذت الكتاب من الرف الوسط، جلست إلى الطاولة بهدوء ثم انطلقت أطالع ما دون في صفحاته منذ سنوات عديدة سبقت ميلادي.

حسبت أن مشاعري ستتحرك بالذي سأقرأه وأن صدق إحساس الراوي قد يصل بي إلى حد ذرف عبرة، لكن العميد ألهب مشاعري كما لم يفعل أديب من قبل فهو لم يكتف بقص خبر ذاك الفتى الملقب صالح والذي نال من عذاب شتات الأسرة نصيبا وافرا، ومن عذاب الفقر والشقاء نصيبا أوفر، بل أخذ بيدي وأدخلني إلى عالمه لأدرك كم أنا مذنبة في حقه وفي حق أمثاله، ثم

ازداد اللهيب استعارا في صدري حين عبر باب دار الستة ليقف عند وجعي الذي حسبته سرا لا يعلمه غيري، لا يشعر بثقله وعمقه فؤاد عدا فؤادي ولا يقلب ذكرياته بال سوى بالي، فلما دق حبره أجراس الختام تأهبت وعواطفي تتلاطم وذكرياتي تتداعى لتوديعه، لكنه أب الأدب، رفض ترك يدي والرحيل إلا بعد أن ربت عليها برفق ودفء.

انسكبت عبراتي كما لم تفعل يوما لدى قراءة كتاب، تحسستها بأناملي فبدت كأنها دموع لا ترضى أن يقربها المنديل، لكأن دموع الأدب لا يجففها سوى الأدب.

شعرت أن الحديث عن ذاك الفتى وغيره من أصحاب الشقاء في الأرض سيمسح أغلبها، وأن الحديث عن عذابي الذي لم أك قد بحت به من قبل سيمسح البعض المتبقي، ولكني ما عرفت لحظتها صديقا قادرا على الوقوف جنب باب هذا الشقي وجنب بابي ليواسي أفكاري وعواطفي، لا ليتسلى بوقت فراغه ثم ينسى وجودنا في وقت انشغاله كأنا ما رفعنا الضماد أمامه ليرى ما نحمل من الجراح والندب.

حام بصري في أرجاء المكتبة ثم عاد وحط على صفحات الكتاب فإذا بي أرى تقاسيم وجه العميد وبسمته، اطمأننت وسرت السكينة بيدي فحملت قلم الرصاص دون أن أشعر ثم كتبت:

حضرة المعلم طه حسين

غريب هذا الذي يصنعه بي كتابك يا عميد الأدب، فهو يوحي إلي زمنا أنك تحدثني عن صالح لائما وعاتبا بسبب الحرمان في سنوات حياته وبسبب لحظات موته القاسي، ثم يوحي إلي زمنا آخر أنك تكلمني عنه لما في حياتي من أشباه صغائر أوجاعه ومن أشباه

كبائرها، فلما ينصرف عني هذان الوجيان يشعرني أنك ما أسريت لي بقصته إلا لأن لي قلبا ازداد خفقانا كلما قرأت منها سطرا.

فيا من نظرت إلى أصحاب العذاب الذين عمي عنهم المبصرون، لابد أن أخبرك حين يداخلني الوحي الأول بأني لا أبحث عن ذريعة تبرئني، أني لا أدفع بعتابك ولومك عني لألقي بهما على ذوي المال والسلطان، كما أني لا أجعل من سني الفتية وسيطا يلتمس لي العفو فأنا لا أنكر واجباتي نحو هذا البلد، ولا أعرض عن الأشقياء فيه، ولا أرضى أن تكون منزلتي عدما لا يضيف ولا ينقص.

لبلدي ولأبنائه واجبات على عاتقي، ترك القانون ما لم يقدر على تنظيمها فأمر بها الضمير وما مساعدة المعذبين الحزانى الفقراء الأيتام كحال صالح إلا واحد من هذه الواجبات، ثم قد يحسب الكثيرون أنها قليلة لأن أمثال صالح أقلاء، ولكن وحدها أوطان حباها الله الفساحة كالجزائر ومصر تعرف كثرتهم وموطنهم، وتعرف ما يلقون من الشقاء وما لا يلاقون من العون.

إن اللوم والعتب بسبب إهمال هذه الواجبات منبه للضمير الحي وهما أكثر ما يزعج الضمير الأناني فتراه يسارع إلى تبرئة نفسه بإلقاء التهم على غيره فالبحث عن وسائط تلتمس له الأعذار حتى يتخلص منهما.

ثم لابد أن أسألك حين يراودني الوحي الثاني قائلة: متى أتيت يا سيدي؟ وبأي زوايا بيتي جلست فرأيت الباقة التي جمعت؟ ثم كيف عرفت أني قد أملت أن أنال بها مرادا هو غير المراد الذي زعمت أمام الجميع أني أود نيله؟

قد كنت أجمع الياسمين وشقائق النعمان ثم أقدمها لأشبال

وعمال دار الستة حين يهمون بالرحيل عنها بعد قضاء سنوات من الحياة فيها، أقدمها لهم لحظة وداعهم متظاهرة بأنها باقة جميلة أحببت جمعها للذكرى، ومخفية وراءها طلبا لبقائهم وحزنا جما لفراقهم فقد كانوا أحب الناس إلى فؤادي، كانوا أصدقائي وأسرتي تحت سقف بيتي.

لقد أخفيت حقيقة الباقات الكثيرة التي قدمتها على مر السنين، ولكني بحت لك اليوم بسرها وللبوح دافعين؛ أما الأول فهو حديثك عن الباقات التي نخفي المراد الحق الذي نود بلوغه بها والذي لا يعدو أن يكون بلسما لجرح مسبب للألم في داخلنا، حديثك طيب خاطري لما حملني على أن أكتب عن الذي أوجع بالكتمان خاطري، وأما الثاني فهو معرفتي أنك سيد لا يشير إلى موطن الألم ليتقصى أخباره ثم يتسامر به في جلساته، بل يشير إليه حبا في حامله بزمن لا يداوي فيه الألم شيء سوى الحب الصادق.

فإن أنت سألتني عن الشعور الذي يخالجني أخبرتك أنه باعث هذه الابتسامة المرتسمة على ثغري بالرغم من الكآبة التي تغمرني لحال أمثال صالح ولحقيقة باقاتي، فما أحب إلي أن يخصني رجل كريم بسره ويشاطرني واحدا من أحواله لأن لي قلبا يشعر بخفقانه.

صادقة في الجزائر

كذا شاطرت الآخرين عذابهم وشاطرتهم عذابي مع أنا لم نلتق يوما ولن نلتقي، كذا هو السحر في الأدب.

حدثني الكاتب طه حسين بقلمه عن بعض من الآلام التي جعلت من بيوت المصريين البسطاء أرضا تستوطنها ولا تفارقها، ولم تك بالآلام الغريبة عن بيوت الجزائريين البسطاء، فالجوع والعري والضياع بعد اليتم قصص كنت

قد سمعت زوار الدار يسردون تفاصيلها ويتأوهون أثناء السرد ويذرفون الدمع أيضا.

جثمت قرب النافذة الهرئة ونظرت مليا إلى السماء الصافية، تمنيت لو كان بمقدور الدار أن تستقبل بين ذراعيها البسطاء المصريين أيضا، غير أني علمت في صميمي أنها أمنية تجاور المستحيل لأن مصر أرض بعيدة جدا، فجأة لمحت سربا محلقا، خيل إلي لحظتها أنه متجه صوب مصر فتمتمت بصوت خفيض بلغ مسمع الكتب قائلة: «سأحلق يوما حتى أبلغ النيل، وربما أفعل لن ينسى قلبي قط بسطاء هذه الأرض وسأذكرهم كلما زار البسطاء بيتي».

مددت يدي بهدوء ومسحت بها على الكتاب الذي أذرف فحواه دمعي كما لم يفعل كتاب من قبل، حملته برفق وأعدته إلى الرف الوسط ثم وضعت رسالتي للأديب طه حسين بجانب رسالتي للمفكر العقاد؛ بأحضان درج طاولة المكتبة فقد خشيت مرة أخرى أن يقرأها أحد فيسارع إلى مساءلتي وانتقادي فإقناع والدي باتخاذ موقف ضد تواجدي بالقرب من الكتب التي تدفع بي إلى الكتابة للذين رحلو إلى العالم الذي لا نكتب لمن رحل إليه.

لم أدرك يومها واجب ألا أخشى البوح بفكرة وعاطفة صادقتين، ألا أخفي كياني في حجرة مهجورة، فالذي يخشى ويتخفى مرة فاثنتين فثلاثا قد لن يظهر يوما للعلن، ولكأنه طيف لا يدري أحد أحقيقة هو أم وهم...

شغلت هاتان الرسالتان مكانا في نفسي أكبر من المكان الذي شغلتاه بالدرج فقد حملتا أفكاري وعواطفي إلى مؤلفين عملاقين في تاريخ الأدب المصري وتاريخ الأدب العربي، ومع أن المؤلفين قد فارقا الحياة قبل ميلادي بأعوام طوال إلا أن الشعور بهما جالسين بجانبي كلما قرأت من الموروث الذي خلفاه كبر وأضحى شعورا بجلوسهما قربي حين كتبت لهما عني.

كانت كتب مكتبة دار الستة حصتي من هذا الموروث، وكانت تجذبني إليها وأنا طفلة برسوماتها الجميلة وصفحاتها الناعمة، بأحجامها الكبيرة التي بلغ طول بعضها قرابة نصف طولي أو بأحجامها الصغيرة التي لم تتعد كف اليد، ثم أتقنت القراءة فصارت تجذبني بالخيال البديع القاطن في صفحاتها، وبالشخصيات الخيرة التي اتخذت من سطورها بيتا، أما بعد أن بلغت الخامسة عشر ربيعا فراحت تجذبني بعناوينها الدافئة المشرقة، البسيطة العذبة، الغريبة الغامضة، الحزينة الباكية أو بتلك التي حملت كل هذه الصفات في آن واحد، وكنت على يقين أنها ستجد دوما سحرا تجذبني به إليها مهما تقدمت في العمر.

هذا وكانت هذه الغرفة البسيطة المهجورة برفوفها وما تحمل زاويتي التي أهنأ بالزمن الذي أقضيه فيها، وأعرف أن لكل منكم زاويته التي يهنأ بين أحضانها والتي قلما تكون فاخرة، فإن سألتم عن سبب هذه القلة فلا تنتظروا مني جوابا لأني لا أملكه، ولكن في وسعي الإفشاء بما في نفسي والقول: «ربما لأن الفخامة شيء للتباهي لا للهناء».

في تلك السن اليافعة كانت الثانوية وبالرغم من بعض قصص المضايقات التي لا تنفك تحدث بين طلابها، كانت مكانا آخر للهناء في حياتي؛ ساعات من العلم والجد ولحظات من الضحك والمزاح، لا أزال أتذكر النكت والمقالب التي أطلقناها في طريقنا نحو حجرة الدرس، وفي وسعي الشعور بنكهة حبات الحلوى التي تشاركناها في الفناء، ثم إني أحفظ بأعماقي ألقاب أساتذتي وزملائي كلهم وأحتفظ بالكثير من الذكريات التي جمعتني وهم بالرغم مما حمله الزمن من بعد.

كان عهدا مميزا فلا نحن بالنساء والرجال بالرغم من أننا نقلدهم ونود أن نعامل مثلهم، ولا نحن بالأطفال مع أننا نتصرف كثيرا مثلهم، كنا نشب

بسرعة ولكننا شعرنا بأن الزمن لا يمضي قدما، كنا نسير في الدرب لنضحي أشخاصا راشدين، لا أحد منا أخذ الحياة التي كانت في انتظارنا بالجدية التي أخذها أثناء التحضير للواجبات المنزلية والامتحانات الفصلية، لا أحد دون استثناء.

هذا وقد كانت حصص الإنشاء أكثر ما أحببت في الثانوية لأنها الحصص التي دونت فيها أفكاري وعواطفي ثم قرأت ما دونته على مسمع معلمي وزملائي دون إخفائه خشية من نقدهم وعدائهم، ولم الخشية ما دمت قد أمرت بالكتابة في موضوع لا أتعداه ولا أغيره سواء أحببته أم حملت له الكثير من البغض؟

لا أزال أتذكر عودتي إلى البيت في إحدى الأمسيات سعيدة بالملاحظة المميزة التي حملتها ورقة الإنشاء فقد دون معلمي بحبره الأحمر أن لي قدرة خاصة على التعبير، أسلوبا متفردا وحسا يجري كنهر عبر السطور، لم أكتف من قراءة هذه الملاحظة ومن إبداء فخري بها، فشددتها إلى جدار غرفتي كشهادة استحققت نيلها ثم توجهت نحو المكتبة لأقضي فيها ساعة من الزمن.

سرت بين الرفوف ببطء بينما رحت أقرأ العناوين واحدا واحدا، أبحث عن الذي لم أعرف له وصفا مسبقا، ولم يك لي معه موعد مطلقا، أفتش عن الذي ظل في الرف سنينا دونما تذمر أو ضجر، تأملني وأنا أشب وانتظر بصبر اللحظة التي أضحي فيها قادرة على استيعابه ليهبني جوهره الثمين، فجأة جثمت ما إن وقع ناظري على «شمس النهار» المتخذ من الرف الأيمن مكانا له.

جذبني هذا العنوان إليه لما يحمله من عذوبة ودفء فدنوت منه بهدوء ثم أخذته برفق وجلست إلى الطاولة، رحت أقرأ بشغف فصوله الواحدة تلو الأخرى، لا استوقفتني عقارب الساعة الملتفة حول معصمي ولا الشمس

الماضية صوب المغيب فقد كانت في فصوله مغامرة فريدة في أحداثها ومتميزة بشخصياتها، فلما أنهيت هذه الفصول وجدت أن فحوى هذا العذب الدافئ قد ترك في أعماقي رأيا وعاطفة خاصين.

هل ترددت في حمل القلم؟ لا، لم أفعل فقد كان لصاحب الكتاب الحكيم مكانة حميمة في نفسي تزيدني رغبة في تكليمه:

حضرة المعلم توفيق الحكيم

لقد تلاعب بي عنوانك يا سيدي فقد حسبته يرمي إلى الحديث عن ذاك الكوكب المشتعل في المجرة وإذا بي أجده لقب أميرة ولدت لسلطان، والحق أني أحببت كثيرا هذا التلاعب الذي لا يتقنه سوى محترف الحبر والخيال، هذا وأحببت أيضا رحلة هذه الأميرة التي لم تك بقصر بين الحاشية والحرير، بل في العراء حيث المرء أمير نفسه بالأحكام التي يصدرها وحاشيتها بالعمل الذي يقوم به.

لقد صورت في فصولك سعادة الأميرة «شمس النهار» بالطعام الذي تعبت في صيده فتحضيره فطهيه كسعادة لم تشعر بها وهي تجد موائد الملوك توضع أمامها محملة بألوان من الطعام الفاخر في صحون الذهب وصينيات الفضة، وأعرف يا سيدي أنك ما قصدت الأميرة بشخصها ولا المائدة بذاتها، إنما جعلت من الأميرة رمزا لكل إنسان وهبته الحياة من النعيم ما أغناه عن مد يديه للعمل، وجعلت المائدة رمزا لثمار كل عمل.

لا يستطيع الإنسان الاختلاف في طبيعته البشرية عن غيره مهما علا مقامه وذيع صيته، ثم لا بد له أن يشعر بالسعادة والفخر لدى إنجاز العمل بنفسه متى كان هذا العمل متقنا وبديعا، وهذا شعور

جميل يستحيل أن يغمره إن هو أمر خادمه بإنجازه بدلا عنه، فها أنا أعتني في بيتنا بشجرة توت عملاقة طيلة أيام السنة، أرويها وأنزع العشب الضار من حولها بين الحين والحين ولا أنسى مطلقا حاجتها للسماد، حتى أني أشدو لها لحنا كلما ترنحت بالأرجوحة المشدودة إلى أغصانها، فلما يحين القطف أشعر نحو ثمارها بعاطفة لا أشعر بها نحو غيرها لأنها الثمار التي بذلت الجهد في سبيلها.

أتمنى أن أشعر بهذه السعادة الشبيهة بسعادة «شمس النهار» في ثمار كل عمل أتمه بنفسي بدء بنتائج امتحاناتي الدراسية، ومع أني لست كهذه الصبية أميرة قصر إلا أني أميرة بيتي.

صادقة في الجزائر

لم أعرف في حياتي بيتا أنبل ولا أعدل ولا أكرم ولا أأمن من بيتي فبيتي دار للتاريخ والعلم والخير، كان قبل العقود التي سبقت ميلادي مغتصبا بيد المستعمر الفرنسي ومستوطنا من قبل أحد العسكريين، يخزن به سلاح العدو وتحاك فيه المؤامرات ضد الثورة والشعب، لكن المجاهدين الأبطال طرقوا بابه بنيران البارود ذات ليلة من ليالي الثورة الخالدة بالذاكرة الوطنية فاستشهد ستة عطروا بدمائهم الزكية أرضه وسماءه ففر المغتصب وحلفاءه بعد أن دب ذعر العاصي في قلوبهم.

ظل البيت وحيدا بعد أن منع الخوف المستوطنين المستعمرين من اقتحامه مرة أخرى، ظل في وقار ينتظر أبناءه الموجوعين من احتلال فاق القرن من الزمن، ثم لم يطل زمن الانتظار فقد حرر الأبطال أرض الجزائر كلها ورفعو العلم عاليا ليرفف بسمائها أبدا، وتخليدا لذكرى من استشهد لقب البيت بدار الستة وجعل أرضا يلقن الأطفال فيها الدين والعلم والأخلاق، وأرضا يلجأ إليها كل من قهره الفقر فاحتاج لقهر الفقر العون.

كان يفتح بابه العملاق للأطفال دون العشر فيدخلونه فرادى وجماعات قادمين من بيوت متفاوتة، ومنحدرين من أسر مختلفة، لم يرسم يوما خط فرق بين غنيهم وفقيرهم، صحيحهم وعليلهم، أو بين ألوان بشرتهم، لا بل لقبهم جميعا بالأشبال حماة عرين الوطن، ثم منحهم ذات الثوب ليشعروا بالتساوي.

علمهم في حجره البسيطة الأحرف والعد والخير والحق، حفظهم من آيات الله الكثير، ولقنهم من أحاديث نبينا الشريف، بث في قلوبهم حب الوطن وزرع في نفوسهم قدسية الواجبات اتجاهه والتضحيات في سبيله، أقام لأجلهم المسرحيات الملأى بمكارم الأخلاق والعامرة بالأناشيد الدينية والأشعار الممجدة لثورة المليون والنصف مليون شهيد، زين جدرانه العتيقة بلوحاتهم الحاملة لصور شهدائنا وكذا رموز العلم كالريشة والقرطاس، كان يهب المقعد الأول لمن يمتطي الريح لبلوغه والأخير لمن يتكاسل أثناء السير إليه، ما منح رتبة لغير مستحقها أو جائزة لغير صاحبها ولم يحرم من الالتحاق به سوى من حرم نفسه بمحض إرادته.

هب كل عيد بأشباله لعيادة المرضى والتخفيف من معاناتهم بالبسمة والكلمة الحسنى، سار بصغاره وفي أيديهم الهدايا لدق أبواب دور الأيتام ودور العجزة، بث فيهم روح الجماعة ثم انطلق بسواعدهم الصغيرة ليتعاونوا على تنظيف الشوارع والشواطئ وزرع الشجيرات بالحدائق والأرصفة، هكذا جعل منهم أسرة واحدة تحت رايته، إخوة وأخوات من صلب مبادئه وقيمه.

أما بفنائه الفسيح فجمع التبرعات ونظم الحفلات الخيرية فطرقه البسطاء من كل مكان ليحملوا من الطعام والثياب ما يحتاجونه وأسرهم، كانوا كثرا، تلمح دمعة الاطمئنان في عيونهم فقد كان لهم سراجا ينير أيامهم حين تلقي الحياة عليها لون المحن، كانوا يرفعون له ولمن حرره دعاء جميلا، كانوا ممتنين، شاكرين لكل العاملين تحت رايته، أولئك الساهرين على تقديم العون لهم، أولئك الذين

نذروا حياتهم ليكملوا مسيرة من استشهد في سبيله.

كان له بعد كل شروق هدف، لم يتقاعس في العمل لتحقيق أهدافه النبيلة مهما اشتدت الصعاب وقست الظروف، جعل وبالرغم من بساطته، جعل كل لحظة مميزة، خاصة، جميلة، عميقة وبناءة لغد ولمجد.

لم يمر في حياتي يوم واحد دون أشبال صغار وعمال شرفاء وزوار بسطاء ببيتي المقدس، كنت وأنا بنت الربيع الخامس عشر أشارك في نشاطاته كمتطوع فأساعد الأشبال على تزيين الجدران وتغليف الهدايا، وعلى زراعة الشجيرات بالأرصفة وتنظيف الحدائق والشواطئ العامة، هذا وكنت أرشد الزوار أثناء قضائهم لحاجياتهم كلها، وأسارع بتقديم قنينات الماء للعطشى وبجلب الكراسي لكبار السن، فلما أفرغ من مهامي ينادي الأشبال الصغار اسمي ويلتفون من حولي ثم يقدمون لي بعضا من الكعك والرغيف الذي جلبوه معهم لأجل تناوله في فترة الاستراحة، وكنت أشكرهم كثيرا وأطلب إليهم تشاطره بينهم ولكني أرضخ أحيانا لإصرار أحدهم فأقبل هبته وأحكم من ثم على نفسي بقبول كعك ورغيف الباقين وإلا تسببت في استياء بعضهم وفي بكاء أصغرهم.

كانوا يسألونني عن الحكايا وكنت أروي لهم القصص التي تناسب سنهم، تلك التي قرأتها لما كنت بمثل أعمارهم، أحملهم على كف الخيال إلى عالم ثري بكل ما هو حميم وساحر وطاهر، كنت أبلغ بهم دوما مغزى لرفعة الأخلاق وهدفا نبيلا للشجاعة والتضحية، أحبوا قصصي كثيرا وحفظوها جميعا وأحببت أنا جلوسهم من حولي للاستماع إلي فقد كان هذا من أطيب الأوقات إلى قلبي.

كنت أقول لهم كلما حان موعد النشيد: «يا أصدقائي، لنحي العلم معا ولننشد له قسما ثم هلموا جميعا لنترحم على شهدائنا ولندع بالخير لمجاهدينا إنهم من رفع العلم، إنهم من وفى حين أقسم»، وكانوا يهزون رؤوسهم سواء

فهموا دعوتي كلها أو بعضها ثم يصطفون بشكل جميل ويؤدون النشيد بصوت أجمل.

فلما يحل الشفق يرحل الجميع إلا أنا، والحق أني لم أك وأسرتي فقط من يقطن البيت المقدس فقد شاركنا الإقامة فيه سرب يمام وشجرة توت أبيض عملاقة، وكنت بسعادة تعجز عن وصفها الأقلام أعنى بطعام وشراب هذا الطير المسالم وأعتني بهذه الشجرة التي علمني والدي مذ طفولتي ما تحبه وما تحتاج إليه، أحببتهما كثيرا وتعلقت بهما أشد التعلق فقد كانا جزءا من بيتي، كانا جزءا مني.

❄❄❄

بفضل الدار التي ترعرعت بين ذراعيها حظيت بدنيا ميزتها الفضيلة فلم أعرف بذلك تلك التي يطلقون عليها لقب الرذيلة، ولا حياة تستعمرها هذه الأخيرة وتتغلغل فيها حتى يمسي الظلام الدامس رايتها، والأصح هو أني لم أقابلها في حياتي يوما ولكني سمعت عنها أكثر من مرة فقد كان الزوار البسطاء يتحدثون عن ويلاتها وقسوتها وحقارتها، وكان حديثهم يبلغ مسمعي أثناء تجولي بينهم لمساعدتهم على قضاء حاجياتهم، وكان حديثهم خفيف الوقع على نفسي فقد اعتبرتها بالرغم من الوصف البشع لها والخوف الرهيب من أتباعها والقسم المكرر على أنها ترفض رسم الحدود وتود استعمار الدنيا كلها، اعتبرتها بالرغم من هذا كله عاجزة عن عبور باب دار الستة العملاق وعاجزة عن تسلق سورها العالي.

لم أحدث أحدا عنها فقد كنت على علم بأن من هم أكبر سنا لا يحبذون التحدث عن الرذيلة بكل مفاهيمها إلى مجرد فتاة ما بلغت بعد السادسة عشر ربيعا، ثم إني لم أتساءل عنها في نفسي أيضا فقد كانت في نظري واحدة من الأمور التي سأظل على علم بوجودها دون أن أقابلها ولكأنها أسطورة وحش

روي عنه الكثير دون أن يجزم أحد برؤيته.

ما خضت في شأنها حديثا وما كنت لأفعل لوما جلت كعادتي بين رفوف المكتبة، رحت أبحث عن عنوان ساحر هو باب حديقة من الأدب فأبصرت كتاب «النظرات والعبرات» الذي كنت قد قرأت منه شيئا يسيرا في مقرراتي المدرسية، وكانت بنفسي حينئذ رغبة جامحة للنظر إلى فحواه دون تصرف ودون رقابة، رغبة في السير على ذلك الدرب الذي خطه الحبر منذ سنوات عديدة دون أن يسألني المعلم مثلما يسأل الجميع عن الذي لاقيته على هذا الدرب، إنما أترك بحريتي أحكي.

سارعت إلى حمل «النظرات والعبرات» المتخذ من الرف الأيسر مكانا له، جلست إلى الطاولة وأنا راغبة في رؤية حديقة الضاد التي زرع مبادئها وبديعها الأديب مصطفى لطفي المنفلوطي، وشاء أن يكون أول الحبر قد جعل من «الفضيلة» عنوانا.

لوهلة اعتقدت أني سأعد حتى التعب الأبواب والأسوار التي تقطن الفضيلة في حماها، وبدلا عن العد رفعت حاجبي وفتحت فاه فقد ذهلت بمرأى الأمكنة المختلفة التي بحث فيها هذا المصلح عنها دون أن يجد لها أثرا، ثم كدت لا أقوى على رمش عيوني حين نظرت عبر السطور إلى الأشخاص الكثر الذين لقي في حوزتهم كل شيء عداها، وفي النهاية جثمت كالتمثال قبالة الحزن الجم الذي انتابه لعجزه عن العثور عليها.

أغمضت عيني زمنا ثم عاودت فتحهما كأني أحاول أن أرى الدنيا بعين الكاتب غير أني ما أبصرت رذيلة بل رفوفا لمكتبة هي جزء من الدار الفاضلة، ما كنت أستطيع لحظتها الركض حتى أخبر الناس بما يحدث معي في المكتبة المهجورة فلا أحد كان يدري بوجود عالم فيها، ولا أحد حاول يوما أن يكتشف معالمه، كان علي كتمان صنيع هذا الحبر بي، ولكن ظل في وسعي

الفضفضة إلى صاحبه:

حضرة المعلم مصطفى لطفي المنفلوطي

أيها الباحث عن الفضيلة، غاليت كثيرا وعهدي بك أنك أديب لا يتكلف القول والخيال مطلقا، إني يا سيدي لا أرى في الجزائر شيئا غيرها فهي أساس دار الستة، وهي عمودها وسقفها وسورها، وإني لا أحسبها تعوز بمصر وفي مصر فاضل شغف بها ووهب حياته وقلمه لنصرتها.

صادقة في الجزائر

أغالى الباحث عن الفضيلة؟ مطلقا، لكن أنى لي أن أعرف رذيلة الدنيا وأنا الصبية ربيبة دار الستة والمكتبة؟

أخفيت رسالتي في درج الطاولة فقد كنت على دراية بأن الناس جميعا يرفضون نظري وأنا في مثل هذه السن اليافعة إلى تلك التي تدمر كل شيء بتدمير الضمير في مستعمراتها، أعدت الكتاب إلى رفه ثم غادرت المكتبة وفي نفسي رغبة ملحة أكثر من ذي قبل لمطالعة موروث أدبه العربي.

مرت بضعة أيام على مكوث هذه الرسالة في الدرج الخشبي المهجور، أيام هادئة ملأى بالدروس والمواعظ والأنشطة، كنا في حياتنا الفاضلة نعمل كعادتنا ليستمر مجد دار الستة وما كنا لنستوقف أنفسنا لوما طرق بابنا ذات صباح ساعي البريد وهو يحمل ظرفا بيده، سلم حمله لمدير الدار الذي سارع إلى فتحه فقراءته، فجمع العمال، فتكليمهم.

حين عاد العمال إلى القيام بمهامهم، ركضت صوب والدي لأسأله عن الرسالة فأخبرني دونما تردد أن سيد الدار قد بعث يخبرنا أنه سيزور دارنا قريبا!

كان سيد الدار رجلا سمعت عنه دون أن أراه يوما فهو لم يزر الدار طيلة سنوات نشأتي مع أنه دعي إلى جميع الحفلات والنشاطات التي أقيمت بها، مثل الجميع رحت أتساءل عن دافع هذه الزيارة ومثلهم كنت راغبة في رؤيته ومتلهفة لمعرفة ما سيجلبه لدارنا، كانت تلك أول مرة فكرت فيها به، وأول مرة شعرت فيها بقوة سلطة رجل غريب عنا علينا فقد هب الكل إلى التحضير لاستقباله، وبدا الكل متوترا وساعيا لألا يهمل أي تفصيل مهما كان بسيطا.

بعد أسبوع واحد فقط من التحضير طرقنا السيد رفقة حاشيته فرحت أتأمله وأنا شبه متخفية وراء ستارة المكتبة الممزقة، كان رجلا باسقا في طقم من القماش الفاخر الذي ما تعود أحد في الدار على ارتداء مثله، لم يكن ذا وجه متشائم كما لم يكن ذا وجه سمح، كان مبهم الملامح، وكانت تلك المرة الأولى التي أرى فيها ملامحا مبهمة، لا تشبه ملامح العمال ولا الأشبال ولا الزوار البسطاء.

راح يسير ببطء في أرجاء البيت، لا يكاد يلقي ببصره على شيء حتى يرفعه عنه، ولكأن كل شيء كان غير ما جاء في طلبه، ربما تفوه بكلمة ما وربما لم يتكلم قط فكل ما أتذكره هو أنه قد لزم الصمت طيلة زمن تجواله ولم يخاطب الجمع الملتف من حوله حتى آنت لحظة رحيله.

قال بصوت ثابت عال أن جدران الدار عتيقة والأبواب كالألواح والطاولات هرئة، أرضية الفناء متصدعة والشجرة العملاقة خطر، ثياب الأشبال بالية وكذلك ثياب العاملين، صار لابد من إعادة ترميم الدار كلها، ثم اختار العطلة الصيفية ميعادا لهذا الترميم.

اغتبط العمال والأشبال والبسطاء بقرار السيد ولم ينتبني ذات شعورهم، لا بل بدا الحزن على ملامحي فاستاء كل من لاقاني وقال أن الرغبة في الاستئثار بالدار هي ما يحول دون رؤيتي لمصلحتها، وأني أخشى أن يمكث أحد عمال

الترميم وأسرته بإحدى حجرها فينتهي عهد الدلال الذي حظيت به لوحدي فيها، وكنت ألزم الصمت بكل مرة أسمع فيها هذه التهمة ولا أحاول قط الدفاع عن نفسي بالقول: «إني أخشى على الدار كل شيء إلا عدم الاستئثار بها لنفسي، وإني لأود أن ألمح بعيني ما تراه عيونكم ولكني أعجز لأن بقلبي غصة تمنعني فقد جلست بالمكتبة منتظرة زيارة السيد لأحدثه عما تحويه من الكتب، ولأشكوه عزوف الجميع عن طرق بابها عساه يهب لنجدتها فالوحدة تكاد تقتلها لوما أني نفس وحيد يمنع الموت عنها، لكنه كغيره لم يقرب بابها، لم يلتفت صوبها، فالذي عمي عنها ما تراه رأى في غيرها».

كثرت بعد زيارة السيد زيارات الغرباء إلى دارنا بذريعة الترميم، ثم ما هي سوى أسابيع مرت سريعا حتى أعلن عن وقف مهامها فغادرنا الأشبال والعمال ومنع عن طرقنا البسطاء ثم جاء غرباء كثر، أنزلوا العلم وطلبوا إلى والدي حفظه حتى الانتهاء من الأشغال ثم انتشروا في جميع الأرجاء...

ألقوا بالدفاتر أرضا، تلك الدفاتر التي حملت أولى حروف خطت، وأولى لوحات رسمت، ونثرا وشعرا، ودروسا ومواعظ وحكما، وأخطاء صححت وأعمالا مدحت ومحاولات شجعت، تلك الدفاتر التي رافقت كل شبل فكانت الصديق والسند.

ألقوا بجانبها طاولات الأشبال الخشبية وكراسيهم الصغيرة التي اعتادوا الجلوس عليها، أقلامهم الرصاصية والملونة، ثيابهم الموحدة، رسوماتهم وأشغالهم اليدوية، لوح كل قائد وعصاه، رداء كل عامل وأدواته ثم جعلوا منها زادا للنار الجشعة.

كسروا النوافذ جميعها، جعلوا على الجدران ثقوبا وعلى الأسقف أيضا، أحكموا إغلاق الباب العالي بالسلاسل، ثم قطعوا في لحظات شجرة التوت الأبيض العملاقة فهوت، فهوت وهوى عش الأطيار والأرجوحة المشدودة إلى أغصانها.

جلبوا إلى الفناء الفسيح كلبا بحجة مساعدة العمال على حراسة بعض المعدات، كلب شرس ما انفك يصدر النباح ويحوم حول البيت الخشبي حينا، ويحاول تسلقه حينا آخر حتى أفزع يمامه فرحلوا والمطوقة دون وداعي.

لا تسألوا عن هول ألمي بعد الذي حدث لبيتي وشجرتي ويمامي في يوم واحد، لا تسألوا بل أشيروا إلى النافذة المهجورة فهناك جثمت وحيدة مثلما تعودت، ثم ذرفت الدمع الذي لم أذرف مثيلا له من قبل.

ثم ناديت بذلك اليوم المشؤوم، الغريب، القاسي والعقيم، ناديت على رجل واحد فلبى ندائي، جلست جنبه فربت بيده على كتفي، حدثته فشعر بحديثي كله لا بعضه:

حضرة المعلم مصطفى لطفي المنفلوطي

يا صاحب العبرات، بدا لي ذات يوم أن عجزك عن إيجاد الفضيلة في كل تلك المجالس وبين كل هؤلاء الخلق مغالاة لم أعهدها فيك، ولو كنت أديبا لا أعرف عنه شيئا لوفيتك الاعتذار الذي أدين به لك، ولكني عليمة بلبك وفؤادك يا سيدي، عليمة بأن أكثر المواقف التي لاقيتها قارئ جعل أنك غاليت ثم اعتذر، وأحبها إليك قارئ جعل أنك غاليت ثم أرشدك إلى مكانها، فاسمح لي أن أكون قارئا وسطا.

يا عاشق الفضيلة، قد ربيت فيها سنوات طويلة وإني لا أعرف صبحا أقبل ولم يجدها، ليلا لم يرخ بسدوله عليها، مطرا انهال دون أن يبللها أو وردا تفتح بعيدا عنها فقد كانت دائمة الوجود في دار العلم وفي بيت الخير وفي منزلي والثلاث بحياتي مكان واحد.

كانت الفضيلة صوت القائد وهو يتلو آية أو يقرأ نصا أو يسرد

قصة أخلاقية أو ينشد مديحا دينيا أو لحنا وطنيا، صوت لا يحكي لغوا ونفاقا أبدا، كانت يده وهي ترسم خريطة الجزائر والوطن العربي أو ترسم شكلا هندسيا أو شجرة أو طيرا، يد ترسم خطا مستقيما لا ينحرف نحو الكذب والزور مطلقا، كانت نظارته التي لا تفارق ناظريه والتي يجددها كل زمن قصير لأن بصره يضعف كل زمن قصير من شدة الاجهاد، كانت قلمه الأحمر الذي يتفقد به الدفاتر كلها والذي يصحح به الأخطاء ليبين الصواب، كانت محفظته التي توجع كتفه لكثرة الكتب التي بداخلها وكانت عصاه التي يعاقب بها أشباله حرصا عليهم لا ظلما وجورا.

كانت الفضيلة أنامل الأشبال الصغيرة التي تعلمت حديثا إمساك القلم فراحت تخط به الحروف والأرقام، كانت ثغورهم وهي تنشد للعلم قسما وتقرأ كل ما بين أيديهم وكل ما يملى عليهم وتسأل وتجيب، كانت صوابهم وعثراتهم في طريقهم نحو الصواب، كانت فرحهم بالنجاح وبكاءهم عند الإخفاق، كانت زيارتهم للعليل واليتيم، زراعتهم زهرة أو شجرة، تنظيفهم حيا أو حديقة، وكانت حبهم وتعلقهم بالدار والقائد وببعضهم بعضا.

كانت الفضيلة سهر العمال على استقبال البسطاء وإطعامهم وكسوتهم والتخفيف عنهم، تعليمهم للأشبال إيثار المحتاج والمريض واليتيم على النفس، تقديم العون لكل من يطرق الباب العالي، العناية بالطبيعة في كل شجرة يسقونها، وكل غابة يحافظون على نظافتها، وكل شاطئ لا يلوثونه، وكل زهرة لا يقطفونها.

كانت الفضيلة ورق مدير الدار الذي يحفظ أسماء أشبالها وعمالها ويحفظ كل ما يحتاجون إليه، سيره بين الأرجاء لتفقد كل شبر فيها، سؤاله عن خطب هذا وسبب غياب ذاك، استقباله للزوار وعابري

السبيل، كانت تنظيمه لحفلة تبرع وتحضيره لرحلة زيارة مريض أو يتيم، إقامته لجولة ترفيهية وإعداده لمسرحية أو حفلة يبرز كل بها الموهبة التي يملكها.

كانت الفضيلة تعب عاملة النظافة وهي تشطف أرضية الحجر وتلمع نوافذها، كانت عرق البستاني وهو يروي ورودها وينزع الأعشاب الضارة من حولها ويسعى ليبقي اللون الأخضر دائم الوجود فيها، وكانت يقظة الحارس الجالس طوال النهار أمام بابها، لا يبعده عنه حر الشمس ولا برد الشتاء.

الفضيلة يا سيدي، الفضيلة، لم أشك قط أن اللحظة قد تخلو منها، أما وقد أنزل علم الدار وحطمت ألواحها وأبوابها وجدرانها، أما وقد أحرقت دفاترها وأقلامها ولوحاتها، أما وقد استحال على الجميع طرق بابها المقيد سلاسلا، أما بعد كل هذا فقد اختفت تلك التي بحثت عنها عمرا، اختفت ولست أعرف ما سيكر من بعدها؟

قلت عنها ذات يوم بمصر: «هذه هي السعادة التي أتمناها ولكني لا أراها»، وها أنا أقول اليوم بالجزائر: «تلك هي السعادة التي ربيت في كنفها والتي لم أعد أجد لها أثرا»، كلانا في بلده محزون عليها.

صادقة في الجزائر

بدأت يوم ولدت هذه الرسالة بمعرفة الحياة قليلا، والذي حسبته آنذاك وجعا قاتلا لم يك سوى أول أوجاعي...

أخفيت رسالتي مثلما أخفيت الألم الذي هب على حياتي، سجنت بيدي أفكاري وعواطفي في أعماق مكتبتي المهجورة فأنا لم أك سوى بنت الخامسة عشر ربيعا التي إن تحدثت اتهمت بالرغبة في الاستئثار بالدار، شعرت من

بعد وحدتي بعجزي أمام كل ما حطم وأحرق واجتث وهجر دون أن أهب لنجدته هذا وشعرت بقدر حبي لبيتي، ثم الويل، كل الويل للقلب إذا انتابه الحب والوحدة والعجز في آن واحد.

لم يبق في الدار حجرة على حالها عدا الحجرة التي قطنتها رفقة أسرتي والمكتبة التي لم يشملها مشروع الترميم، كنت أجلس بين أحضان هذه الأخيرة كل يوم ثم أراقب عبر نافذتها العمال وهم يروحون ويجيئون، أحيانا يراني أحدهم فأسرع بالتخفي وراء الستارة الممزقة، وأحيانا أتتبعهم بعيني ساعات طوال دون أن يلحظني أحد منهم، حفظت أسماءهم وملامحهم بالرغم من أني لم أكلمهم يوما، جل ما رغبت فيه هو رحيلهم، لم أك سعيدة بوجودهم ولم يشعروا قط بوجودي وبالألم الذي جلبوه لفؤادي الفتي.

كانوا يغادرون الدار مع حلول المساء فأترك عندئذ المكتبة، أنزل درجها بخطى بطيئة لأرى عن قرب ما فعلته أيديهم بالأرجاء، كنت أزرع من جذور الشجرة علها تعرق ثم أبحث والشمس تغرب، أبحث في الرماد عسى أن أجد شيئا كتب له النجاة؛ قلم أو لوحة أو دفتر، فلما يلطخ السواد يدي ويتملكني اليأس أنظر عبر ثقب الباب العملاق إلى الشارع العريض، وحين لا تلمح عيني زائرا مقبلا أعود وعبرة إلى حجرة نومي.

كنت أفيق كل صباح على أمل عودة اليمام والمطوقة ولكن توالت أيام هذا الفصل الجاف دونهم فرحت أسائل كل شروق وغروب عن المكان الذي حطوا فيه؛ آآمن أم مليء بالفخاخ، وعن الذي يسقيهم في هذا الحر ويلقي إليهم حفنة الحب، فلما يمتنع الشروق والغروب عن البوح بكلمة تهدئ روع قلبي الكئيب أسير نحو بيتهم الخشبي لأحدثه عن شوقهم إليه وإلي الذي ما كان يقل عن شوقه وشوقي.

انقضت أشهر الصيف التي تحملتها بصبر لم أعرفه في نفسي، عزائي وعد

قطعه سيد الدار الذي لم يعد لزيارتنا، انقضت تلك أشهر القاحلة دون أن تعرف الدار من الترميم فصله الثاني فقد أرسل هذا الأخير برقية أعلن فيها أن السيولة غير كافية لتهيئتها من جديد.

في رسالة واحدة ذات فقرة واحدة وأمر واحد أقفل السيد سجل الدار وهو يتحدث عن رغبته الشديدة في إعادة ترميمها وعن عجزه بسبب القدر الذي حكم بعكس رغبته، كانت هذه هي الكلمات الأخيرة التي خطها ولست أتذكر كلمات جيئت من بعدها، لا لأن شيئا من الوهن قد أصاب ذاكرتي، بل لأن الجميع لزم الصمت فكان خطابه آخر ما علق بالذاكرة.

لا، لم يصب شيء من الوهن ذاكرتي ولا تزال تفاصيل يوم تشميعها عالقة بها فقد كان يوما قاسيا، طغى فيه صمت رهيب على أرجائها بعد أن اختفى صوت الأشبال والقواد والعمال والزوار، وزاد من الوحشة الباب العملاق المكبل سلاسلا، والجدران المكسرة كالأبواب والنوافذ كلها، لم يك فيها حبر ولا ورق ولا طير ولا شجر ولا ورد، حتى السارية دون علمها.

راحت دار الستة تنادي اسمي ثم تقول على مسمعي هكذا انتهى بيت التاريخ والعلم والخير، بيت الفضيلة، في صمت وبإشارة من رجل واحد، راحت تشتكي إلي دون غيري فأصغيت إلى شكواها وآهاتها التي أوجعت قلبي الفتي، فلما فاق الوجع قدرتي على الكتمان استجمعت شجاعتي وسرت إلى والدي، طلبت إليه منحي علم السارية فلبى طلبي دون سؤال واحد، حملته بين ذراعي وتوجهت صوب غرفتي، اخترت له الدرج الأعلى في خزانتي ثم جعلت من الصمت مثواي.

إن كنتم بانتظار نهاية أخرى للدار على أمل أن تغاير النهاية التي أخبرتكم بها ففي وسعكم الآن الإلقاء بروايتي في إحدى زوايا بيوتكم، تلك الزوايا التي لا تقربون الأشياء التي تلقون بها فيها، وإن كنتم راغبين بمعرفة ما عقب هذه

النهاية فواصلوا المضي قدما في فصولها، هو شأنكم، اختاروا ما يسعدكم وافعلوه، أما أنا فسأتم السرد لأنه قدري لا لأنه الشأن الذي يسعدني.

الفصل الثاني

لم يميز نشأتي أمر غير دار الستة فأنا لم أملك أثناء تلك السنوات الأولى من عمري مالا وفيرا هذا ولم أكابد فقرا شديدا، ما بالغت في تسريحات شعري وزينتي وما اضطررت لاصلاح أثوابي ومناديلي بالرقع، كنت بسيطة المظهر كبيتي، لا جذبتني قصور الاغنياء من حوله ولا أغرتني أجواء حفلاتهم الصاخبة، هذا وكنت بسيطة الطباع، عودت نفسي على الابتسام وعبت عليها تصنع الضحكات والحركات، بغضت تملق الغير وأبيت أن أتملق، مقت الحوار الماكر وما جمعت قط خطابي بالمكر، كنت قليلة التواجد بجلسات الشاي فأسرار الناس لم تستهون في حضرتهم أو في غيابهم، جذوري أم ترتدي في الشتاء ثوبا وفي الصيف ثوبين، وبستاني ثروته ريح الورد الفواح، ولهذه الأسباب كلها أو بعضها لم أك الفتاة التي تهوى الأخريات رفقتها، ولوما الصحبة في المكتبة لما حظيت برفيق حق مطلقا.

ولدت هذه المكتبة بعد سنة واحدة من استقلال الجزائر فملأت عن آخرها بالقرطاس المصري المنظوم والمنثور دون غيره وسر ذلك هو علاقة البلدين المتفردة، فهي ما جلب هذه الكتب قبل غيرها أثناء عمل الجزائر على تعريب مناهج التعليم في مدارسها ومراكزها الثقافية، فقد كان من اليسير أن تستقدم كل تلك المخطوطات بحقبة كانت مصر فيها مساندة لقضية الجزائر بأعلى صوتها وبكل رجالها ونسائها، ثم استمرت المكتبة في استقبال طرود من الكتب بين الحين والآخر فقد أحبت كثير من دور النشر المصرية بعث إصداراتها إلى دارنا كعربون محبة وأخوة، لكنها لم تستقبل حسب دفتر جردها كتابا منذ الأعوام العشر التي سبقت ميلادي!

حوت ألف كتاب فضمت بذلك عددا هائلا من أسماء المؤلفين والكتاب والشعراء والمحررين المصريين، لم تبخل علي يوما بضادها ولا على القراء الذين سبقوني في التوافد عليها خلال سنوات عديدة مضت ولم يبق منها سوى

ذكريات يقص والدي علي تفاصيلها بغير تصنع ولا تكلف ولا إجهاد قائلا أن الطلاب بمختلف أعمارهم قد أحبو زيارتها لما كانت بهية المنظر، وكانوا يعجزون عن الجلوس فيها جميعا بسبب ضيق أرجاءها، فيحملون الكتب التي يرغبون في مطالعتها، ثم يجلسون من حولها كأنهم ورد آخر للدار، كأنهم سرب من اليمام، ثم يردد مرتين أنه ما عثر بذلك العهد أثناء البستنة، ما عثر قط على كتاب ممزق، أو صفحة واحدة لأحدها ملقاة أرضا، وكان يستغرب كيف لا يؤذي القراء هذه الكتب بعالم يؤذي فيه البشر كل شيء.

كانت كريمة حين ولدت ولم تك قبل ذلك أقل كرما فقد أغدقت علينا ضادها العربي البديع اللفظ، الحكيم الجوهر، الفياض بكل احساس، العامر بالأفكار والمعتقدات، الثري بسير الأولين، المتفجر بالابداع في تعرية الإنسان حتى كشف كل ما يظهر ويبطن، يحب ويمقت، الذي يستأنس بوجوده والذي يرعبه وجوده، وهي بفعلها هذا تعري القارئ أيضا، تعريني أيضا، أفلست إنسانا، وهل أنا غير الإنسان، وما أنا سوى إنسان، وإنما الأدب الإنسان بطريقة أو بأخرى.

كان يكفي النظر إلى رفوفها نظرة خاطفة لمعرفة بلدها الأم فقد كانت أغلفتها ملآ بصور الأهرام والنيل وأبو الهول وكليوباترا، أما النظر في أرجاءها الضيقة فكان لا بد أن يستوقفه العلم الجزائري والعلم المصري اللذان ما فارقا الزاوية اليمنى للطاولة الخشبية الوحيدة المتواجدة في وسطها.

لم أحزر أبدا بأي سنة حط فيها العلم المصري رحاله بمكتبة بيتي، ولم أعرف من ذا الذي أرسل به ولا من ذا الذي وضعه والعلم الجزائري فوق الطاولة، ولكني أحببت رؤيتهما معا منذ صغري، وحرصت دوما على العناية بمظهرهما الوقور وعلى إبقاءهما جنبا لجنب في المكان الذي اختير لهما قبل ميلادي.

كنت وأنا أبلغ السادسة عشر ربيعا شغوفة بقراءة كل ما يخلد التاريخ الذي

يجمع العلمين، تتملكني القشعريرة حين أمر على أيام لم أك قد ولدت أثناءها بعد لأقابل رجالا رحلوا مذ أعوام طوال، فأرى بفكري وأتحسس بفؤادي معجزتهم لما كانت الحرية معجزة.

تختفي بحضورهم المسافات حتى يخيل إلي أن الجزائر ومصر تتجاوران، لا يفصل بينهما ألف ألف ميل بل وادي شيد هؤلاء الرجال حجارة جسره وشدو حباله ليهب كل طرف إلى الثاني إذا ما سمع بآناء الليل أنينه، ثم أعود من ماضي المعجزات إلى حاضري فلا أشعر بنفسي وأنا ألامس العلمين بأناملي لمسا ناعما قائلة: «كانوا لبعضهم بعضا الأمان».

كنت أتمنى في كل مرة أكتشف فيها حدثا بهذا التاريخ، أو أتعرف فيها على واحد من هذه الشخصيات، كنت أتمنى أن يدون بكتب المقررات المدرسية ليقرأه زملائي في ثانويات الجزائر، لا بل وتمنيت أن يقرأه زملائي في ثانويات مصر أيضا، ومع أني أخفيت هذه الأمنية عن جميع أولاءك الذين دعوتهم لزيارة المكتبة فأبوا تلبية دعوتي، إلا أني كشفت عنها للمؤلف العقاد يوم قرأت ما كتبه للمصريين عن الثورة الجزائرية المباركة:

حضرة المعلم عباس محمود العقاد

«للفرنسيين مستقبل واحد في الجزائر طال بهم الزمن أو قصر مستقبلهم أن يعيشوا فيها جزائريين أو يرحلوا عنها مطرودين».

حضرة المؤلف العصامي، لكم أتمنى تدوين عبارتك في كتابي المدرسي ليقرأها زملائي في الجزائر كلهم، ولا تحسب أمنيتي مجاملة مني بل هي حق هذه العبارة لا ينازعها فيه شيء لأنها حلقة من حلقات تاريخنا المشترك، حلقة تبرز موقف مصر والمصريين من الثورة الجزائرية إبان اندلاعها، وما حبرك إلا تعبير صريح عن هذا الموقف لأن الكاتب الحق قلب من قلوب أبناء وطنه، يتألم

مما يتألمون منه، ويفرح بالذي يفرحون به، ويغمره ذات الإيمان الذي يغمرهم، ولا يختلف عنهم سوى بتلك المكنة من التعبير التي تحيل دقات قلبه وقلوبهم حبرا منثورا أو منظوما.

قد بلغت من تعليمي الثانوي منتصفه، وإني لم ألقن أثناء سنوات تمدرسي موقف مصر من ثورتنا المجيدة ولكأن سحرا أصاب الكتب فمحا منها هذا الجزء وأضاع من سلسلة التاريخ هذه الحلقة، وليس موقفها بالأمر الذي يتساوى العلم به والغفلة عنه، وإني أهتم به اهتمامي بموقف الجزائر من كل ما لاقته مصر في الزمن الماضي، ودافعي إلى هذا كله هو أن القومية أعظم ما يملكه وطننا العربي، تشتد في نفوسنا بسرد تاريخنا الحافظ لتلاحمنا وإيماننا ببعضنا البعض تلاحما وإيمانا تجليا في مواقف وأعمال بطولية ميزتنا أمة عن غيرنا من الشعوب.

أجل، تستحق عبارتك لثقل جوهرها مكانا في الكتاب المدرسي الجزائري والمصري، تستحق نصا مشتركا بين البلدين الشقيقين يدون فيه أيضا ما لا يعرفه أترابي فيهما عن مساندة كل منهما للآخر في أكثر الأزمات ضراوة، وكم سيراق الحبر ها هنا، وكم سيهز التاريخ رأسه فهو الشاهد الحق على رجال بصموا بشجاعتهم على صدق احساسهم بالانتماء إلى الأمة العربية بالرغم من قساوة الدهر وعمق الجراح وشراسة الأعداء.

فيا صاحب العبارة الذي تعلم دون معلم حتى صار معلما، إني وحين أقرأ هذا التاريخ أستأنس ولا يبقى للخوف من الوحدة مكان يحتله في نفسي، فالوحدة هي سند منعدم، ويد لا تمتد، ونداء لا يسمع، وضعف وهوان وشتات، الوحدة هي الفناء، وأنا لست وحيدة بوجودكم، ولا وحدة لك بوجودنا.

إني أستأنس حين أرى حبرا يخط أن أول قراءة لبيان ثورة نوفمبر الجبارة في العالم وفي الوطن العربي قد كانت بمصر وأن الاعلان عن تأسيس الحكومة الجزائرية المؤقتة قد كان بالقاهرة، أستأنس لما أرى حبرا يسرد الدعم السياسي والعسكري الذي قدمه لها الرئيس الراحل جمال عبد الناصر، ثم يزيدني أنسة حبر يحفظ انبعاث المساندة من القلوب المصرية كلها؛ إذاعة صوت العرب التي صارت منبرا لثورتنا، لحن محمد فوزي للنشيد الوطني الذي كتبه الشاعر مفدي زكرياء بالدماء على جدران زنزانة، تغريد عبد الحميد حافظ أداء لقبه أرض الجزائر، وهكذا خفقان القلوب المصرية حتى أعلن عن استقلال حبيبتي أم المليون والنصف مليون شهيد.

أستأنس يا صاحب العبارة والحبر يحفظ كلمات الرئيس الراحل هواري بومدين للرئيس الراحل جمال عبد الناصر يؤكد له بها أن مطارات الجزائر وطائراتها تحت تصرفه بعد أن ضرب العدو مطارات مصر، أستأنس والحبر يرافق الرئيس الراحل هواري بومدين إلى موسكو ليخوض مفاوضات صعبة لاقتناء العتاد لمصر في حرب اكتوبر المجيدة، مفاوضات رفض في بدايتها عشاء تكريميا له وقدم في خضمها ما استطاع من الأموال لتنتهي به محققا لهدفه، أفما علم العالم يومها درسا مفاده أن القومية ما يجمعنا لا المصالح ولا الأطماع، أستأنس لحرب كافح فيها الجنود الجزائريون جنب الجيش المصري وأستأنس بذكر اسم كل جندي جزائري كتب شهيدا في أرض الكنانة.

إنه شيء من تاريخنا الذي يميزنا، يشعل لهيب القومية في صدورنا، فمالهم لا يذكرونه في مقرراتنا المدرسية، مالهم لا

يقيمون له عيدا هو أول عيد قومي في التاريخ، آه لو يسمح لي بتدوين هذا النص لكنت كتبت عنوانه بالخط الكوفي «إنا من صلب القومية».

صادقة في الجزائر

همت عشقا بهذه الرسالة غير أن العشق ما استطاع صنع معجزة العدل فقد ظلمتها بالحكم عليها بالمكوث رفقة سابقاتها في السجن الخشبي المظلم.

لم ألتفت لحزنها حين أصدرت هذا الحكم وجعلته نافدا عليها، لم أتقن الإصغاء إلى صوتها لما صرخت ما ولدت لأحجب إنما ليقرأني طلاب البلدين كلهم، لم أشعر بثقلها الذي عادل ثقل المستقبل بكل ما يحمله من ذنوب وجراح وقساوة وآلام، لم ألحظ زفراتها وتنهداتها فقد انشغلت يومها بتلك السكينة التي كنت أشعر بها كلما وجدت في الكتب قصا لمتانة علاقة الجزائر ومصر، كان يتراءى لي ألا شيء وألا أحد مهما بلغا من قوة قادران على التفريق بينهما فهما ممسكتان ومتمسكتان بيدي بعضهما.

غادرت المكتبة بعد أن أعدت موروث العقاد إلى الفضاء الذي يشغله منذ أعوام بالرف الأعلى، عدت إلى حجرتنا وحدثت ما إن جلست إلى طاولة الطعام، حدثت والدي عن شيء من تاريخ البلدين المشترك، وأحب كلاهما هذا الحديث وشاركاني فيه وعادا بذاكرتهما إلى طفولتهما، واسترجعا بطريقتهما الشعبية والعفوية حماس أيام قومية عربية، ثم راحا ينشدان بصوتهما الحنون مقطعا للعندليب: «سنين طويلة، حرب ونضال، بين الكهوف، فوق الجبال، سنين طويلة، شايلين سلاح، قصة كفاح أعجب وأغرب م الخيال، ختامها كان الانتصار... يستقبل الفجر الجديد، فجر الجزائر الجزائر الجزائر»، فلما افترقنا لنخلد للنوم رحت أتأمل عبر نافذتي السماء الغنية بالنجم، فجأة لمحت شهابا فأرفقته بأمنية لقاء الأرض التي تنبض وأرضي لحياة فيها حريتهما معا.

بين الجزائر ومصر تاريخ لا يعرف عظمته سوى من عايشه أو من اعتاد مصاحبة الكتب، وبين مصر وبيني رواية يساوي عمرها عمري تحت سقف واحد فقد كان سفراؤها من الكتاب والمصلحين يخطون لي أيامها وأخبارها وأحلامها وآمالها، وكنت أشاطرها هذه الأيام بكل ما تضم من عواطف وأفكار، هذه الأخبار الحاملة للسعادة والألم، أحلامها الكثيرة وآمالها الحية أبدا، شاطرتها هذا كله مذ أول يوم نظرت فيه إلى صور الكتب، مرورا بالأمسيات التي استطعت فيها قراءتها، وصولا إلى اللحظة التي أضحيت أكاتب بها أصحابها، أخبرهم عن وطني تماما كما أخبروني عن وطنهم، أكلمهم عن نفسي دون قيد كلما كلموني عن أنفسهم، أحدثهم عما أرجوه وأتمناه، عن الذي يذرف دمعي ويبسم ثغري مثلما حدثوني عما تمنوه ورجوه، وعن الذي أذرف دموعهم وأبسم ثغورهم.

كنا نتفق في جميع الأفكار ونعتنق ذات المبادئ والأخلاق، نتشاطر أغلب العواطف، بل كلها، نذرف الدمع لذات المبكيات ونبسم لذات المضحكات، كانوا يرسمون لمصر خطا طويلا من العمل نحو المجد، وكنت أرسم للجزائر خطا طويلا من العمل نحو المجد، وإذا بالخطين لا يتوازيان ولا يتقاطعان، فإن بدا هذا لعلم الهندسة مستحيلا فإن القومية تدري أنهما كانا خطا واحدا.

كان مميزا أن أحضى بهذه الرفقة وأن يشاطرني سفراء مصر الحياة وأن أجد سبيلا لمشاطرتهم حياتي، كان سحرا ألا يحرمني الموت هذه المشاطرة فها هو الأديب مصطفى المنفلوطي يحدثني بعد أعوام من مواراته الثرى عن درب الخير الوعر ويقول لي في نظراته بأن الزواج من البغي هو قمة الإحسان شرط أن يكون زواجا سليما هدفه إصلاح نفسها، وها أنا بين جدران المكتبة البسيطة لا أشعر بفارق الزمن ولا أقف عند واقع الحياة والموت، بل أكتفي بنظرة مجتمعه المصري المطابقة لنظرة مجتمعي الجزائري:

حضرة المعلم مصطفى لطفي المنفلوطي

الصدق في نظراتك يا سيدي يشعرني بأمانة الحبر والورق فأفضي بما في حناياي عن طريق رسالتي ولا أخفي سؤالا راودني، أو شيئا من الإبهام اختلجني، أو فكرة عاقلة لها عاطفة وجدت من وحيك في الحياة.

وهذا الإفضاء هو واحد من الأمور القلائل التي لا يتصارع فؤادي وعقلي بسببها لأن الحديث إلى رجل فاضل هو أكثر الأفعال بعثا للطمأنينة في فؤادي، ثم أضف إليه اعتقادي الثابت بأن من تلقن علما ثم انتقل إلى تلقن غيره تاركا في حناياه سؤالا أو إبهاما أو كلمة مأسورة لابد أن يراوده الشك يوما في هذا العلم، فليس العيب أن أسأل وأن أفضي بكل ما يجول بعقلي بل العيب أن أبقي الشوائب فيه فلا أمضي بدرب المعرفة وأنا أتردد بين خطوة نحو الأمام وأخرى إلى الوراء في كل ما تحمله الحياة، فاسمح لي الآن أن أخبرك أني أقول بعد قراءة «الإحسان في الزواج»: هذه الخليقة ليست بشرا.

يا بن النيل والهرم، علمني العرف وهو معلم قاس لا يعفو عن المخطئ إليه ولا يرحم المرتد عنه حتى لو أصابا حقا وعدلا طمرتهما تعاليمه، علمني أن الرجل يختار من النساء ذات الخلق ليتزوجها، أو يختار من بينهن ذات الخلق المقرون بالمال أو النسب أو الجمال أو بهم جميعا، أما أن يتزوج الرجل بغيا ثم يكون هذا الزواج ذروة الإحسان فهذا ما علمتنيه أنت وحدك.

لا أحب التذاكي والتدخل والحكم في شؤون الرجال، فللرجال شؤون لا تفهمها فتاة تبلغ من العمر الستة عشر ربيعا فقط، ولكني

سمحت لنفسي حين قرأت موروثك بالتفكير مليا في زواج فتاة فقدت شرفها، ثم سمحت لها بالوقوف جنب هرم الإحسان للنظر إلى قمته...

يا أيها المعلم، لقد رأيت على قمته الرجل الذي خلقه الله قويا قد انحنى وأخذ بيد المرأة التي خلقت من ضلعه، والتي جعل قواما عليها ثم رفعها قليلا قليلا حتى استقام ظهرها، وارتفع رأسها، وعرفت عيناها اللتان ألفتا الحضيض السماء.

تملك المرأة نفسها فإما أن تحافظ عليها وإما أن تضيع، ولأن الندم قدر كل من أضاع وضاع فكذلك المرأة العربية، ولكنها تعجز عن العودة للدرب الصحيح دون مساعدة إلا نادرا، وإنها قد تلقى في محاولاتها من يطعمها ويكسيها ويداويها ويأويها حبا في الله ولكنها لا تجد من يساعدها على استعادة كرامتها، وإن استعادة هذه الأخيرة لتغنيها عن كل المساعدات الأولى التي قد توهب لها فما حياة المرء إلا كرامة لا يغني عنها شيء حتى لو كان عمرا جديدا.

لولا ‹الإحسان في الزواج› ما رأيت المتربع على عرش هرم الإحسان وإني ومن بعد رؤيته لا أقدر أن أحمل له بين جنبي سوى عاطفة فيها الإجلال لإحسانه وفيها الإشفاق عليه من عاقبتين قد يسلم من إحداهما لا من كلاهما؛ فأما التي قد لا تؤذيه أنيابها فهي أن تظل البغي على مجونها وأن تأبى نفسها حياة العفة فيشقى هذا الصالح بأفعالها شقاء عظيما، وأما التي تحيط به ولا مفر من لدغتها ولا وجود لعلقم يداوي سمها فهي العرف الذي لم يقر بأن الزواج من البغي لغاية إصلاحها إحسان والذي لا يزال عديم العفو والرحمة.

فإذا طمع رجل في رضا الله وسلك في سبيل طمعه هذا الدرب، واحتمل المر أو المرين فلن أقدر على رؤيته بشرا، بل قمة الهرم.

صادقة في الجزائر

كاتبت الأديب المصلح عن رأيي وعاطفتي حول موضوع استحال علي تناوله خارج المكتبة بسبب ما يحيط به من عرف قاس، فلا أحد كان ليقبل خوض حوار لبه شد يد امرأة تاهت عن درب الدين والمجتمع، والكتابة دون خوف في موضوع منعني العرف من الحديث عنه زادني تعلقا بالرسائل.

أعدت الكتاب إلى الرف وأنا أخاطب كتبي قائلة «ألا كتبي، ما خطك الكتاب لسواي»، ثم تساءلت في نفسي أن كيف يشعرني كل كتاب بأنه ما قرئ من قبل لقائي به، وأنه لا قارئ له بعدي، يشعرني أنه قد خط لأجلي، وأن صاحبه يكن لي من الود والثقة ما حمله على أن يترك لي كل موروثه ووصيته ألا وارث له غيري.

كنت ألقبها كتبي ولم تك ملكي، والحق هو أني لم أك قد اقتنيت كتابا واحدا في حياتي، ولم أجل بأرجاء مكتبة غير مكتبتي طيلة نشأتي فقد كنت أستحي أن أطلب المال من والدي، أستحي من ثوبه الذي لا يبدله بل يكتفي بتنظيفه وكيه، أستحي من حذائه الذي لا يغيره بل يحمله إلى الإسكافي كلما تمزق أحد جوانبه، وأستحي من مرآه جاثما يعد الدنانير التي بحوزته علها تقتني لنا من الفاكهة حبات نزين بها طاولتنا الخشبية الصغيرة التي تجمعنا كل مساء.

كنت أعلم أن والدي سيهبني ثمن الكتاب إن أنا طلبته، وأعلم أنما ثمن الكتاب وجبة ورحلات باص سيحرم منها نفسه، فكنت أمتنع لألا يحرم، وما كان ليرفض حتى لا أحزن، هكذا كانت حياتنا، فكيف لا يستوقفني ‹أبناء حارتنا› وهو يسرد لي أبوة وبنوة تتراشق القساوة وتتبادل البرودة حتى أحالت كل فصولهما شتاء دائم الجليد:

حضرة المعلم نجيب محفوظ

كيف يبلغ القلب هذا المبلغ، وهل يلقب القلب قلبا إن هو افتقد الرحمة والتسامح، ولم خفقانه إن لم يك للحب، وما نفع حياته إن لم تك للعطاء، وما يصنع بمدافئ القصر المهجور فالقلب يا سيدي يدفئه البشر لا الحطب المستعر.

كيف لا يرق قلب الأب لولده لمجرد أنه عصى أمره، وكيف لا يلين قلب الابن لوالده وذريعته أنه والد متسلط، وهل تربطهما سنن المجتمع وبنود الوصية؟ أم الأبوة والبنوة؟

قد لقبت يا صاحب الرواية بملك الأدب الواقعي، فالويل إذن لمن كان هذا الواقع قدره، الويل لمن خالف فطرته فأخل بميزان سعادته وسعادة كل من حوله، ثم طوبى، طوبى للذين يحتضنون بعضهم بعضا بالذراعين حينا وبالحب والاهتمام والإيثار كل الأحيان.

صادقة في الجزائر

كان مساء باردا على قلبي الذي تدفئه الكتب حينا وتحرمه الدفء حينا آخر، وهي إن دثرته فلمبتغى وإن امتنعت فلحكمة، كانت الكتب تبسط الحياة لأجلي، والحياة فصول.

هممت بإعادة كتاب «أبناء حارتنا» إلى الرف غير أني استوقفت نفسي لما لمحت خطا رفيعا على غلافه، دنوت من النافذة حتى يساعدني نور الشمس على قراءته فقد بدا لكثرة السنين التي مرت عليه باهتا، وإذا بي أتفاجأ بأثر قلم الرصاص يحفظ من الكلمات ثلاثا «هذه النسخة مهربة».

كان ذاك الكتاب صادرا من دار نشر لبنانية، قادما من مصر وغير مذكور في سجل جرد المكتبة، أدركت يومها أن يدا مصرية قد دسته في صمت بطرد

قادم إلى دارنا، وأن يدا جزائرية قد دسته في صمت بين الكتب، ثم فطنت إلى أن بعض المؤلفات لا ترسل علنا، وأن الكتاب ليسوا أحرارا كما اعتقدت.

كان «أبناء حارتنا» يحمل في طياته الكثير من بعد القساوة التي كابدت صاحبه عنها، وكان من اليسير بعد الكلمات الثلاث التي عثرت عليها، كان من اليسير علي أن أدرك بأني ما فقهت من سطوره سوى ما سمحت به سنواتي الستة عشر، وبأني لن أقدر على كشف أوراقه كلها إلا بعد أن يصب لعمري سنوات أخرى، هي هكذا الكتب، تمنح القارئ رحيقها رويدا رويدا، كأنها ذريعتها أو حيلتها أو تعويذتها أو لعنتها ليزورها مرة أخرى، لربما كانت الكتب تغرم بالقراء مثلما يغرم القراء بها، لربما كانت تشتاق إلى أناملهم مثلما يشتاقون إلى ريحها.

أخفيت رسالتي وغادرت المكتبة، نزلت الدرج وتوجهت صوب غرفتي، راجعت دروسي ثم خلدت للنوم باكرا فقد كان علي الاستيقاظ قبل الشروق للالتحاق بالثانوية كما أفعل كل يوم.

بأحضان الثانوية قلما حدثت زميلاتي عن الكتب التي تركت في نفسي أثرا عميقا فزميلاتي لم تحببن كثيرا مشاركتي هذا الحديث، كن يعجبن بي كلما قدمت للمعلم جوابا ينم عن ثقافة وعن إتقان ملحوظ باللغة، وكن يرغبن في معرفة مصدر هذا التفوق فأحدثهن عن المكتبة المهجورة وأدعوهن إلى زيارتها، ولكنهن تعتذرن في كل مرة عن تلبية دعوتي ثم تعقبن اعتذارهن بسؤال دائم التكرار على شفاههن؛ أن كيف أستطيع التوفيق بين المطالعة والتحضير لنيل شهادة التخرج من الثانوية؟ وكنت أخبرهن بأن العالم الذي تحسبنه متعبا إنما هو العالم الذي أجد فيه راحة لفكري وفؤادي، وأن الزمن الذي أقضيه به والذي تعتقدنه ضائعا إنما أنال أضعافه أدبا وعلما وخلقا، وكن ومن بعد هذا تنصحنني بالاجتهاد أكثر في التحضير للامتحانات النهائية وتأبين سماع

نصيحتي حول اكتشاف المطالعة.

كنت على غرارهن أحضر لنيل هذه الشهادة الفاتحة لباب درجة أخرى من درجات التعليم، وكنت مثلهن متحمسة أشد الحماس للالتحاق بالكلية، كن قد أفصحن لي أكثر من مرة عما يرغبن في دراسته إذا ما كان النجاح حليفهن، واختلفت رغباتهن بين الطب والهندسة والصحافة واللغات وغيرها من الاختصاصات، وكنت أخبرهن كلما حان دوري أني أتمنى دراسة القانون إذا ما وفقت في التخرج، فكن يمازحنني بالقول أني سأحتاج إلى مطرقة كتلك التي يضعها القاضي فوق طاولته.

اجتهادي ومثابرتي في مواد المقرر الدارسي لم يبعداني عن المكتبة ولم يمنعاني من مطالعة الكتب، ومع أن كثيرا من أقاربي عبروا لي ولوالدي عن تخوفهم من رسوبي بسبب الساعة التي أقضيها في المكان المهجور بدل استغلالها في المراجعة إلا أني لم أرتب يوما بسبب حديثهم، فقد كان الأمر في نظري متعلقا بتنظيم الوقت بين الاثنين والالتزام بهذا التنظيم، فلا تأخذ المطالعة من زمن الدراسة ولا الدراسة من زمن المطالعة.

وأعترف أني قد شعرت تلك الأيام بالعجز أمام مادة الحساب، فقد كانت عقبة وعرة تعترض سيري نحو الحصول على الشهادة، ولكني أبيت الاستسلام فقمت بدعوة زميلاتي إلى بيتي قبيل موعد الامتحانات النهائية حتى ألقى العون منهن في هذه المادة التي تفوقن فيها دائما، وحتى أساعدهن في دروس الأدب والتاريخ والفلسفة التي تميزت فيها.

قضينا ساعات من الدراسة بين الأرقام والكلمات، حاولت خلالها كل منا إعطاء ما في جعبتها للأخريات فقد كنا عليمات بأن العطاء في العلم هو مفتاح نجاحنا جميعنا، فلما انهينا حل كل ما استعصى علينا سابقا تأهبن للرحيل.

غادرنا حجرة العائلة عابرات حديقة الدار ونحن نسرد بعض القصص الطريفة لنخفف عنا تعب المراجعة، فجأة استوقفت إحداهن نفسها ثم أشارت إلى بيت اليمام الخشبي، أثنت على جماله وقالت أنها تتذكر إعجابها الشديد به حين كانت شبلا في الدار ثم طلبت إلي منحها إياه، غير أني رفضت وأخبرتها بأني متعلقة به تعلقي بكل شيء في بيتي المميز، وبأن يمامي سيعود يوما ولن يرضى ببيت غيره.

لزمت الفتيات الصمت وتبادلن نظرات أخفين بها كثيرا من الكلام، اقتربت مني إحداهن وأمسكت يدي برفق ثم قالت وفي صوتها العطف أن اليمام قد رحل للأبد.

غادرت زميلاتي دارنا، وتمنينا لبعضنا بعض ونحن نتوادع التوفيق في الامتحانات النهائية، توجهن صوب بيوتهن وكنت لأتوجه صوب حجرتي لو لم تتلفظ زميلتي بتلك الكلمات الرهيبة على فؤادي، سرت بخطى حزينة نحو بيت اليمام فلما بلغته جلست جنبه وطلبت إليه أن يتحلى بالصبر مثلي فسيعود اليمام والمطوقة مع شروق الشمس.

كنت على ثقة بعودته، فحتى لو لقي أرضا آمنة فلا بد له أن يحن إلى أرضه، وحتى لو وجد بيتا يسعه جميعا فلا بد له أن يشتاق لبيته، ولئن صادف فتاة تعتني به فلن ينسى السنوات التي التقط فيها الحب من يدي، كنت أكيدة أن الوفاء سيعود به وكان رجائي الوحيد ألا تنال منه شبكة صياد وهو في طريقه نحوي.

مرت الأيام بسرعة فما شعرت بنفسي إلا وقد بلغت موعد الامتحانات النهائية، كان الارتياح باديا على محياي طيلة أيامها فقد لاقيت في جعبتي أجوبة للأسئلة التي حملتها تلك الأوراق الراسمة لمنحى مستقبلي، وكيف لا أجد وقد اجتهدت وما قصرت قط في الاجتهاد، هذا وقد حالفني الحظ حين

اختير لنا قطعة من موروث المفكر العقاد في مادة الأدب، شعرت بثقة لا تقدر وسعادة لا توصف وأنا أجيب عن كل سؤال حائم حول حبره وأشرح مغزى سطوره وأشير إلى عاطفته بأسلوبي، حتى أني شعرت بالمفكر العقاد جالسا بجانبي.

اجتزنا الفحص الأهم في مشوارنا الدراسي كله ثم رحنا ننتظر الإعلان عن نتائجه، قضى بعضنا هذا الوقت في البيت، وقضاه آخرون خارجه، أما أنا فكنت في المكتبة أختار كل مساء واحدا من كتبها لأبحر به في إحدى قرى أو مدن مصر.

وبعدما صعدت ذات مرة على قارب أدب للإبحار قرأت للمنفلوطي قطعة يتحدث فيها عن السبيل الذي يريد لابنه أن ينشأ عليه، سبيل ميزته الفقر، لا رغبة منه في شقاء فلذة كبده، بل خوفا عليه من الضلال في زمن المغريات، وشاءت الصدفة ألا تكون تلك المرة الأولى التي أقرأ فيها هذه القطعة، وشاء المنطق أن تختلف قراءتي في المكتبة كل الاختلاف عن سابقتها من حيث الرأي الذي شكلته والعاطفة التي شعرت بها وهذا ما ألهمني للكتابة:

حضرة المعلم مصطفى لطفي المنفلوطي

كان «الناشئ الصغير» واحدا من النصوص التي قرأتها أثناء مرحلة التعليم الإعدادي، لما أك حينها قد بلغت سن الثالثة عشر بعد، فإن فعلت فلا أحسبني جاوزت هذه السن بكثير، ليس في وسعي تذكر هذا الفارق البسيط في عمري ولكن في وسعي تذكر عنايتي الفائقة بشكل هذا النص وصرفه وإعرابه على نحو أرضى معلمي ودفع به إلى الثناء علي.

ها أنا أعيد قراءة هذا النص وقد بلغت السابعة عشر ربيعا، وها أنا أدرك أنه جوهرة لم تصقل لتعنى بها طفلة في الثانية أو الثالثة

عشر ربيعا إنما صقلت ليتأملها كل راشد هو ولي ناشئ، وكل راشد سيصير يوما وليا لناشئ.

للأولياء دروب يعملون على إنشاء صغارهم عليها، منها اللين ومنها الشديد ومنها ما يلين طورا ويشتد طورا آخر. فأما اللين المطلق أو الشدة المبالغ فيها بكل موضع فخطر على الناشئ كخطر اللين في مواضع الشدة والشدة في مواضع اللين، ويبقى الاعتدال أصح الدروب وإن اختلف مفهومه من ولي إلى آخر.

إني يا سيدي أفهم جوهر الدرب الذي وددت أن ينشأ ولدك عليه وأعرفه، لا بل إني لم أحظ بغيره فمع أني لا أنتمي إلى فقراء الجزائر الذين عصف بهم العوز فأهلك أكثر مما أبقى، إلا أن لي نصيبا وافرا منه، وليس غريبا أن أكون قد كرهت الفقر كلما حرمني شيئا احتجته، أو أحببته، أو تمنيته، وليس من العيب أن أكون قد اشتهيت الغنى مرات ولكن العيب كل العيب هو أن أكون قد هممت في حب الثراء وجعلت منه الغاية التي يدق لها فؤادي، والتي يركض خلفها ويلقي في سبيل اللحاق بها بكل ما يثقله، ولا يثقل الفؤاد في سبيل اللحاق بالثراء شيء سوى مكارم الأخلاق.

لولا الفقر لشغلت اللحظة بعد المال وإنفاقه لا بالاجتهاد من أجل نيل شهادة أصون بها نفسي من مجهول الغد، لولاه لقطنت وأسرتي قصرا لا حجرة بسيطة ضيقة الأرجاء، ولولاه لمررت بجانب هذه الكتب كالنسيم، يشعرك بوجوده لكنه لا يرى ولا يسمع ولا يحرك ساكنا.

صادقة في الجزائر

وقعت رسالتي ووضعتها جنب الرسائل الأولى؛ في درج الطاولة التي لا يجلس إليها أحد غيري، كنت على يقين أنها في مأمن حتى لو تركتها دون مخبأ، وحتى لو شددتها إلى باب المكتبة كمعلقات العصر الجاهلي فقد كنا أرضا لا يطرقها أحد ولا يسأل عنها ولا يذكرها ولا يتذكرها إنس، كنا أرضا مهجورة، أرضا وحيدة، تجهل ذنبها وتكابد عقابه، بريئة من الإثم وتقاسي أوزاره.

ذكري لفحوى هذه الرسالة يدفع بي الآن إلى التساؤل عن سبب إخفائي لها دون لحظة من تردد؟ ليس صعبا أن أدرك بأن الخوف من اعتلاء المنبر للكشف عن أفكاري وعواطفي بلغة عربية فصيحة، بصدق لا زيف يحوطه ولا مكر، الخوف من اعتلاء المنبر بسبب النقد الذي قد ألقاه من الغير الذي لن يجتهد في محاولة تقبل كياني، بل قد يعمد لقمعه لأنه لا يوافقه الفكرة أو الميول أو لأنه يستكثر عليه تلك الخلوة التي يشعر أثناءها بالحرية والتحرر معا، خوفي كبر بمرور الزمن واشتد وعرق وتفرع وكان من بعد إحاطته بي راغبا في إغراقي.

كان مستحيلا أن أرى وأنا بنت السابعة عشر ربيعا ما أرتكبه في حق نفسي ووطني وأمتي بسبب هذا الخوف، كان صعبا علي أن أدرك بتلك السن أن أولئك الكتاب والمؤلفين والمصلحين الذين ملأوا المكتبة المهجورة بالكتب، ما كانوا ليشاطروني فكرة واحدة ولا عاطفة لو ما أفصحوا عنها وكشفوا للعالم جميعا ما خطوه منفردين، وأنهم وفي سبيل رسائلهم قد واجهوا النقد وتحملوا كل ما لحق بهم جراءه، وأنهم ما تخلوا قط عن مبادئهم والقلم وهكذا انتصروا مرتين؛ مرة للفكر والأدب ومرة للوطن والأمة.

لم أشعر في تلك السن اليافعة بالخطب الجلل فكنت أحمل نفسي المطمئنة وأتوجه صوب المكتبة كل مساء، أحط بالقرب من رفوفها ثم أختار واحدا من كتبها التي كانت في نظري غنية وقيمة ومفاجئة أيضا، فأنا لم أعرف يوما ماهية العاطفة ولا الرأي اللذين ستفجرهما في فؤادي وفكري إلا بعد الانتهاء

من قراءة آخر سطورها، ومع أني حاولت ذات مرة التكهن بما سيخالجني بمجرد قراءة العنوان «من وحي البحر» للأديب أحمد أمين، إلا أني أخطأت التكهن.

أجل، أخطأت التكهن فقد تصورت الكثير عن هذا الأزرق، ولكن الكاتب ما نثر حبره ليصف اليم، بل حاول أن يشير إلى ضعفي الأكبر، إلى القيد الذي يزداد صلابة كلما تقدمت في العمر، إلى الكهف الذي سرت فيه دون أن أفطن إلى أنه فضاء ضيق لا نهاية له ولا مخرج ولا نجاة.

لا تكتم خواطرا لا ذنب لها سوى تعود الناس على إبقائها سرا لسبب قد يكون سخيفا، هكذا النصح في يم أحمد أمين، وأحببت أنا الجالسة بالبر الأمين النصيحة غير أني لم أنتصح بسبب عمر كان لا يزال لينا، أحببت النصيحة التي كنت غافلة على أني أحوج الناس إليها، هذا وأحببت أن أكتب للأديب الذي عشقت طفولته بعد قراءة مؤلفه «حياتي»، والذي تعلقت بكل ما خطه شابا شغوف بالأدب فرجلا نال حكمة الزمن:

حضرة المعلم أحمد أمين

لي يا سيدي شرفة تطل على البحر وقفت بجانبها كلما هزني الفرح أو الكرب، وما أقل أفراح الحياة إذا ما قورنت بالكرب، كنت أكاشف منها البحر بأحوالي وكان البحر ينادي: تعالي لأفرح معك بحملك فوق موجي، وتعالي لتصغي إلى الطرب الذي أنشد في الليلاء لي وحدي، وغازلي أيتها الصبية ريح نسيمي كيفما شئت وتغزلي بلوني السماوي كيفما أحببت ثم ابلغي الأفق فكفاك بعدا عن الأفق.

لا تخجلي، لا تخجلي أيتها الحسناء إن أنت مددت يدك الناعمة إلى أصدافي ولآلئي، وتجملي، تجملي أيتها العذراء بكنوزي ومرجاني،

صادقي حورياتي وعرائسي ثم اجعليني عبدا لأخدمك، أو نصبيني ملكا لتكوني مدللة الملك.

وتعالي لأشاركك أوجاعك، يأخذها مدي منك ويبعدها جزري عنك، هلمي غوصي في قراري إن لم تصدقي تري كم وجعا ابتلعت ليرتاح أصحابه في البر، وتأملي، تأملي أيتها المحزونة كم الأسرار في القاع قبل أن تتركي سرك وثقي أن ليس يعرفه أحد غيري، ثم ابك، أجل ابك لتخف آلام جراحك فإن جف دمعك قبل أن تطبي فأنا الدمع كله فداك.

وكنت أبتعد عن شرفتي وأكتم وحي البحر في نفسي وأخشى أن أسر به إلى الناس فيسخر الناس مني، ولكن خشيتي تلاشت حين تحدثت عن وحيه، ثم تحدثت عن وحيه أيضا بصراحة وصدق لا يكتم أنفاسهما استهزاء الآخرين، تلاشت خشيتي فهل ترضى أن تكون أول من أفشي له بصراحة وصدق وحي اليم إلي، وأول من أخبره بأني ما لبيت دعوته يوما، ولو فعلت لما أمل أحد في عودتي.

صادقة في الجزائر

كان الكاتب أحمد أمين الأول والوحيد الذي أفشيت له وحي البحر إلي، وكانت رسالتي هاته آخر رسالة خطتها يدي وأنا طالبة بالثانوية، لا لأنني توقفت عن المطالعة أو عن الكتابة، بل لأني نلت شهادة التخرج والتحقت بكلية القانون.

❄❄❄

كان من المستحيل أن أخفي تلك الابتسامة التي اعتلت ثغري وأنا أجول

بحرم الكلية لأول مرة، شأني في ذلك شأن كل طلاب السنة الأولى، أسرتني قاعات محاضراتها الواسعة التي لم يسبق ورأيت مثيلاتها حجما، أذهلتني ساحتها العامرة التي لم أشهد في حياتي كلها ساحة تحتضن كل ذاك الحشد من الطلاب، فاجأني التباين في أعمارهم، ومظهرهم، والمنزلات الاجتماعية التي ينحدرون منها، استوقفني أكثر من مرة منظر أساتذة حاملين محافظهم الجلدية بيمينهم ورافعين الجدية بملامحهم وأسلوب حديثهم، هذا وسحرتني مكتبتها ذات الطابقين المليئة بكتب القانون والفقه.

جلست على أحد مقاعد هذه المكتبة القانونية ورحت أتأمل طلاب السنة الأولى الظاهرة سعادتهم على محياهم، فطلاب السنة الأخيرة البارزة ثقتهم بأنفسهم بعد سنوات من البحث والتلقين، لم ينازعني الشك في أني أطأ أرض القوة المسخرة للحق ومنبع العدل والمساواة بين أبناء الوطن، كنت سعيدة بتحقيق حلمي في الالتحاق بهذا المكان العظيم ومستعدة لأن أصبح الإنسان الذي سيجعلني عليه بعد سنوات.

وبلحظة مجنونة تمتمت واعدة الكلية أني سأقاتل فيها للفوز بتاج المرتبة الأولى، وأني لن أكتفي بالتاج زينة تميزني عن باقي الطلاب، بل سأحيا لأكون القانوني الذي لن يمر على حق ضائع إلا وقد سعى لإعادته إلى أصحابه، ولن يبصر جورا قائما إلا وقد عمل على إنهائه.

كان هذا وعدا مجنونا، حلما مجنونا، طموحا مجنونا بلحظة خاطفة مجنونة، غير أني قد كنت أملك ثقة في قدرتي على التميز، فما التميز في نظري سوى إرادة وجهد وتفان.

قمت بعد ساعة من الزمن وغادرت الكلية، اقتنيت بما كنت أملك من المال أقلاما ودفاتر استعدادا للسنة الدراسية الجديدة ثم عدت إلى بيتي، وضعت مقتنياتي في غرفتي ثم توجهت صوب زاويتي الخاصة للمطالعة، فبالرغم من

الوعد الذي قطعته بأرض القانون إلا أن الوفاء به لم يرم إلى هجر المكتبة ففيها فقط شاطرت السفراء على مر السنوات أفكاري وعواطفي دون خوف أو تردد، دون قيد واحد، ويستحيل على امرئ لم يسلم نفسه للأدب أن يدرك ما الأدب، يستحيل أن يعرف بأنه دنيا لا حبر وورق.

أجل، شاطرت السفراء هذه الدنيا المهجورة دون أن أستوقف نفسي فالحدود لم تخلق للأدب، شعرت بالحرية المطلقة بين سطور ما خطوه واستشعرت التحرر بين سطور رسائلي، أفصحت وأملت وبكيت وما أخفيت فكرة وما كتمت عاطفة، ثم إن وصف تلك الدنيا الخالية من القيود لا يكون وصفا حقا إلا بالحديث عن ذاك العزاء المتفرد عن كل عزاء قدمته وعن كل عزاء بلغني خبره، فقد كان عزاء مني لراحل عن راحل.

قد بدا حديثي ضربا من المستحيل والخيال بنظر الغرباء عن الأدب، هذا لأن الغرباء غفلوا على أن العزاء في حداد يحفظه النثر لا يكون إلا بالنثر، والحق أني ما عرفت العزاء في الأدب حتى قرأت ما كتبه الأديب لطفي المنفلوطي لدى مواراته الثرى لرابع أبنائه.

هز مصابه وجداني وهو مصاب قادر على هز كل وجدان فلم أشعر بدمعي ينهمر ولا بيدي تمتد نحو قلم:

حضرة المعلم مصطفى لطفي المنفلوطي

لم أعرف قبل اليوم الإيثار في الأدب يا سيدي، لم أعرف قبل اليوم إيثار الأديب على نفسي، فهل هذا طبع القارئ وشيمته أم أنه طبعي وشيمة فؤادي الأناني فقط؟

قد كنت أقرأ الكتب بحثا عن نفسي المترنحة بين الحزن والغبطة، أو النجاح والعثرة، أو الاستقرار والضياع فأستأنس بكل

فقرة تصف حالا شبيها بحالي، وأتشبث بكل عبارة تحمل أملا أحتاج إلى مثيله في حياتي، وأهوى كل ما يعبر عن الذي استحال علي التعبير عنه لوحدي، كنت أجمع الحكم وأضعها في كيس المعرفة الذي أحمله أثناء سيري على درب الزمن الوعر، أحفظ أجوبة الأسئلة التي شغلتني ثم أحتفظ بأجوبة الأسئلة التي كانت لتشغلني باليوم الموالي، كنت أعثر على شظاياي التي خلقت بالفطرة تائهة مني وكنت أتعرف على الحياة وأكتشف ما تبديه وما تخفيه من يوم اللقاء الأول إلى لحظة الوداع الأخير.

ولكني عدلت عن هذا كله حين قرأت «الدفين الصغير»، عدلت لأني ما قرأت نصا للمنفلوطي الكاتب والأديب والمصلح، بل نصا للمنفلوطي الأب الذي ألقت عليه الحياة بأثقل أوزارها وامتحنته بأكثر الفواجع قسوة على القلوب وإذهابا بالألباب ففراق الإبن تلو الإبن مصاب لا يضاهيه مصاب، وجرح لا يشفيه الزمن.

إني لا أشعر بنفسي وأنا أدنو قدر ما استطعت منك، فأنا التي سرت ذات يوم بوجعي إليك وأنا التي يسير بي اليوم وجعك نحوك، وإني أيها المحزون أراك كما تعودت، فاضلا حكيما تلف مصابك وجرحك بالصبر وشكر الله وهما حيلة المؤمن التقي.

لقد امتنعت عن مد يدي إلى حبر دفينك الصغير للاستئثار به كما أفعل بكل نثر، عجزت عن مد اليد إلى حرف واحد من حروفه فهذا النص لك وحدك، لن أقف عند قراءته إلا وراءك فهو يحمل حزن الأبوة فيك، واسمع لي بعد هذه السنين أن أقدم تعازي بالقول: «إن الحياة التي سلبتك أبناء من صلبك تهبك في كل جيل أبناء من صلب أدبك وفضيلتك وإحسانك».

صادقة في الجزائر

كان هذا عزائي للمنفلوطي الأب وكل الكلمات التي كان في وسعي الإتيان بها بلحظة كنا فيها أكثر من كاتب وقارئ، كنا والدا وبنيته برابط الضاد والفضيلة والاحسان، هذا وكان العزاء سرا آخر من أسرار اللقاءات التي جمعتنا، سر أحسنت دفنه وأنا بنت الثامنة عشر ربيعا، وكنت بعد بلوغ هذه السن أكثر الناس خبرة في دفن الأسرار.

أجل، كنت أحسن الدفن، كنت حفار قبري دون أن ألحظ، كنت أستعجل موتي دون أن أدري، كنت أرفض الحياة معتقدة أني أتوق إليها، كنت أخط أفكاري وعواطفي ثم أسارع إلى مواراتها الظلام أفليست رسائلي أفكارا ممنوعة، أفليست شعورا منكرا، أليست لراحلين لا يراسلون، جرأة في مجتمع يكفر بالجرأة، اختلافا في مجتمع يحرم الاختلاف، تمردا في مجتمع يتقن قمع المتمرد، حرية مطلقة في مجتمع يكاد لا يؤمن بالحريات.

كان دفن أفكاري وعواطفي، دفن كياني أسهل بكثير من مواجهة مجتمع شرس المراس، مجتمع ما كان ليغفر صنيع الجبابرة فأنى له بالغفران يحوط به صنيعي أنا؛ أنا الصبية البسيطة التي حالت بساطتي دون أن أحمي شجرة ويماما.

صبية بسيطة ابنة بستاني لا يقل عني بساطة، ولا خطب في أن يكون المرء ابن بستاني، لا خطب في أن يكون ابن فلاح، أو حطاب، أو راع... هكذا كان ظني، وصدقت ظني، لكن لقاء واحدا عصف بالذي صدقته فما استطعت إلا أن أكتب:

حضرة المعلم نجيب سرور

«وفيها ايه لما كون ابن فلاح»، أكتب هذا لأني أرى الفلاح بعين تفيض احتراما، وهكذا أرى غيره من العمال البسطاء، لا بل

هكذا أرى الإنسان يا سيدي، وكنت أحسب أن عيون الآخرين تشبه عيوني، لكنك جئمت اليوم في مكتبتي؛ طفلا باكيا بثياب بالية وخف ممزق تقول متأوها أبي ولا كلمة غير أبي، فأدركت أن خطبا قد ألم بالفلاح فابنه.

تأملتك طفلا قد حمل إلي وجعه أبياتا من الشعر، يشتكي حذاء عوقب به الفلاح بذنب أنه ولد فلاحا، فانهالت عليه الطبقية ضربا بيد رجل ثري، لا استوقفتها رحمة بطفل الذي يرى ما يصنع بوالده ولا استوقفها أنين الوالد وكسرته، فهل خالفت عيناي عيون الآخرين؟ وهل يستكثر هؤلاء الذين منحتهم الحياة النعيم على أبهاتنا الاحترام، فنقف نحن وقفة الباكي العاجز الذي لا حيلة له سوى دمعة للأسى وأخرى للاستعطاف.

هكذا كسرت طفلا قبل أن يدق قلب الشاعر فيك بقوة جعلت من الكسر انتفاضة، ومن الفلاح قضية، فقاصصت الطبقية وعاقبت بالازدراء المحفوظ في الكتب الثري الذي اتخذته مبعوثا، لكن بعضنا يا سيدي لا ينتفض شعرا، لا يحارب نثرا، لا يثور رسما ولا نحتا ولا عزفا ولا رقصا... فكيف يقاصص؟

صادقة في الجزائر

غادرت المكتبة بعد أن أعدت القصيدة إلى الرف وبعد أن أخفيت الرسالة بالدرج، سرت عائدة إلى حجرتنا، فلما بلغتها رحت أساعد والدتي في تحضير طاولة العشاء، بدا أن كلاما يصارع شفتيها حتى يبلغ مسمعي، وبشيء بسيط من الإلحاح أخبرتني أن زيارة إحدى الجارات قد أزعجتها، فقد تحدثت هذه الأخيرة عني بنبرة لم ترض والدتي، تحدثت قائلة أني فتاة مختلفة الطباع لأني لا أرافق أمي إلى جلسات الشاي سوى نادرا، فإذا ما حدث وحضرت إحداها

فإني أكتفي بالإصغاء إلى أحاديث النسوة دون المشاركة فيها، فمع أني طالبة جامعية إلا أني لا أستطيع مجاراة الأحاديث.

ابتسمت وطلبت إليها ألا تشغل بالها بما تلقيه النسوة على مسمعها، وأن تخبرهم أن لي دروسا كثيرة للحفظ والمراجعة تمنعني غالبا عن حضور جلساتهن، وأني أحبذ إذا ما نلت حظ لقائهن، أحبذ الصمت للانتفاع من خبراتهن وحكمتهن في شؤون الحياة، بدا لي جليا أن حجتي قد أقنعت والدتي التي كان من طبعها أن تعلن رفضها للذي لا يرضيها دون مقدمات أو تحايل، طلبت مني وضع سلة الرغيف على الطاولة ثم راحت تخبرني عن الستائر الجميلة التي رأتها بذلك الصباح في سوق المدينة.

لم تك تلك المرة الأولى التي يبلغني فيها آراء حول طباعي التي لم تألفها النسوة ولم تستطعن إلا إبداء استنكارهن بها، اعتبرنني صاحبة تعجرف مصطنع فما كنت غير ابنة بستاني بسيط لا أملك ما يجعل جلساتهن متواضعة الشأن في نظري، هذا وحسبن أن الغباء هو ما يخرسني حين ألاقيهن صدفة وهن مبحرات في محيط مواضيعهن المحببة، والحق أني لا كنت أمت للتعجرف بصلة، ولا كنت بتلك الدرجة من الغباء، ولكن حضور جلسات لا حديث فيها سوى عن أخبار الآخرين وأسرارهم لم يستهون يوما، فكنت أستحضر أي حجة حتى لا أضطر لتحملها، فإن أجبرتني مناسبة لا عذر لائق لها للتهرب، أن أجبرتني مثل هذه المناسبات على مجالستهن فإني لا أجد في نفسي سوى رأيا وعاطفة مخالفين لما أجمعن عليه، ولأن النسوة لا ترحمن المختلفة عنهن فإني أطوق نفسي بالصمت ليحميني من لعناتهن.

كان من الحكمة في نظري أن ألزم الصمت حتى بعد أن بلغ مسمعي أكثر من مرة أحاديث أقاربنا ومعارفنا وهم يصفونني بالذي لا يعنيني، كنت أكيدة أنهم لو قرؤوا شيئا مما كتبت لأعرضوا عن تلك النعوت، ذنبهم في هذا أن كثيرا

منهم يتكلم في الغيب، وذنبي فيه إخفائي لكياني زمنا ليس بالهين.

وصدقا لم أجارهم يوما ولم أحاول قط الحكم عليهم من بعد اتخاذ مظهرهم مرجعا لأني لا أصدر أحكامي بمشورة عيني المجردتين، كما لا أصدرها وفقا لما يتناقله الناس من قصص مختلقة في معظم الأحيان، وقد اكتسبت هذه العادة من الكتب، فأنا لم أصدر يوما حكما على كتاب بمجرد قراءة عنوانه، قد حدث أن تكهنت بالذي تخفيه صفحاته لكني ما جزمت قط، هذا وما كنت أصدرها بناء على ما كتبه النقاد لأني قد لا أظلم الكتاب فقط إذا ما اكتفيت بالنقد، بل وقد أخسره دون أن أدرك أني قد خسرت كنزا قوميا.

والكنز القومي عبارة استحدثتها لأعني بها قطعة نثرية أو شعرية يفوق قدرها الذهب والجواهر لأنها لا تثري صناديق الخشب والنحاس بل الفكر العربي، وسلسلة ‹عبقريات› كنز قومي كنت لأخسره لو أني اكتفيت بالذي قيل عنه:

حضرة المعلم عباس محمود العقاد

‹ما هكذا يجود حبر العقاد›، جملة قلتها اليوم وسأرددها كلما لزمني الأمر، وقد كان لقولي لها قصة أحب أن أسردها لك يا سفير مصر بالجزائر.

حدث أن قرأت نقدا لكتابك ‹عبقرية سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام› قبل قراءة الكتاب، وهذا فخ وقعت فيه عن غير انتباه فقد سبق وقوع النقد بيسراي امتداد يمناي إلى الكتاب، ولا أعرف إن كانت كلمة نقد تناسب ما قرأت، ولست بمكانة تخولني إضفاء هذه الصفة أو سحبها ولكني قارئ، وللقارئ دوما حق إبداء رأيه سواء كان هذا الإبداء صريحا أو تلميحا في شكل جاد أو هازل.

أما الخلاصة التي انتهى إليها الناقد فهي إدانتك لأن كتابك

دفاع عن عظمته عليه الصلاة والسلام والنبي في منأى عن الدفاع، وقد ترددت في إضفاء صفة النقد على الكتاب لأني شعرت بالناقد شخصا لا مفكرا لكثرة الأنا في حبره، ثم الفناء، كل الفناء للأدب إذا زالت الموضوعية في النقد واكتفى النقاد بعواطفهم ومذاهبهم.

ولأني أعرف عن كتاباتك وعن شخصك ما لا يقل عن ثمانية عشر عاما فقد قلت في نفسي «ما هكذا يجود حبر العقاد» ثم هرعت إلى المكتبة التي تحفظ منذ عقود نسخة من سلسلتك.

قرأت مقدمته فإذا بي اكتشف أن الزمن الذي كان بين لحظة اتخاذك قرار الكتابة عن سيدنا أشرف المرسلين ولحظة انطلاقك في تنفيذ هذا القرار هو ثلاثون عاما، ولن أخفي الدهشة التي تملكتني وأنا أقف جنب هذه العقود الثلاث، ولكن الدهشة زالت وحل محلها التقدير ما إن قرأت قولك بأنها المدة اللازمة للفكر حتى يتمكن من الكتابة في شخص نبينا محمد عليه الصلاة والسلام.

انطلقت بعد الذي ذكرت في قراءة فصول الكتاب التي تحدثت فيها عن نبينا الكريم رجلا، ومحاربا، وسياسيا، وإداريا، وزوجا، ووالدا فكنت ساردا حقا لعبقريته في تسيير جميع جوانب الحياة، هنا لقبت سلسلتك بالكنز القومي وعقدت العزم على أن أوصي بها إذا ما سألني أحد عن كتاب.

صادقة في الجزائر

كيف أخطئ كيانا بعد ثمانية عشر عاما من الرفقة؟ كيف أصغي عنه وقد عشت عمرا بأكمله أصغي له وأحدثه؟

عرفتني الكتب على العقاد فكرا وقلبا تماما كما فعلت بغيره من المؤلفين

المصريين حتى أضحيت قادرة على تمييز صوته وصوتهم المعبر عن أفكار وعواطف المصريين جميعهم، فسفراء الأدب هم صوت شعبهم الحق، هم نصه ومقاله وقصته وروايته، هم شعره العمود والحر، هم البحر، هم القافية.

لم يك أحد أو شيء ليقدر بعد ربيعي الثامن عشر، لم يك ليقدر خداعي بتصوير فكرة أو عاطفة ثم نسبها إلى أبناء مصر دون أن أكتشف خداعه، فصوت المصريين كان الصوت الوحيد الذي لا أخطئه تماما كما لا أخطئ صوت الجزائريين، قد كانا الصوتين اللذين نشأت على الإصغاء لهما حتى صرت أعجز التفريق بينهما لشدة ما أصغيت فلم أعثر على فارق يميز أحدهما عن الآخر.

هكذا كان صنيع تلك الكتب المصرية بي، عرفتني على السفراء وشعبهم والبلد الذي أنجبهم جميعهم، والكتب في التعريف لا تكذب، لا تزور، لا تتحايل، لا تعدم وجودا ولا تخلق عدما، وهي بعد كل هذا الكرم لا تطلب مقابلا، إنما تكفيها الصحبة، يكفيها أن تسلم نفسك لها ساعة من الزمن، يكفيها أن تمنحها ثقتك وخيالك ومكانة في أعماقك.

هكذا كان صنيع تلك الكتب المصرية بي، وأحببت أنا بكل عفوية هذا الصنيع، أتذكر كل لقاء بيننا، بتفاصيله، بتاريخه، بكل الأفكار التي ولدت من بعده والعواطف التي تحركت بفعله، وأتذكر أكثر لقاء أتعبني ميعاده، فقد حدث أن جلست بالمكتبة في إحدى العطل الأسبوعية للإبحار بيم «العبرات والنظرات» الذي طالما كان له مكانة خاصة في نفسي، حدثني يومها المصلح مصطفى المنفلوطي عن مصطفى كامل بأسلوب أثار فضولي دون أن يشبعه، فهو لم يذكر سيرة حياته ولا الإنجاز الذي خلد اسمه إنما عبر عن الحزن الجم الذي عم مصر يوم مواراته الثرى.

غلبني الفضول على أمري لحظتها فكاتبته قائلة:

حضرة المعلم مصطفى لطفي المنفلوطي

أيها المتفرد بقرطاس كانت الرذيلة معذبته، بين نظراتك وبيني صدق لا أعرف في حياتي مثيلا له أبدا وفضيلة وإحسان يستحيل أن يصيرا يوما ماضيا منسيا، وبين عبراتك وبيني مصطفى كامل، فمن هذا المصري المحفوظ في موروثك؟

قد طالعت من الكتب المصرية ما لا أقدر عده دون أن أقرأ عنه نصا أو أسمع في ذكراه حديثا وهو الذي كانت له العبرات كلها، أفيكون بمصر رجل جزع لتأبينه المصريون كلهم ثم لا تحفظ المكتبة عنه شيئا؟

صادقة في الجزائر

قمت بسرعة إلى الرفوف ورحت أبحث فيها عن كتاب يحدثني عن هذا الرمز المصري دون أن ينتابني شك في أن المكتبة لا تحفظ عنه حديثا آخر، فالمكتبة التي طالما حملت أجوبة لكل أسئلتي قد كانت بعيدة عن مثل هذه الشبهة، كانت في نظري دنيا تحمل كل شيء على ظهر رفوفها الأربع والأربعين، كأنها مرآة تعكس الدنيا كلها إن أنا جثمت قبالتها، كأنها مرآة سحرية هاربة من قصص الخيال.

أمضيت ساعات طوال في البحث، شعرت بالجوع وأبيت أن آكل، جف ريقي ولو لم يك فوق الطاولة قنينة ماء لما غادرت زاويتي لأرتوي، وفي النهاية وهبني الرف الأعلى ظالتي فقد لاقيت به كتيبا جمع فيه بعضا من خطابات مصطفى كامل.

جلست إلى الطاولة ورحت أقرأ تلك الخطابات التي خطها قبل قرن كامل فلما أنهيتها والشمس قد غربت هرعت إلى قلمي:

حضرة الخطيب مصطفى كامل

أتصدق يا سيدي أن لقاءنا الأول قد كان يوم تأبينك، أتصدق أنه جاء بعد مائة عام غير منقوصة، كان في بدايته صدفة جاءت بها عبرات الأديب، ثم صار متعمدا حين سألت مكتبتي عن شخصك، بحثت بين رفوفها علي أجد سيرتك محفوظة في إحدى الكتب، وبدل السيرة عثرت على بعض من خطاباتك، والحق هو أن خطاباتك أفضل مدونة تعرفنا على شخصك.

الروح لما تحب وطنها تتعلق به، والروح إن هي عشقت وطنها تكتب له أول مسرحية بتاريخه، وتشيد له أول جامعة حديثة، وتصدر له صحيفة لتنشر الوعي، وتنادي بالتعليم فيه، وتندد بالاحتلال المتواجد على أرضه، ثم لا تكتفي حتى ترفض كل من يود تكريمها وحجتها أن كل ما عملت على تحقيقه قد كان واجبا على عاتقها.

قد قرأت خطاباتك قلبا نابضا مصر وفكرا مناديا حرية وأدبا وغدا فما وجدت سوى أن أقول في نفسي: إذا سمعت أن مصريا اعتلى منبرا فكسب به مالا أو شهرة أو تاجا أو الثلاث معا فقل عنه أنه خطيب داهية وفذ، فإذا سمعت أنه اعتلاه وصنع منه لشعبه تاريخا فقل إنه لمصطفى كامل.

صادقة في الجزائر

وأخفيتهما رفقة الرسائل كلها؛ في ظلمات خشب هرئ مهجور، ثم هممت بمغادرة المكتبة غير أني استوقفت نفسي ما إن بلغت عتبتها فقد أحزنني وأنا أهم بإطفاء نور مصباحها الوحيد، أحزنني مرة أخرى عدول الناس عن زيارتها وعن زيارة دار الستة من بعدها وهما أكثر مكان يحب الزيارة ويستحقها.

نظرت إلى الكتب التي فاق عمرها عمري ثم سألتها إن كانت تشعر بالوحدة

فلكأنها أوحت إلي بأنها قد اكتفت بي آلا وصديقا وقارئا... وكاتبا.

سرت بخطى بطيئة في الحديقة حتى بلغت حجرتنا فغرفتي، وبدل أن أخلد للنوم فتحت قفل باب خزانتي ورحت أتأمل العلم المحفوظ بداخلها، انسكبت عبرة من عيني وأنا أخبره بأني لا أعتاد على منظر الدار وسكونها بالرغم من مرور السنوات، وأني أحن إلى الشجرة التي اعتنيت بها فهزتني على الأرجوحة المشدودة إلى أغصانها، وأني أشتاق إلى الطير الوحيد الذي تأملته وهو ينقر بيضته ليحيا ثم تأملته وهو يحلق ليشعر بالحياة.

تمددت على تختي والعبرة على خذي، لا يراها أحد ولا يعرف بوجودها سوى العلم، ولو لم أمد يدي نحوها لظلت حتى تجف على وجنتي.

من علمني كتمان الأفكار والعواطف؟ علمت نفسي أن أفعل فأتقنت التعليم والتعلم، ثم نصحت نفسي أن أواصل وأقنعت فؤادي وفكري أنه الفعل العاقل، وهكذا حتى صار الدمع وحده ما يقبل خدي قبل النوم، فما تراه يوقضني حين يقبل الصبح؟

غفوت ليلتها وأنا مكتفية بالحرية بين جدران المكتبة فقد كنت فيها كطير له جناح من رأي وجناح من عاطفة يحلق بهما وقتما أحب وحيثما رغب وكيفما أراد شرط ألا يراه الفراش وألا يلمحه العقاب، فهل كان ذا الطير حرا حقا؟ غفوت تلك الليلة وغفوت من بعدها ليال كثيرة أخرى وأنا غافلة عن حقيقة الحياة التي لا تكتفي بالحبر السجين.

لم يعد أحد يبدي استنكاره لجلوسي كل أمسية في المكتبة المهجورة، فبمجرد بلوغي التاسعة عشر ربيعا وبعد تربعي على عرش المرتبة الأولى بكليتي تركت لخياري، في هذه السن يئس أقاربي ومعارفي من إقناعهم لي بالابتعاد عنها، غير أن اليأس لم يقربني فقد كنت لا أزال أدعوهم إليها كلما سنحت الفرصة،

وكنت ألقى منهم ذات الجواب الذي طالما تمسكوا به، فأخبرهم أن في الحياة أشياء قد يخيفنا مظهرها ويبهرنا جوهرها، وأخرى قد يسحرنا شكلها وتريعنا حقيقة لبها، فحقيقة الأشياء لا تخالف حقيقة البشر.

واصلت بالرغم من مثابرتي واجتهادي في الكلية التي تميزت فيها بأعلى العلامات وأولى الرتب، واصلت احترام موعدي مع الكتب التي كانت في نظري قلب المكتبة النابض، تبعث فيها الحياة بكل أشكالها وألوانها، ووحدي رأيت هذه الحياة على مر السنوات المتتالية، تماما كما رأيت الموت؛ كان تارة دافعا للحزن والبكاء، وتارة رمزا للشجاعة والحرية، رثاء من شاعر، ورثاء لشاعر، هذا ورأيته بشكل فارق بمقال الأديب أحمد أمين «يوم في القاهرة».

قرأت للأديب المتفرد هذا الحبر الذي تحدث به عن ليلة أطلقت فيها صافرة الإنذار إذعانا بهجوم عسكري على القاهرة، طالعت وصفه لحاله ولحال المصريين في تلك الساعات المنذرة بالموت غير الرحيم، فلما انقضت تلك الليلاء وبزغت شمس الأفق أخبرني أنه استقل القطار ثم راح يقضي زمن الرحلة بالحديث الممل عما عايشوه جميعا.

استوقفني نصه عند باب من أبواب الذاكرة فقد عاد بي إلى ليالي العشرية السوداء التي عايشتها في طفولتي، جرح وفصل مظلم في حياتي وحياة الجزائريين جميعا، عاد بي نصه إلى تلك الليالي التي كان يطرق البسطاء فيها باب دار الستة ليحتموا بأسوارها العالية من الموت القادم إلينا، وكنت حينها صغيرة السن، يتلألأ بعيني بريق السنوات الخمس تارة، ثم تخفيه دموع البراءة والخوف تارة أخرى.

تداعت الذكريات في ذهني فلزمت السكون زمنا ثم عاودت قراءة نصه مرة أخرى، فلما بلغت نهايته مرة ثانية ولدت هذه الرسالة:

حضرة المعلم أحمد أمين

إي والله يا سيدي، قد صدقت فحديثك ممل ولكن على مسمع الذي لم يعرف صافرة الموت، وآه يا سيدي، حديثك عن «يوم في القاهرة» يذكرني بيوم في الجزائر كنت وأسرتي وأحبائي مجتمعين فيه بين أسوار دار الستة، نعرف أن الموت سارقنا ونجهل إن كان قادما من الشرق أو الغرب، مقبلا من الشمال أو الجنوب، نازلا من عل أو قابعا بيننا في صمت.

السائل والمجيب، الباكي والباسم، المتحدث والصامت، الخائف والشجاع، النائم واليقظ، المتفائل والمتشائم، الجالس والقائم هم آل لوحة احتفظت بها أعواما طوالا واسترجعتها كلما تذكرت ذلك العهد ولكني ولسبب أجهله لم أصفها يوما، فلما وصفت آل «يوم في القاهرة» وجدت فيه وصفا لنا أيضا، وقد كنت من الصدق والدقة إلى حد حسبت أنك تصف لوحتنا وأنك كنت جزءا منها، ولكنها أيامنا وأيامكم المتشابهة إلى حد التطابق، هكذا كانت وهكذا ستظل ومهما قست فهي تشعرنا بالتآزر.

صادقة في الجزائر

فتح نص أحمد أمين بابا مقفلا على ذكريات قاسية لطالما عذبني اتخاذها لأعماقي بيتا، فوصفه لتلك الأيام الحزينة المطابقة وجوه من عايشوها لوجوه الناس الذين عايشوا عشريتنا ساعدني على التخفيف من وجع ذكراها، لكأن الحديث عنها بلسم وضع على جرح قاطن بأعماقي.

أخفيت الرسالة وأعدت ترتيب الأقلام، ثم نظرت إلى رفوف المكتبة فخطر على بالي فجأة أني قد طالعت قرابة نصف كتبها خلال سنواتي التسعة عشر، دنوت منها ثم قلت للكتب التي لم أطالعها بعد أني سأقضي التسعة عشر عاما

القادمة بين سطورها وصفحاتها، وليس يبدو لي هذا بالزمن الطويل فالذي تحمله بين طياتها يستحق.

غادرت المكتبة ثم توجهت إلى غرفتي، أنجزت بحوثي الجامعية كلها وراجعت دروسي ثم تمددت على تختي وغفوت بسرعة وباطمئنان كأن ليس بانتظاري هم، كأن الغد مشرق دافئ عطر، كأن الحياة لن تشير إلي بيدها الظالمة ما حييت.

أفقت في صباح اليوم الموالي باكرا وتوجهت إلى الكلية، جلست في الصف الأول رفقة زملائي ثم صوبت بصري نحو الأمام، تابعت وهم كل ما قاله الأستاذ ودونت مثلهم كل ما أملاه علينا فلما أنهى هذا الفاضل الموضوع الذي كنا بصدد مناقشته غادر القاعة.

رحنا نتحادث ريثما تنطلق المحاضرة الثانية، وهنا أخبرنا أحد زملائي فيما أخبرنا به أنه قد حظي بفرصة السفر إلى كثير من البلدان لأن أسرته الثرية تهوى الأسفار، سألته دونما تردد عما إذا كان قد زار بلد الأهرام فقال أنه فعل مذ أقل من السنتين، طلبت إليه بفضول أن يحدثني عن مصر وعن الأيام التي قضاها فيها فكلمني عن جمال المواقع السياحية، عن فخامة الفنادق ذوات النجوم الخمس، عن سحر شواطئ شرم الشيخ، عن الأطباق الفاخرة العالمية، وعن حفلات الغناء في أرقى الصالونات بحضور ألمع النجوم العرب، ثم وعدني بإحضار الصور التي التقطها.

مع أني ابتسمت لحديثه إلا أن شيئا من الخيبة تملكني، هذا لأني وددت سماعه يحكي عن أرض مصر كلها، السياحية والفخمة والفاخرة فالشعبية المليئة بتلك البيوت البسيطة العطرة برائحة الرغيف الساخن وفناجين الشاي، تلك التي روى الكتاب والأدباء عن أبنائها الطيبين الصامدين في وجه الشقاء والفقر ورذائل الحياة، المتمسكين بالدين والضاد والمبادئ وقيم الإنسان لأخيه

الإنسان، أبنائها الراوين بعيونهم حكايا كتلك التي تقصها عيون جلنا، أفليس البسطاء أغلب آل مصر والجزائر؟

وددت سماعه يحكي عن همس النيل بأذنه لما اختلى به، وعن اللحظة التي استوقف نفسه فيها ليتأمل رقصة التنورة متسائلا أدواره من سعادة أم من هم، عما خالجه وهو يتذوق صحن الطعمية الذي تقدسه الموائد البسيطة، عما تحرك بداخله وهو يقرأ لافتة كتب عليها القاهرة وأخرى تحمل الاسكندرية وثالثة تشير إلى الطريق نحو الصعيد، وددت سماعه يحكي عن نسيم الفجر الذي داعب وجهه وهو يصغي إلى صوت الآذان القادم من مسجد عمرو بن العاص، أو إلى ريح الجنوب التي لاعبت خصلات شعره وهو يستمع إلى أجراس كنيسة مارجرجس.

شعرت لأول مرة بالاختلاف بين رؤياه التي أحبها كل زملائي ورؤياي، فقد انطلق الباقون في حديث جميل عما يعرفونه عن السياحة والرفاهية في مصر بينما لزمت أنا الصمت، تكلمو عن مصر التي رأوها بعيونهم وعدلت عن ذكر مصر التي رأيتها في الكتب، أشاروا إلى أرضها التي يرغبون بزيارتها للسياحة فكتمت زيارات فكري وقلبي لكل مدنها وقراها، ابتسموا ولمعت عيوني، ثم توادعنا، عادوا إلى بيوتهم ونسوا حديثنا، أما أنا فعدت إلى بيت يقطن سفراء مصر إحدى حجره.

أجل، شعرت لأول مرة بالاختلاف بين الرؤى غير أني لم أحاول إعطاء الاختلاف وصفا أو تأملا فقد حسبته أمرا عاديا، ما أدركت يومها أن الاختلاف أحيانا هو الحمل الملقى على عاتقنا، والامتحان الأصعب في حياتنا، والنقطة التي لا رجوع لنا من بعدها إلى الحال التي كنا عليها من قبلها.

أتصور بعضكم يعاتبني بسبب المبالغة التي يلمسها في حديثي، فلو أنكم تعلمون أيها العاتبون ما سيكون من أمر الأيام التي ستتوالى لعلمتم أني أبعد ما

أكون عن المبالغة، وأتصور بعضكم الآخر لا يعير حديثي انتباها، فلو تدرون أيها الغافلون ما سيحمله الزمن القريب لاستوقفتم عند حديثي بحمحمة وتنهد، ولكني على يقين بأن انفعالاتكم كلها من نسج مخيلتي التي تريد لي برهة أختلس فيها نفسا عميقا قبل أن أعود بكم إلى ذاك المساء الذي قرأت فيه «الأربعون».

هي الخاطرة الأحب إلي، ومشاطرة الخواطر في نظري تقرب الإنسان من الإنسان وتساعده على التخفيف من ثقل الحمل الموضوع على عاتقه سواء كان هذا الحمل الماضي وما كرت به أيامه، أو المستقبل بمجهوله المخيف.

لقد شاطرني الكاتب المنفلوطي خاطرته الأربعين فشاطرته خاطرتي وأنا أسارع الريح نحو العشرين:

حضرة المعلم مصطفى لطفي المنفلوطي

إنك تودع يا سيدي ما أستقبله للتو فأنت وبلوغك الأربعين تقف على قمة الهرم لتنظر إلى شبابك الماضي، أما أنا فأهيئ نفسي لاستقبال العشرين، أحاول استراق نظرة فلا أرى سوى الأماني.

أريد يا سيدي أن أقف يوما على قمة الأربعين لأنظر إلى ما صنعته بعهد الشباب، أريد أن أرى طالبة قد أنهت دراستها الجامعية بتتويج لا يقل عن المرتبة الأولى، وبشهادة فخرية لاستحقاقها هذا التتويج، أريد أن أرى محامية قد تفوقت في واجبها، ولا أعني بالتفوق ذاك الذكاء الذي يحظى به المرء فيخط له دربا أعظم من دروب الآخرين، إنما أعني به عملا لا مكان لكيد الشيطان فيه لأنه خال من الرشوة والربا والغش والتحايل على حق مظلوم بسيط لنصرة ظالم غني فإهدار الحقوق قد هد شعوبا وأوطانا، أريد أن أشهد سعادة والدي باقتناء كل ما تعلقت به

عيناهما فحرمتهما البساطة من لمسه، أريد أن أحيا غبطة رفع علم الدار مرة أخرى واستقبال الأشبال والعمال والزوار مرة تدوم أبدا، وأن استشعر فخري بإعادة جعل هذه المكتبة قبلة للقراء كأنها سفارة مصرية مميزة، فيها بدل السفير الواحد سفراء كثر، أريد وردا وشجر توت أبيض وطيري المسالم.

أتمنى وأتمنى وإني لأجهل إن كنت سأقف يوما على قمة هذا الهرم لأنعي شبابي، أم أن الهرم سيشهد نعيي وهذا الشباب في آن واحد.

صادقة في الجزائر

وقعت هذه الرسالة بقلم الحبر الأسود الذي كنت أهواه وقلم الرصاص كثيرا، فأنا لا أتذكر رسالة كتبتها بغير أحدهما، عشقت منذ صغري ملامستهما للورق والتي طالما بدت لي كحط الفراش على بتلات الورد، كنت أملك عددا كبيرا منهما، بعض أتركه فوق الطاولة وبعض أضعه في درجها، حرصت دوما على ألا أقسو عليهما حين أخط بهما رسائلي، لا بل كنت ممتنة لإخلاصهما فهما لم يخطئا عمدا أو سهوا في خط ما كلفتهما بتدوينه.

ولكني أخلفت طبعي فكسرت رأس قلم الرصاص حين كتبت رسالة إلى الأديب أحمد أمين، وأعترف أني ما تعمدت كسره ولكن عاطفة جياشة انتابتني لما قرأت نقد الأديب لبعض سبل التعليم في مصر:

حضرة المعلم أحمد أمين

يا من أثريت الأدب بفيض الخواطر، قرأت هذه الأمسية نصك ‹سيدنا› الذي تحدثت فيه بشيء من الألم وبشيء من الغضب عن السبل الجديدة التي تنتهجها رياض الأطفال في التعليم والتربية،

وإنك يا سيدي تحسب أن مناهج الرياض لينة مقارنة بالكتاب الذي تمدرست وأترابك فيه، ثم إنك تخشى على هذا الجيل من اللين لأن الحياة صلبة كثيرة العقبات.

أما أنا فأستسمحك لأحدثك بكثير من الألم وبكثير من الغضب عن السبل التي تنتهجها بعض من الرياض التي أعرف؛ إنها تعمد إلى تكليمهم باللغات اللاتينية وتحبيبها إليهم وتعلمهم من أدبها وأشعارها وألحانها لا بل إن بعضها قد بلغ حد النهي عن الحديث بلغة الضاد، وإني أرى هؤلاء الأطفال يتحدثون هذه اللغات الأجنبية بطلاقة ويتلعثمون عند الحديث بلغتنا حتى يبدون كأجانب عنها وعنا، ثم إنهم يشبون فلا يدرون أولاؤهم للأرض التي أنجبتهم أم للأرض التي يحملون من لغتها وثقافتها ومبادئها وأفكارها ومذاهبها وطريقة أكلها وشربها ولبسها واحتفالها.

إني لا أعرف ما العمل لتغيير مناهج هذه الرياض ولا أملك سوى أن أقول «يا ليت اللين الذي أشرت إليه يسود بدل أفراد أجانب الفكر والهوى».

صادقة في الجزائر

شعر القلم بحزني وغضبي فلم يتأوه لما انكسر ولكنه ود في قرارته لو أن الكسر والغضب لا يذهبان سدى بل يكشفان للدنيا رأيي وعاطفتي عسى أن يبدلا شيئا من حقيقة ذلك التعليم، ولكني أخفيت هذه الرسالة وكل ما قدمته لها هو ذات الفخر الذي حملته في أعماقي لسابقاتها.

أجل، كنت أفخر بها سرا فأنا لم أسأل علنا عما أشعر به نحوها، ومن ذا الذي سيسأل عن الذي لا يعلم بوجوده، لم أسأل فلم أجهر بفخري بها، جميعها، فقد كانت كياني المستقل، شخصيتي المتفردة، كانت أثري على

مروري بالدنيا فكرا وقلبا حرين، لا تابعين ولا متبوعين، لا ملكين ولا مملوكين، كان هذا شعوري نحوها جميعها عدا واحدة فقط.

هي الرسالة الوحيدة التي ترددت كثيرا قبل أن أمد يدي إلى القلم لأخطها ولم أك من قبلها قد ترددت في الكتابة، هي الوحيدة التي لم تحمل مني رأيا ولا عاطفة لكأنها رسالة بحبر تائه ضائع، خطتها يدي حين قرأت ما حفظه حبر المصلح المنفلوطي من أسباب دفعت به إلى إبعاد قلمه عن السياسة:

حضرة المعلم مصطفى لطفي المنفلوطي

إن الأسباب التي دفعت بك يا سيدي لألا تكثر من الكتابة في السياسة هي الأسباب التي تدفع بي للقول ليتك كتبت فيها كثيرا.

فيا صاحب النظرات، لست أعرف عن السياسة شيئا عدا اسمها السلس، ولست أعرف عن آلها شيئا سوى وجوههم الدائمة الابتسام وثيابهم الأنيقة ومواكبهم الفخمة، لقد نال مظهرهم إعجاب الناس وصفق لخطاباتهم وهلل لها حتى التعب فلم أحاول يوما أن أكون رقيبا عليهم ولا محاسبا لأفعالهم وأقوالهم، فقد كنت أثق بهم تلك الثقة التي يضعها الطفل البريء في غريب لا لشيء إلا لأن الغريب ابتسم في وجهه ثم أضحكه بحركة بهلوانية.

أما وقد تحدثت عن القسوة في قلوب أغلب آلها والغدر الساري في عروقهم والشر المنبثق من أعماقهم فقد أضحيت أتوق لمعرفة حقيقتها وكشف أسرارها كلها، لكن أنى لي أن أبلغ مرادي وأهل القلم يرفضون الكتابة عنها للدنس الموجود فيها، ثم كيف سأحمي وطني وأمتي ونفسي منها يوم تكشر لنا عن أنيابها؟

صادقة في الجزائر

ما السياسة؟ نازعني هذا السؤال الذي ما وجد له بين أسطر المنفلوطي جوابا، فتمتمت والليل يشارف بلوغ منتصفه أني سألقي به في التجاهل فلا ضير من ألا ألمس جوابا واحدا ولا سوءا في بقاء شيء ضئيل من الجهل بنفسي، وحقا فعلت، رميت به في أحضان التجاهل مع أنه حل الجبناء إذا ما صادفوا الغامض الموحش.

وقعت هذه الرسالة التي لم تحمل مني فكرة وعاطفة انما حملت ضياعا شديدا، وضعتها بهدوء في العتمة، أعدت ترتيب الأقلام والورق ثم هممت بمغادرة المكتبة، وما إن مددت يدي لإطفاء نور مصباحها حتى دقت الساعة مؤذنة ببداية يوم جديد ومعلنة بلوغي العشرين عاما.

«كيف مرت السنوات دون أن أشعر؟ لم السرعة في انقضاء العمر؟»، راودني هذان السؤالان وأنا أنظر إلى الرقاص المستمر في المضي قدما، أطفأت النور ثم فارقت مكتبتي وسرت تحت ضوء القمر نحو غرفتي وكانت تلك المرة الأولى التي أغادر فيها المكتبة ليلا.

تمددت على تختي ما إن بلغت حجرتي، لا نور يضيء أرجاءها ولا رنة تقطع الصمت القابع فيها، حاولت النوم غير أني عجزت فقد راودني زمن طفولتي ومراهقتي وبداية شبابي الذي عثرت فيه على أمرين فارقين؛ دار هوت في صباح واحد، بأمر واحد لرجل واحد، فكتب مصرية ورسائل جزائرية بمكتبة مهجورة.

تمتمت على مسمع النجم قائلة: «قد قيل طيلة هذا الزمن الذي هو كل عمري، قيل عن تعلقي بالمطالعة هواية لن تدوم، وأنها طبع مراهقة لابد أن يزول، أما عن الأمسيات التي قضيتها في المكتبة فزمن مهدر وكذلك الجهد، قيل عني الكثير بأفواه هؤلاء الذين ما زاروا المكتبة البسيطة يوما، غير أن ما يتداول عني خفية وجهرا حديث لا يصفني ولو قليلا لأنه خال من ذكر مصر.

إن الإعتقاد بأن الصدفة هي ما جمعني بها أو أن الألفة هي ما شدني إلى كتبها سنينا وسنينا اعتقاد خاطئ وزيف، فالذي بيننا هو عشرون عاما في بيت واحد، عشرون عاما تشاطرت فيها وأبناءها الأفكار والعواطف والأحلام والآمال فأضحى الذي يجمعنا أصلب وأعمق، أضحى جزءا من نشأتي، جزءا كإشراق الشمس وكاكتمال البدر».

وفي وحدتي والسكون تذكرت البسطاء الجزائريين الذين ما عاد في وسعهم اللجوء إلى بيتي، وتذكرت البسطاء المصريين الذين قطعت على نفسي وعدا ذات يوم بأن يخفق قلبي لهم دوما، وسألت النجم أن لم عادت بي الذكرى إليهم، ألأننا جميعا نحمل في أعماقنا جرحا موجعا، ونرجو ونحن المستضعفون أن تمد لنا يد أملا، ونحن وبالرغم من كل هذا نرضى أن نكون مظلومين لا ظالمين، موجوعين لا موجعين، مجاريح لا جارحين.

وقبل أن أجد جوابا في تلك العتمة غفوت ولم أشعر بعدها بالدنيا من حولي، ولا بالعمر الذي يمضي بمشيئة القدر، وشاء قدري أن تنقضي العشرون الأولى من عمري والعشرون الأولى فصل غريب دوما عما يليه من فصول العمر...

الفصل الثالث

أيتغير المرء لدى انقضاء هذا الفصل حتى يمسي غريبا عن أهله أو عن نفسه؟ مطلقا، فالذي تشيده سنوات العمر الأولى في فكر المرء وفؤاده عميق وصلب، كثر ما يستحيل اقتلاعه وهده، إنما هي الحياة ما يتغير بانقضائه لأن لحظة طي هذا الفصل هي اللحظة التي تغرز فيها مخالبها وأنيابها بكياننا، تغرز مخالبها وأنيابها بوحشية لا تضاهيها فيها الوحوش.

لا، لا يخدعنكم قولي هذا فتحسبوا أني غافلة عما تصنعه الحياة الظالمة أثناء عهد العشرين الأولى، فأنا مثلكم عليمة بأنها لا تخفي عنا قبحا، ولا تقصي من أيامنا حزنا، ولا أحب إليها شيء من أن تزيد على جراحنا جراحا، ولكنها ألقاب ذا الفصل الغريب ما يمنع الحياة من أن تكون غاية في الوحشية، هذا لأنها تهبنا حماة هم كالدرع الذي لا يمنع الضربات الموجعات والقاضيات بيد أنه يخفف من شدتها.

لقد ولدنا فلقبنا رضعا، ثم لقبنا فطما وصبية، مراهقين وقصرا، ولم يجمع ألقابنا الكثيرة شيء سوى عجزنا عن إدراك خطوب الحياة حق الإدراك، وعجزنا عن الوقوف في مواجهتها بغير الدموع التي نذرفها والأحلام التي نتمنى تحققها، وبسبب هذا العجز القاتل كان لنا أثناء حملنا لهذه الألقاب كلها ولي أو وصي أو قاض يقف كالدرع بين الحياة الظالمة وبيننا ليتولى المواجهة عنا ثم يسعى لئلا يصيبنا الأذى كله.

لكن ببلوغنا العشرين عاما يسقط آخر هذه الألقاب التي ما بعدها ألقاب فيجذب أصحاب الأثواب التي عودنا التشبث بها أثوابهم حتى نشعر بانسحابهم وحتى نستشعر أن الخطأ الآن يكمن في توليهم مسؤولياتنا بدلا عنا وقد بلغنا من العمر ما يمكننا من الإدراك والمواجهة.

لا قرار لنا عند انسحابهم، لا عذر لاستبقائهم، بصمت نقبل وداعهم راضين

أو متظاهرين بالرضا، ثم نضحي متأهبين أو متظاهرين بالتأهب، نضحي في كلا الحالين مسؤولين في حرب الحياة، والمسؤول في حرب الحياة زعيم نفسه، زاده علمه، انهياره بأولى مواجهاتها قد يودي به إلى درب الهلاك، فإن هو استطاع اجتيازها بثبات سواء انتصر أو انهزم، اشتد واستطاع الحياة.

لا أعرف بما استهلت الحياة حربها ضدكم، وأي مواجهة كانت الأولى بعد انقضاء فصلكم الغريب، فإما أنكم تطلقون الآن زفيرا وجعا لأني ذكرتكم بجرح لا يزال يدمي في داخلكم، وإما أنكم تنعتونني بالمتوهم قبل أن تتمتموا قائلين بأن ما حظيتم به في ذلك العهد قد كان أجمل ما في العمر، وها أنا كما سبق وفعلت أتصور أفعالكم وأقوالكم المختلفة والمتضاربة لآخذ نفسا عميقا، فأنا آخذ دوما نفسا قبل أن أخبر دربا أو يما أو نجما أو القمر أن الحياة وضعتني يوم بلغت العشرين في مواجهة مصر.

ذا الدمع دمعي، ينهمر مبللا خدي وورقي، يستحيل أن أحبسه وصعب علي أن أكفكفه فلا تغضبوا لأنه قطع حديثي إليكم، ثم تذكروه، لأنكم ستوقنون إذا ما عرفتموه أنه من أقسى ما ذرفته العيون، ذا الدمع دمعي، ينهمر وأنا أتمنى لو يعود الزمن أدراجه إلى اللحظة التي فارقت فيها العشرين الأولى لتختار لي الحياة مواجهة أخرى، وسأرضى بالذي تختاره ولئن كان الموت، لكن يستحيل على الزمن العودة إلى ما مضى، تماما كما يستحيل على الرميم أن يعود جسدا متكلما، فكفاني، كفاني تمنيا للذي لن يحدث حتى أقلب على مرآكم أوجاع ذي المواجهة.

ببلوغي العشرين عاما سقط آخر ألقابي وأضحيت شابة مسؤولة تطلبها الحياة لتتجرع مرارتها حتى السقم أو حتى الموت، ومع أني عزمت بادئ الأمر على قضاء الأمسيات في قراءة الكتب وكتابة الرسائل كما تعودت مذ طفولتي ومراهقتي فبداية فتوتي، إلا أني شعرت بأن الوقت قد آن لأمضي زمنا أطول

خارج جدران المكتبة الضيقة، خارج حجرة أسرتي البسيطة، خارج سور دار الستة العالي، فقد كانت الحياة بانتظاري ولم يك في وسعي تأجيل اللقاء.

هذا وكانت الحياة منتظري شاسعة كما تصورت وشاسعة كما لم أتصور؛ كانت تحمل كل الأضداد في الأفكار والعواطف وكل الأضداد في الأفعال والأقوال، كان فيها دوافع هذه الأضداد جميعا؛ الحقيقية والوهمية، الصائبة والخاطئة، المؤقتة والأبدية، وكان فيها أتباعها القوي والضعيف، الصادق والمنافق، الظاهر والمتخفي، هذا وكان بها دروبها الشرعية والمحرمة وكذا عواقبهما الدنيوية.

كانت الحياة التي لم أتصورها أشسع وأشرس بكثير من الحياة التي تصورت، وكنت وبالرغم من ذلك مصممة على الانتصار فيها وعليها وعلى البقاء منتصبة ما حييت... أو هكذا ظننت.

لربما تعيبون علي قسوتي في وصف الحياة وتشاؤمي مما تحمل وتخفي، ولن أستوقف نفسي لأجادلكم فيما تعيبون علي به بل سأكمل سرد روايتي بالحديث عن خيوط الشمس الذهبية التي تسللت إلى غرفتي وداعبت أجفاني فأيقظتني من النوم وأيقظت من أعماقي الحلم الذي سكن فؤادي وفكري مذ طفولتي، الحلم السر الذي ما تنازلت عنه يوما وما تمنيت غيره مذ تعلمت التمني.

قمت من تختي وفتحت بلور نافذتي، أخذت نفسا عميقا ثم نظرت إلى الأفق فغازلني مرأى اليم المختلس للون السماء والمتزين بشعاع الشمس الذي بدا كجواهر منثورة على سطحه، راودني أن موجه المتلألئ يمسح على شواطئ الجزائر ثم يرحل ليلامس شواطئ مصر ثم يعود ثم يرتحل ولا يخبر غير الأصداف بأسرار ما رآه وسمعه.

أغمضت عيني وذكرت نفسي بأني قد بلغت للتو العشرين عاما، وأني بذلك شابة يأخذ قولي وفعلي على محمل الجد، أني شابة حرة الاختيار والقرار، شابة قادرة على تحقيق الحلم الذي يسكن فؤادي وفكري والذي حال من قبل صغر سني دون بلوغه، ابتسمت ثم نظرت إلى اليم مرة أخرى وخاطبته بصوت عال قائلة: «أيم، لست الموج المتجه صوب مصر ولكني راكب الموج».

لزم اليم الصمت ولم يسأل قلبي وفكري عما كانا يرجوانه من لقاء مصر فقد أدرك اليم الحكيم أني لم أك سياسيا يود قضاء مصلحة أو رجل أعمال يفتش عن صفقة مربحة، أدرك أني لم أك صحفيا يرغب في موضوع لتحرير مقال أو طالبا يرمي إلى الحصول على شهادة، لم أك رياضيا يسعى وراء لقب أو سائحا يطلب الراحة وكذا أخذ صور تذكارية، لا كنت شاعرا يسأل إلهاما من أجل قصيدتي رثاء وحب ولا مطربا يبتغي لحنا شديا، أيقن اليم ما إن بلغته صرختي أن ما أرجوه من اللقاء فارق، فقد كنت شابة جزائرية، بين مصر وبينها عشرون عاما بكل ما تحمله العشرون، لهذا كله ولهذا فقط كنت أرجو من اللقاء اللقاء.

شعرت وأنا أخبر اليم بوجهتي أني أحيا لأول مرة حدثا مميزا خاصا بي، اعتلت وجهي البشاشة وبدا لناظري أن لونه كلون السماء قد ازداد زرقة، ثم استنشقت مرة ثانية نسيم الصباح فكان من بين نسائم الأرض أكثر نسيم شرح للصدر، فطنت لحظتها إلى أن الطبيعة لم تتزين، إنما هي السعادة، زارتني بعد فراق دام سنينا.

كانت زيارة مصر حلم طفولتي ومراهقتي وبداية شبابي، ولكن العارف بالذي كان بين هذا البلد الشقيق وبيني يستطيع الجزم بأنه لم يك مجرد حلم بل قدرا لا يقبل التبديل، فلا تجمع عشرون عاما بين عربي وبلد عربي إلا وكان قدرهما اللقاء.

غادرت بيتي متجهة صوب الكلية وفكرت أثناء الدرب المؤدي إليها بمصر، لم أسأل في نفسي عن المكان الذي سأحط رحالي فيه، فسواء كان القاهرة أو الجيزة أو الإسكندرية أو طابا أو اسيوط لأن القلب يهوى مصر كلها، على أني تساءلت عن الموعد الذي سأختاره لرحلتي، ولأني أهوى فصل الشتاء لقدرته الساحرة على مداعبة عواطفي بالزخات وهزها بالرياح، ولأني أعشق الشد على وشاحي والاختباء تحت مطريتي، ولأني أهيم بريح التراب المبلل وبلون البرد الأبيض، فقد آثرت السفر إليها أثناء العطلة الشتوية.

بلغت الكلية بعد ساعة من الزمن، وفي أولى حصصها رفعت على مسمع زملائي بحثا كنت قد حظرته واجتهدت في دراسة كل جوانبه مدة لا تقل عن الأسبوع، فلما انتهيت إلى نقطة ختامه أثنى الأستاذ على مثابرتي وفصاحتي ثم وهبني العلامة الكاملة.

حين دقت ساعة انتهاء الدرس هممت بمغادرة القاعة للالتحاق بقاعة درس أخرى، لكن إحدى زميلاتي استوقفتني قائلة أني أبدوا أكثر نشاطا وحيوية عن الذي عهدتني عليه ثم سألتني عن السبب فأخبرتها دون تردد عن رغبتي في السفر إلى مصر وكانت تلك المرة الأولى التي أفصح فيها عن حلمي.

قالت أن رحلة لا تبعث كل هذا النشاط والحيوية والطاقة الإيجابية التي شعر بها كل طالب في القاعة إلا إذا كانت رحلة لبلد يعني الكثير، ابتسمت ثم هززت رأسي لأبدي موافقتي، سألتني عن السبب الذي يجعل هذه الرحلة مميزة كل هذا التميز وقبل أن أكلمها عن المكتبة ضربت كفيها وصرخت قائلة أنها قد اكتشفت سري وأن مصر بلد أحد والدي.

لزمت الصمت للحظات ثم قلت في نفسي: «أجل... أجل، ليست مصر ببلد كلا والدي ولا أحدهما ولكن في حناياي لها ذات ما في حناياي للجزائر، أخشى عليها كل ما أخشى على وطني منه، وأتمنى لها كل الذي أتمناه له،

الضاد والدين بأرضها وأرضه وسمائها وسمائه ويمها ويمه، لا اختلفت آلامها ولا آمالها ولا أحلامها التي أنا عليمة بها عن آلامه وآماله وأحلامه التي أحياها فيه، ماضيهما جبار، والغد إن جار فهو يعلم أن لهما التاريخ الموحد، وأنهما لبعضهما السند، أجل، ذا بلدي الذي تعجز المعجزات عن التفريق بيني وبينه».

لم أفصح لزميلتي عن هذا الكلام الذي فاض فجأة في أعماقي، فقد كنت أكيدة أنها ستسخر مني قائلة أن بلدك هو ما تحمله بطاقتك وكفى، وأنت لن تكوني سوى سائحا في مصر، زائرا عابرا، ومهما بدا هذا التصور صحيحا، فقد كان أمام القومية العربية والسنوات العشرين التي جمعتنا خاطئا، فلا مصر كانت بلدا لزيارة عابرة، ولا أنا كنت زائرا عابرا.

غادرت الكلية بعد آخر محاضرة بخطى سريعة ومتباطئة، منتظمة وعشوائية ولكأنني راقص هاو على الأرصفة، ابتسمت بوجه كل طفل صادفته وقطفت من أمام إحدى البيوت زهرة زينت بها شعري مع أني علمت أنه فعل خاطئ، فلما بلغت البيت وجلست رفقة والدي لتناول الطعام كشفت لهما عن رغبتي في السفر فوافقا دون مماطلة ودون طرح سؤال واحد إلى حد شعرت فيه أن العشرين جميلة الوقع على النفوس المتعبة الواقع.

لم يك والداي ذا تعليم عال ولا حتى متوسط فبالكاد كانا قادرين على القراءة والكتابة غير أنهما قد كانا أكثر العارفين بالسنوات التي قضيتها رفقة أبناء هذا البلد، وكانا الوحيدين اللذين لم يعارضا يوما جلوسي في المكتبة المهجورة، فبالرغم من كل ما قيل لهما حول ضرورة تخلي عن هذه العادة إلا أنهما لم يأبها بالذي قيل مطلقا، لا بل كانا أكثر المستمعين إلى قصصي حين كنت طفلة مسحورة بمغامرات أبطال حكاياها الخيالية، وكانا يمنحانني من الاصغاء ما يسعدني أثناء القص ويزيدني رغبة فيه.

استرسل أبي وأمي على الطاولة الخشبية الصغيرة التي تجمعنا كل مساء، استرسلا في حديث طويل عن جمال هذه الرحلة دون أن يشيرا إلى تكاليفها التي لم تكن هينة لأسرة بسيطة الدخل كأسرتي، ولكأنهما علما بسفري حتى قبل أن أعلم وحضرا نفسيهما لهذه اللحظة حتى قبل أن أفعل.

كانت موافقتهما السريعة وغير المشروطة أجمل هدية لعيد ميلادي العشرين، لا بل أجمل هدية في حياتي كلها، شعرت أن الزمن القادم سيحمل لي من الأفراح الكثير وأن سفرتي هذه هي بداية عهد السعادة فتملكني فضول جامح لاكتشاف ما ينتظرني في فصل حياتي المعروف باسم ربيع الفصول...

رحل الربيع دون أن أشعر، وكان الصيف من بعده ضيفا عجولا، مرت أيام الخريف بسرعة كما تعودت أن تفعل، هاجرت الأطيار سربا تلو السرب، تساقطت أوراق الأشجار حتى تجردت منها ثم بدأت حبات المطر في زيارتنا بعد فراق دام أشهرا، فلما شعرت بالشتاء يدق الأجراس حضرت كل ما كان علي تحضيره ثم توجهت لاقتناء تذكرة السفر.

بتلك الزاوية المتواجدة بشارع الجزائر العاصمة الشهير شارع الشهيد العربي بن مهيدي، جلست ثم رحت أتأمل كل أولائك الذين يحجزون تذاكرهم؛ بعضهم للسياحة، بعضهم للعمل، لزيارة قريب أو الاجتماع بصديق، ثم حان دوري، أنا التي أتيت لاقتناء تذكرة اللقاء، ولم أك أعلم كم تذكرة لقاء حجزت قبلي، ولكني أيقنت ما إن حصلت على مبتغاي، ما إن أمسكت تلك الورقة السحرية بيدي، أيقنت أن كل الحواجز قد زالت وليس يحول بين لقائنا شيء عدا الأسابيع الخمس التي سبقت موعد الرحلة الجوية.

كانت التذكرة الأولى، السفرة الأولى، الرحلة الأولى، إلا أني ما شعرت حين لمستها وتحسستها بالتوتر أبدا وكان علي أن أشعر به، فهذا ما يتملك القلب وهو يتهيئ لمغادرته الأولى لأرض وطنه، ولكني كنت أغادر وطنا للقاء وطن،

فلم تتسارع دقات قلبي قلقا، ولم ترتعش يداي خوفا ولم الشد على شفتي اضطرابا.

سرت عائدة إلى البيت وأنا أردد في نفسي «هي أسابيع خمس فقط، هي أسابيع خمس وكفى»، ومع أنه زمن قصير تستطيع أصابع اليد الواحدة عده إلا أني شعرت به زمنا طويلا، وبرقاص لحظاته رقاصا كسولا.

لا أتذكر عدد المرات التي رجوت فيها الرقاص أن يركض لبلوغ الموعد المنتظر، ولكني أتذكر كل لحظات الترقب والانتظار فقد كنت أختلي بنفسي كلما حل الليل، أنظر إلى بطاقتي لحظة ثم أتوه في يم عواطفي وأفكاري...

شعرت والظلام مخيم أن جزء لروايتي سيكتمل عند لقاء مصر، جزء لن يستطيع الاكتمال بعيدا عنها بالرغم من كل ما يجمع بيننا، لا لشيء إلا لأنه مخلوق من طين أبناءها الشرفاء.

كنت أكيدة أني سأنشئ والمصريين رابطا عميقا، وأني سأطيب خاطرا بكل من ألتقي به وسأبقي أثرا طيبا في خاطر كل من يلاقيني، «السلام عليكم»، هي تحية واحدة سنتبادلها بلهجتينا المختلفتين فأكسر أنا اللام بدل فتحها، ويبدلون هم الميم بالواو، ثم سترتسم ابسامة على وجوهنا التعبة كأنها تحية ثانية نخص بها نحن الجزائريون والمصريون بعضنا.

كنت على معرفة بأنهم سيدعونني لبيوتهم وأني سأقبل دون تردد دعواتهم، هكذا بكل عفوية مضيف وضيف، دون مقدمات أو مجاملات، من غير تصنع وتكلف أو شك وتخوف.

على حصير الأرض سنجلس وسيروون لي أخبارهم وسأقص عليهم أخباري، سيفصحون لي عن الذي لم يسبق أن أفصحوا عنه لأحد وسأكشف لهم عن الذي كتمته فلم يعلم به انس من قبل، كأنه موعد لكشف جراحنا ومواجعنا

والقصة التي غيرت مجرى سعادتنا وهنائنا، كأنه موعد لإطلاق صراح الصرخة التي احتبست بداخلنا لأنها ما وجدت من قبل بدا للتحرر، لأنها ما وجدت من قبل ضميرا وقلبا يستمعان ويهرعان لنجدة أو لمواساة صاحبها.

كنت على يقين بأنا سنتجاذب لا محال أطراف الحديث عن بلدينا، وأنا سنبسم ونضحك بفضل هذا الحديث وسنفتخر وسنرسم أحلاما وسننشيد آمالا وسيرى النجم عزيمتنا تقوى ولكنا سنتأوه بسببه وسنبكي لأغلبه، ولن نجد بتلك اللحظات الحزينة سوى منديلا واحدا نكفكف به دموعنا ودعاءا واحدا نتضرع به معا إلى ربنا.

لن نقوم بعدها إلا لنسير جنب الأهرام مرة وعلى ضفاف النيل مرتين، وهناك سيقصون علي شيئا من أساطير القدامى والحضارة الفرعونية، ثم سنعود معا إلى سرد تفاصيل تاريخنا المشترك؛ ثورة النوفمبر التي آمنت بها أرضهم وحرب أكتوبر التي اعتنقتها أرضي، وفي خضم هذا الحديث الجبار سيشيرون إلى شارع الجزائر المتواجد بالقاهرة قائلين هذا شارع الأشقاء.

كنت عليمة بأني سأقضي برفقتهم أياما مميزة في حياتي وأني سأحظى معهم بذكريات هي أجمل الذكريات، وصدقا فكرت في اليوم الذي سأودعهم فيه للعودة إلى جزائري فأدركت فورا الحزن البالغ الذي كان سيلحقه فراقهم بفؤادي، ومع أن التفكير في حزن سيصنعه فراق أشخاص لم نتعرف عليهم بعد يبدو مستحيلا إلا أن حال فؤادي فارق فقد كنت عارفة بهم واحدا واحدا، لا بأسمائهم وملامح وجوههم، بل بأفكارهم وعواطفهم وجراحهم وأحلامهم وآمالهم، وشتان بين امرئ نحفظ اسمه وملامحه ونجهل كل شيء عداهما عنه، وآخر لا نعرف اللقب الذي يطلق عليه ولا الشكل الذي يميزه عن غيره ولكننا نعرف ما مر عليه وما يمر به، ونعرف كل ما ينبض في داخله ويجول بخاطره، وكل ما يسعى إليه ويصلي من أجله.

سأجلس، قلت للنجم مرارا، سأجلس بإحدى مطاعم خان الخليلي وسأطلب صحنا من الفول وآخر من الكشري، بعضا من الطعمية وقطعة من الرغيف وستروي لي هذه المائدة قصص البسطاء الذين يلتفون حولها كل يوم، لا يملكون ثمن مائدة غيرها، ويرضون بها لأنها صحن ورغيف حلال، لأنها عرق اليد المصرية النظيفة، ثم سأبحث، خاطبت النجم مرة أخرى، سأبحث عن مقهى الفيشاوي لأرتشف شايا به عبق الأمسيات المصرية العريقة، ولأستمع إلى عود يضرب على أوتار الأصالة والطرب لحن «فكروني» للسيدة أم كلثوم.

وتمنيت والليل يستمع، تمنيت أن أجد بأرض الكنانة من يرشدني إلى بيت الأديبين طه حسين والمنفلوطي وغيرهما من السفراء فقد كنت متحمسة لرؤية زاوية خطوا فيها أفكارهم وعواطفهم، مقهى ارتشفوا فيه القهوة بصمت والإلهام يخالجهم، أو مقعد حديقة اشتهروا بجبهم الإختلاء به قبيل المغيب، ففي إحدى هذه الأماكن دونوا لي موروثا ثمينا.

هذا وقد كنت متشوقة أشد الشوق لزيارة دور النشر المصرية الكثيرة التي أرسلت مذ عقود بالكتب عربون حب إلينا، كنت سأحمل إليها الشكر الجزيل وكنت لأطمئنها بأن كتبها الأولى لاتزال في أيد أمينة، هذا وعزمت على اقتناء ورق أبيض وقلم حبر أو رصاص من إحدى المكتبات المصرية فقد كنت عليمة بأني سأكتب في مصر رسائل كثيرة، لا بل وشعرت أني قد أكتب لأول مرة شعرا.

كنت أتوه في يم عواطفي وأفكاري حتى يسرقني النوم، فلما يرحل الليل بمقدم الصبح أستفيق، ثم أستشيط نشاطا وكأني فتاة غير الفتاة التي تسكن بالليل، كنت أستشيط نشاطا ولا أنفك أحدث والدي وكل زائر لبيتي من أقارب وجيران، زملائي في كلية القانون ومعارفي بكل مكان عن سفري...

أخبرتهم عن الجولات التي سأقوم بها في مصر؛ عن زيارة الجامع الأزهر

الشريف، مسجد السلطان حسن ومسجد ابن طولون، كنيسة السيدة العذراء وكنيسة القديس جورج، عما سأراه بالمتحف المصري فقلعة صلاح الدين الأيوبي، عن النيل الذي سأركب قاربه وأهرام الجيزة التي سألمس بيدي، عن حارة اليهود التي سأتجول بكل زواياها فالحسين فشارع بور السعيد، عن الثوب التقليدي الذي سأقتنيه وكذلك الحلي، حتى أني كلمتهم عن الطعمية والكشري اللذين سأتذوق طعمهما للمرة الأولى.

ووعدتهم قبل أن يطلبوا بجلب هدايا تذكارية لهم جميعا، وأعلمتهم دون أن يسألوا أني لا أحتاج إلى التعريف بنفسي في مطار القاهرة لأن مصر تعرفني، وأني لن أحمل جواز سفري معي إلا تجنبا لغيرة غيري من المسافرين.

كنت أتحدث اللهجة المصرية وأخلق بها جوا جميلا يحمل عبق مصر، وكنت أخطئ كثيرا فأضحك كثيرا ثم أعاود الكرة فأعاود الخطأ والضحك، هذا وقد كنت أغني الألحان المصرية مع أني لا أجيد الغناء، وأقتبس من الأفلام المصرية أدوارا أقلدها مع أني لا أحسن التمثيل، كانت سعادتي باللقاء أكبر من قدرتي على الكتمان فرحت أفصح عنها بكل طريقة تعبير عرفتها وبكل طريقة تعبير اكتشفتها.

أما المكتبة فكانت أكثر ما شعر بسعادتي؛ قد كنت أجلس بها ثم أقول للكتب مرارا أني ولوحدي ذاهبة للقاء الأم التي أنجبتها وكتابها ودور نشرها، وكنت أشعر بالسعادة تغمر الكتب وبالحنين أيضا، فأمد يدي وأمسح برفق عليها، أطلب إليها أن تكتم سري ثم أتمتم بصوت خفيض لا يكاد يكون مسموعا قائلة أني لن أحمل معي أثناء السفر زادا ولا ثيابا وأني لن أشعر بالوحدة مطلقا فمصر تطعم وتكسي وتؤنس.

لم أدرك آنذاك أني قد بدأت فصلا جديدا في هذه الحياة المتوحشة، فصل يشاركني سطوره وفواصله ونقاطه ملايين البشر، لم أدرك أن الآخرين، بكل

الأضداد التي يعتنقونها، يشاركونني عنوة بعد العشرين علاقتنا؛ الجزائر ومصر وأنا، لم أدرك أن في نفوس شركائي مبتغى وأن كثيرا منهم لا هم لهم سوى بلوغ مبتغاهم حتى لو كسروني في طريقهم إليه وطالت أذيتهم البلدين معا.

لم أك بتلك اللحظات السعيدة قادرة على تمييز صوت الحياة يهمس بأذني قائلا أن قد انتهت بعد طي فصلك الغريب العلاقة التي تبدأ عند باب عتيق لتمر على كتب عربية ثم تنتهي عند رسائل صادقة، انتهى الأمان، انتهى السلام، انتهى الحبر السر.

لا، لم أشك قط أن لروايتي فصلا آخر يحمل العقبات والعثرات والمتاهات، يحمل الآلام والآثام، ما فطنت إلى أن الحياة سرعان ما ستصب العلقم وأني سأرضى بالعلقم، فلا الحياة رحيمة ولا أنا خلقت لأتوسل الرحمة.

تتساءلون جميعكم عن الذي حدث، وأتساءل أنا؛ هل ستصدقون روايتي التي ستبدأ الآن فصلا جديدا، قاسيا، موجعا، ملطخا بالذنوب؟ فإن أنتم فعلتم، أستلعنون يوم ولدت وساعة قرأت فلحظة كتبت؟ أستطالبون بإعدام ورقي حرقا فحبري هدرا وتهمتي صدق الأفكار والعواطف؟

لا أعرف ما سيكون قولكم وفعلكم، وأنتم بدوركم لا تعلمون لأنكم تجهلون حتى الآن الذي حدث، وها أنتم تأمرونني بمواصلة السرد، وفي وسعي الانصياع لأمركم، وفي وسعي التمرد بالتزام الصمت فترك الباقي للراوي، أي راو اتخذ من أي زاوية مكانا له وجعل من أي حبر وورق وسيلته، أيا كانت الأرض التي أنجبته، أيا كان لسانه وولاءه، وأنا على يقين بأنه سيواصل السرد دون هدر لحظة واحدة فالرواة همهم السرد.

سيصف لكم البداية بغموض تقطعه الاشارات الباهتة التي توحي ولا توحي بالوجهة فلجميع الفصول بداية تلقي بالقليل إليكم لتستفز فضولكم ومخيلتكم،

هكذا يتسنى لها شدكم إلى جوهرها كما تشد العنكبوت ضحيتها الضعيفة في شراكها الدقيقة الحباكة.

ثم سيبحر بكم في عرض يم الأحداث المتتابعة المتقلبة والتفاصيل المباغتة المرعبة لأنه ربانكم، وستلطمكم أمواج ذا اليم العاتية، ولن يجديكم التجديف نفعا ولن تنقذكم الأشرعة المرفوعة، وستكسر الأحداث بقوة قاربكم وستبعد التفاصيل عنكم ذلك الحطام الذي ستسعون للتشبث به، ثم ستغرقون رويدا رويدا حتى تلامسوا قعر النهاية العميق.

هنا يتوقف الراوي عن الكلام بعد أن نفذ من جعبته الكلام، هنا يعيدكم إلى بر حاضركم، ودون توديعكم يرحل للبحث عن غيركم، أما أنتم فستهرعون إلى أقرب الناس إليكم لتقصو ما عرفتموه عن هذا الفصل، وسيضيف بعضكم ما شاء له أن يضيف، وسيغفل بعضكم الآخر ما نسيه أو ما تناساه عمدا وسيبقي القليلون عليه دون لمسات دخيلة فقليلون جدا هؤلاء الذين يحتفظون بالروايات كما لقنت لهم لأنهم على عهد السر والأمانة يحيون.

أجل، كان في وسعي التزام الصمت وترك راو المتحدث الوحيد عن أيام لا تنتسى، أيام خيل لنا فيها أن كل شيء قد تغير مع أن شيئا لم يتغير، لم ينتقص أو يتزايد، لم يؤسر أو يحرر، لم يولد أو يمت.

كان في وسعي التنحي عن دربي ليقف هو، يخفيني قلمه فلا أتراء بعدئذ لإنس، تحجبني أوراقه فلا يعرف آنئذ بوجودي أحد، وأرضى حتى دون أن أسأل الرضا، أرضا أن أكون واحدا من الأشخاص الذين ما أطلق عليهم اسما وما ذكر لهم موطنا، لا حفظ لهم فكرة ولا عاطفة ولا خصهم بإشارة واحدة أثناء سرده للأحداث التي شهدناها نحن الجزائريون والمصريون، ثم لا ألومه ولا أعاتبه بل ألتمس له الأعذار فأتمتم بصوت خفيض يكاد لا يسمعه النسيم قائلة أنه كالكثيرين، لا بل أنه كالجميع ما بلغه يوما خبري، خبر الفتاة التي

نبضت قومية فملكت بذلك رواية تستحق أن تسرد.

كان في وسعي التزام الصمت أبدا وترك راو المتحدث الوحيد غير أني لن أفعل، لن أتنحى أو أتخفى أو أحتجب ولن أرضى وهبه روايتي، لن أتنازل له عن جرحي وحزني وذنبي فهو لا يقدر الحديث عن جرح لم يحمله عني، وحزن لم يشاركني فيه، ولن تفرق إدانته لي عن رفع براءتي.

لا، لن أعطيه قلمي وورقي فأنا الأحق بالثلاث، ومع أن سردي لا يطب الأول ولا يزيل الثاني إلا أنه يمنحني منبرا للاعتراف، فخذوا بالنصيحة ولا تمنحوا أحدا حق سرد رواياتكم بدلا عنكم فلا بد أن يمنحكم القصص هبة.

ليصمت الراوي الذي لا أدري ما أرضه ولسانه ونواياه والذي سيرحل بمجرد الانتهاء من السرد دون وداع كما يرحل الغرباء، ليرحل فهو لا يهتم بالحلم الذي قمت لألمسه لما بلغت العشرين ربيعا، لا يعنيه أني تعلقت في هذه السن الشابة بلحظة اللقاء وأني حدثت اليم فالليل فالنجم عنها وأسريت للكتب بها، أبديت للناس من حولي عاطفة السعادة وكشفت لهم عن حماسي كله ثم كتمت عنهم عواطف أخرى وخواطرا كثرا، ليتنحى عن الدرب الذي سرت فيه وحيدة وأنا لا أدري بعد أن الحياة متوحشة كغيلان الغاب، فيا أيها الراوي المخلوع، ليتني كنت أعلم، ليتني كنت الأقوى...

❄❄❄

أما وقد أيقنتم الآن بألا راوي غيري هنا، على هذه الصفحات وبهذا القلم حتى النهاية فلي أن آخذ نفسا عميقا قبل أن أعود بكم إلى اليوم الذي وقفت فيه بالصف لأبتاع من المخبزة القريبة لبيتنا رغيفا طازجا هو للقنوع كل الخير وكل البركة.

دونما قصد عددت على أناملي الأيام اللواتي تحلن بيني وبين موعد الرحلة،

ومع أنهن ما تجاوزن العشرين إلا أني شعرت بهن حولا كاملا، أوليس هذا ما يفعله البسطاء في طوابير الانتظار، عد الأيام التي تفصلهم عما يعتبرونه السعادة؛ كموعد بمستشفى ينتظره جسد صار من السقم منهكا هزيلا، أو كهنيهة شد يد خشنة الملمس لمقابل أتعابها وفأسها، أو كليلة زفاف عاشقين يعذبهما بالبساطة الهوى، أو كدمية عشر رجل أسود الشعر والشاربين على سبيل إلى ثمنها قبل أن يدركه عيد ميلاد صغيرته التي لم يسبق لها أن عانقت قبل النوم الدمى، أو كشابة تكاد تسعد بلحظة لقاء، شابة كانت قد سلبت السعادة من قبل وكانت لغضاضة قلبها وفكرها تجهل أن السعادة تسلب مرة ومرات...

فجأة برقت السماء وأمطرت، فرحت أراقب القطرات النازلة برفق من عل، زينت تلك الحبات في لحظات الواجهة الشفافة بلونها الشفاف فتجلت لوحة بديعة من لون منعدم.

تأملت هذه الروعة الربانية التي لا يقدر الإنسان إلا على التسبيح لخالقها، فلما حان دوري ابتعدت عن واجهة المخبزة الزجاجية، حملت بيميني ما قدر لي حمله ثم هممت بمغادرة المحل للعودة إلى البيت، ولكن طفلا استوقفني عند عتبة بابه طالبا إلي بعضا من الرغيف الساخن.

لم تبد البساطة بثيابه أو ملامحه، فأدركت وأنا أنظر إلى عينيه أن البراءة هي ما دفع به إلى الاقتراب مني مع أني شابة غريبة عنه، فتكليمي دون مقدمات مع أني أكبره بأعوام، لا لشيء إلا رغبة في قطعة صغيرة من صاحب الرائحة الزكية.

ابتسمت وأعطيته ورفيقه ثم سألت في نفسي»لم طلبه مني دون غيري؟«، وكان جليا إلي أن ابتسامتي وبشاشتي من فرط سعادتي باقتراب موعد اللقاء قد كانتا السبب في اطمئنانه والسير بطلبه نحوي.

تركت الصبيين وانطلقت أسير نحو البيت ولكن هطول المطر الغزير استوقفني وأجبرني على الاختباء بالقرب من محل للصحف، اتخذت من زاوية مكانا أحتمي فيها من البلل ثم ترقبت بصبر توقف الغيث فلما طال بي زمن الترقب رحت أقرأ عناوين الصحف المعروضة للبيع حتى أسلي نفسي وإذا ببصري يشد إلى عنوان عريض حول تبادل قرصنة مواقع الكترونية بين جزائريين ومصريين!

ترددت برهة بين اقتناء الصحيفة وتركها، ثم حسمت أمري وابتعتها مع أني لم أتعود اقتناء الصحف، طالعت والمطر ينهمر المقال الذي سرد قرصنة هاكرز مصري لموقع جريدة جزائرية، فقرصنة جريدة مصرية من طرف هاكرز جزائري، فلما بلغت نقطة النهاية عثرت على مقال آخر عادت فيه الصحيفة إلى التذكير بحادثة ادعاء وسائل الإعلام المصرية تسمم فريقها الوطني لكرة القدم في فندق جزائري لدى نزوله به بمناسبة مقابلة كانت قد أجريت منذ بضعة أسابيع!

لم يخف المقالان ابتسامتي المرسومة على ثغري مذ قررت السفر، هذا ولم يحجبا شيئا من بشاشتي ولكني شددت برفق على شفتي ولم يك قد سبق لي أن فعلت.

ثنيت الصحيفة ووضعتها في حقيبتي ثم تركت زاوية المحل وانطلقت أسير والمطر يأبى التوقف عن تبليل الدنيا والمشاة، لم تنقذني الهرولة من حباته ولم تجدني المطرية التي شدتها يدي نفعا، غير أني لم آبه للعبة الأحب إليه فجل ما شغل بالي هو بلوغ وجهتي.

ما إن بلغت البيت حتى سارعت إلى تغيير ثيابي المبللة كلها، وقبل أن أراجع دروسي أو أن أنجز بعضا من الأعمال المنزلية تفقدت عبر شبكة الانترنت إحدى الصحف المصرية الشهيرة، فوجدتها هي أيضا قد تناولت حادثة القرصنة، وعادت كذلك إلى التذكير بحادثة تسمم الفريق المصري لدى

تناوله لإحدى وجباتنا التقليدية.

دونت الصحيفة في مقالين أن الفريق المصري قد تسمم جراء تناوله لطبق الكسكسي مما جعل أداءه هزيلا بالملعب وتسبب في خسارته لمقابلته أمام نظيره الجزائري، كما دونت أن جماهير جزائرية كانت قد حاصرت الفندق وأزعجت عناصر الفريق بالأهازيج قبيل هذه المقابلة التي أجريت شهر يونيو الماضي.

غادرت موقع الصحيفة المصرية، وعدت إلى تقليب الصحيفة الجزائرية لأجد أن هذه الأخيرة قد حملت مقالا جاء فيه تكذيب لهذا الادعاء من طرف رئيس الفدرالية المصرية لكرة القدم، حيث أكد حضرته على الاستقبال الحسن الذي حظي به الفريق المصري قبل وبعد المباراة.

تركت جهاز الحاسوب والصحيفة ثم جثمت أمام النافذة، تأملت المطر المنهمر غزيرا فدبت قشعريرة في جسدي بالرغم من الدفء في أرجاء غرفتي الصغيرة، نظرت إلى اليم فوجدته كئيبا يكاد يكون باكيا بعد أن ألقت عليه السحب الرمداء لعنتها، عبست لمنظره واختنقت، لكأني وقعت به وغرقت فأسدلت الستارة على النافذة وابتعدت عنها.

تركت الغرفة وتبعت الرواق الضيق الذي قادني كعادته إلى والدتي، كنت لأطلب إليها أن توكل إلي بمهمة قصد مساعدتها غير أني وجدتها قد قامت بتجهيز طاولة الطعام لوحدها ولم يتبق سوى وضع سلة الرغيف عليها فسارعت إلى تحضيرها، وبينما رحت أقطع الرغيف قلت في نفسي أن الصحيفتين قد أطالتا الحديث حول الوقائع التي وجدت أنه كان بوسعهما تناولها في مقال واحد وأسطر قلائل، ثم إنهما قد تبنيتا نبرة ما تعودت وجودها بالكتب؛ فهي جافة مجردة من أي ود، وبينما كنت شاردة في لون الحبر الذي قرأت جرحت دون قصد أنملتي فوقعت قطرات من دمي على قطعة رغيف.

انقبض صدري بسبب الرغيف المضرج بالدم، أبعدت ناظري عنه فقد كان منظره مربكا، ضمدت أصبعي بمنديل ورقي ثم عدت إلى غرفتي، لم يك جرحا بليغا ولم يؤلمني سوى لدقائق معدودات ولكني ظللت أشد عليه بيدي قرابة الساعة من الزمن.

نادت علي والدتي الجالسة إلى الطاولة غير أني اعتذرت عن مجالستها ووالدي فقد عجزت عن تناول الطعام بعد أن أفقدني الذي حدث شهيتي، رحت استمع الى واحدة من روائع السيدة وردة، فلطالما أحببت صوتها الجزائري الممزوج باللحن المصري، كان يخيل إلي أن بيننا ميزة مشتركة؛ فالرواية التي جمعتني ومصر بحكم الكتب، عرفتها هذه السيدة الراقية بحكم الطرب.

ما غادرت حجرتنا بذلك اليوم الماطر بل اكتفيت بالجلوس أمام المدفأة، هذا وما عدت إلى قراءة المقالات مرة أخرى فقد اعتبرتها حبرا عابرا، حبرا شفافا، حبرا للنسيان، ما شككت قط أن تلك المقالات هي بداية عاصفة مدمرة، إنما اعتقدت بأن ما حملته هو واحد من تلك الأخبار التي لا تترك أثرا يذكر، إنما ترحل في هدوء إلى الأبد.

مددت يدي إلى كتب القانون وراجعت بعضا من دروسي، فلما أنهيت ما علي من واجبات خلدت للنوم وأنا أحلم برحلة في قارب خشبي على كف النيل.

أفقت مع شروق اليوم الموالي، قمت من تختي وسارعت إلى فتح بلور النافذة لأختلس نظرة إلى اليم فوجدته قد ازداد كآبة، سألته: «مالك؟ لست اليم الذي يغازلني ولا الذي يواسيني»، فلما أبى أن يرد على سؤالي حملت حقيبتي وغادرت البيت متجهة صوب الكلية.

وراودني ما إن ابتعدت عنه بضع خطوات أن الصحيفة التي حملت بالأمس

أخبارا لا تميل إلى الود قد نشرت في طبعة ذلك الصباح خبرا طيبا فابتعت نسختها الجديدة من أول محل صادفته، وبدل أن أعثر فيها على شيء من الخيال الذي صور لي وجدتها قد أولت مقابلة كرة القدم التي ستجمع في المستقبل القريب فريقي الجزائر ومصر اهتماما خاصا؛ فمن تصريحات اللاعبين والمدربين إلى ما توصل إليه المحللون الرياضيون والنقاد وغيرهم من المختصين في هذه اللعبة، هذا وذكرت الصحيفة كل نتائج المباريات التي سبق وتقابل فيها الفريقان على مر تاريخهما الرياضي.

عاودت تقليب صفحات الجريدة علي فوت مقالا آخر عن البلدين؛ كزيارة أو شراكة أو تنظيم قمة عربية غير أني سرعان ما أدركت بأنها لا تحوي حبرا آخر غير حبر المقابلة الذي أغرقت فيه مقالاتها جلهم.

لم أك يوما من محبي كرة القدم فلا طالما اعتبرتها رياضة رجالية لا مكان لي فيها، لم أك أعرف عنها شيئا غير شكل ملعبها وكرتها، ولهذا لم أك لأولي المقالات الرياضية عناية تذكر ولكن مبالغة تلك الصحيفة في الاهتمام بهذه المقابلة، مبالغة لمستها في مقالاتها الطويلة العديدة التي تتمحور حولها، في الشخصيات الكثيرة التي تكبدت عناء سؤالهم عنها، في صور الملاعب والجماهير التي أرفقت نسختها بها، مبالغة تلك الصحيفة شدني إلى هذه اللعبة ودفع بي للتوجه نحو أحد مقاهي الانترنت للإطلاع على واحدة من الصحف المصرية الشهيرة بعد أن تراود بداخلي رغبة في معرفة ما إذا كانت تلتفت هي أيضا إلى هذا الحدث الكروي، ويا للصدفة، فقد عثرت في هذه الأخيرة على ذات الاهتمام بصفحاتها التي حوت كثيرا من المقالات والحوارات والصور الحائمة كلها حول هذه المباراة المرتقبة.

قمت من الكرسي وهممت بالرحيل، لكني عاودت الجلوس عليه بقرار سريع مني، ثم رحت أتصفح عبر تلك الشبكة التي لا تعرف الحدود عددا آخر

من الصحف المصرية والجزائرية فإذا بي أجدها جميعها كالصحيفتين الأولتين، تتحدث عن ذات الموضوع وتوليه ذات المبالغة في الاهتمام!

غادرت المقهى بعد ساعة من الزمن، ثم ركضت نحو الكلية التي تأخرت عن موعد الدرس فيها بعد أن شغلتني المقالات وأنستني النظر إلى عقارب الساعة، بلغت قاعة الدرس وقد شارف الحارس على إقفال بابها، دخلتها بهدوء ثم جلست لأول مرة بالصف الأخير فوحده الصف الأخير حوى مقعدا شاغرا، وضعت كتبي على الطاولة ثم وجهت بصري نحو الأستاذ في محاولة مني للالتحاق بركب محاضرته غير أني سرعان ما شردت في الذي خالجني.

«لم اهتمام الإعلام البالغ في الجزائر ومصر بمقابلة كرة قدم؟ إني أراه وأشعر به في الحوارات الكثيرة والمقالات المتعددة بشتى الصحف، ولكأن الصحف كلها قد بايعت لون الرياضة بعد أن عزلت ألوان الحياة الأخرى؟ ثم لم جذبتني الصحف الجزائرية والمصرية بهذه القوة مع أني لا أطالع ما تنشره فلطالما كنت فتاة الكتب، آخذ منها الأخبار والأدب في آن واحد.

أعترف أن للصحف قدرة على شد الانتباه إليها ففيها سر غامض يدفع بي إلى تتبع حبرها بالرغم من عدم انسجام أفكاري وعواطفي معه، هي لا تشبه الكتب، قطعا لا تفعل، فبالرغم من أنهما قد تطوقان ذات الخطب إلا أني أجد لصاحب الكتاب حبرا يعمر أبدا، وأشعر أنه قد خطه لي ولكأن بيني وبينه وعد، بينما أشعر في ثنايا الصحيفة أن صاحب المقال يرمي إلى كتابة ما قد يناسب يوما واحدا فقط، وأنه لا يهتم أأحببت ما كتبه أم قرأته لمجرد أني أحسن القراءة؟».

شغلني السؤال ومنعني من الاستماع إلى الأستاذ الشارح للنصوص القانونية ودورها في حماية الحق، حاولت وأنا في ذيل القاعة العثور على جواب مقنع أو منطقي ولكني عجزت، لا بل لم يك في مقدوري وضع الاحتمالات مع

أن الاحتمالات هي أول ما يهب بفكر المرء إذا ما أطلق شراع السؤال، كنت بعيدة عن الصحافة والرياضة بسنوات تماثل سنوات عمري فما استطعت التكهن بجواب أو بشبه الجواب، وبينما كنت على هاته الحال دنا مني أحد زملائي وسألني فيم أفكر، فقد نادى علي لأعيره كتابي غير أني لا أسمع نداءه.

راودني للحظة أن زميلي البادي عليه حبه لهذه اللعبة بفضل القميص الرياضي الذي يرتديه، راودني أنه قادر على مدي بالعون فسألته بصوت خفيض حتى لا أزعج الطلاب قائلة «مذ متى صارت مقابلات كرة القدم تحظى بكل هذه الأهمية؟»، قال بنبرة صارمة «مذ كرهتن أنتن معشر النساء هذه اللعبة»!

ابتسمت لقوله وكذلك فعل، أعرته الكتاب ثم رحت أستمع إلى ما تبقى من موضوع المحاضرة دون أن أنسى السؤال الذي لم أعثر له على جواب ولا على الطريق المؤدي إلى الجواب.

دقت ساعة انتهاء الدرس فغادر الأستاذ القاعة، نظرت وأنا أجمع كتبي وأضعها في محفظتي إلى الطلاب فوجدتهم قد شكلوا جماعات للحديث عن المقابلة التي ستجمع فريقنا وفريق مصر، أدهشني كثيرا لحظتها التفافهم جميعا حول موضوع واحد، فأنا لم أعهد التفافهم واتفاقهم في غير الدروس والبحوث والامتحانات الفصلية!

كنت بينهم كتائه بملعب للكرة فأنا لم أفقه شيئا في حوارهم الرياضي الذي لم أخضه من قبل ولم أصغ إلى مثيله قط فلم أحفظ له بجعبتي شيئا يذكر، ثم إني ما حاولت سؤالهم للانخراط في حديثهم فأنا ما وجدت به سحرا.

عدت إلى البيت بعد الظهيرة، في حقيبتي دروس للمراجعة وأخرى للحفظ، وفيها أيضا الصحيفة الملأى بالعناوين الرياضية، ولجت غرفتي ووضعت كتبي على طاولتي، ثم جعلت للصحيفة مكانا بدرجها الأخير كأني أطلب إليها أن

تقبع فيه وألا تغادره لتنتشر في غيره، أخذت قسطا من الراحة، ثم انطلقت في كتابة واجباتي كلها فلما أنهيتها جميعها ارتديت معطفي ووشاحي وتوجهت صوب المكتبة لأقضي بين كتبها ساعة من الأدب.

كان المطر الغزير قد بلل الفناء كله وكذلك الدرج المؤدي إليها فصعدته بحذر لألا أقع فأتأذى، شعرت ببرد الشتاء يكاد يجعل كل شيء جليدا فازددت تمسكا بوشاحي، حين بلغت عتبتها مددت يدي بهدوء إلى قفل بابها العتيق، وما إن لمست يدي ذا القفل حتى هوى الباب أرضا.

جثمت وقد ارتعبت غير مصدقة وقوعه هذه الوقعة الأولى، أحزنني مرآه وأذرف دمعي فقد بدا الباب لناظري حيا، ثم هبت ريح فلكأنني سمعت مع الريح أنينا، انحنيت ومسحت عليه بيدي الباردة الرعشة ثم التفتت يمينا ويسارا عل أحدا يهرع إلينا، لكني سرعان ما تذكرت أنا قد هجرنا وتركنا مذ سنوات لسنوات أخرى.

وضعت مطريتي جانبا ورفعته بساعدي، أسندته إلى الجدار وأخبرته أن يطمئن فسأصلحه، ولن أجلب بديلا له لأنه باب المكتبة الذي أحب وأنا لا أتخلى عنه ولا عن المكتبة بكل ما فيها، وبلل المطر أثناء حديثي إليه وجهي فبدا كأني ذرفت لأجله سيلا لا دمعا، ثم اشتد البرد فأضحى جسدي مثل يداي، يرتعش كورقة خريف هوت للتو بعد أن فارقت منبتها.

استحال علي البقاء للمواساة فتركت بابي العتيق والحزن يغمرني ويغمره ثم نزلت الدرج عائدة إلى غرفتي، شعرت أن وقعته نذير بخبر سيئ أو حدث كئيب سيهز الأرجاء قريبا، اختنقت لكأن يدا تشد على عنقي فلا هي بقاتلي ولا هي بتاركي، وأدركت وأنا مثقلة الخطوات أني أتشاءم مع أني مقت التشاؤم طيلة نشأتي، «هو باب هوى بعد أن نالت منه قرابة مائة عام»، كذا قال لي فكري، لكن قلبي ما انفك يصرخ «هو باب ما كان عليه أن يهوي».

لما بلغت وجهتي، جلست جنب المدفأة زمنا طويلا خلت نفسي فيه عليلة مع أني لم أشك مرضا، لم أرغب في تناول الطعام أو في القيام بأي عمل مهما كان بسيطا، خلدت للنوم ما إن حل الليل ثم غفوت بصعوبة عند منتصفه.

استيقظت مع شروق اليوم الموالي ثم توجهت صوب كليتي، سرت نحوها بخطى بطيئة متثاقلة فقد كنت أشعر بالتعب لأني ما نلت من النوم كفايتي، بلغت قاعة الدرس قبيل انطلاق المحاضرة فجلست رفقة زملائي الذين ما انفكوا يتحدثون عن المباراة التي اقترب موعدها؛ تشكيلة اللاعبين وخطة اللعب، تصريح مدربهم بشأن حالة الطقس وأرضية الملعب، حوار لاعبين سابقين حول موضع قوة الفريق وموضع ضعفه...

استمعت إلى حديثهم زمنا، ثم مددت يدي إلى صحيفة كان أحدهم قد جلبها ووضعها على الطاولة، قرأتها بسرعة فوجدتها كسابقاتها قد حملت الكثير من المقالات والحوارات الرياضية الحائمة جميعها حول هذا الحدث الكروي، ثم ما قطع علي تلك الخلوة بذلك الحبر الذي لا يشبه حبر الكتب، ما قطع علي تلك الخلوة حديثة العهد في يومياتي سوى حمحمة أحد عمال الكلية، فإعلانه عبر مكبر الصوت تغيب أستاذ الحصة الأولى.

ما كان في وسعي مشاركة زملائي حديثهم، وما كان في وسعهم انتشالي من بئر ما كان يتخالج في أعماقي فحملت نفسي واتجهت صوب نادي الكلية لأتجول هناك عبر شبكة الانترنت، علي أجد جوابا لسؤالي في صحيفة جزائرية أو مصرية أو في كليهما.

قرأت في تلك الزاوية التي لم أتعود من قبل اللجوء إليها إلا لإتمام بحوثي الجامعية، قرأت كثيرا مما نشر بالبلدين دون أن أقترب من مبتغاي ولو اقترابا بسيطا، فجل ما وجدته هو اغتصاب المقالات الرياضية لجل مساحاتها الورقية ولكأن المقابلة قد أضحت في طرفة عين أهم من سياسة البلدين ومن أخبار

المجتمعين ومن مستجدات أنباء الاقتصاد والتظاهرات الثقافية فيهما.

تمتمت وأنا أهم بمغادرة المقهى قائلة: «لم اهتمامكم بلعبة كل هذا الاهتمام؟»، فجأة لمحت عنوانا أحمر اللون خط ليخبرنا أن إعلاميا مصريا شهيرا قد وجه للجزائريين كلاما قويا، ولجت بسرعة إلى المقال فضولا مني لقراءة ما خصنا به أحد أشهر الاعلاميين المصريين وإذا بي أجده يخاطبنا قائلا: «نحن المصريون حررناكم وعلمناكم العربية»!

سكنت للحظات ثم عاودت قراءة المقال مرتين، فمرتين، عدت وسكنت ثم هممت بالركض بعيدا عن الذي خط، غير أني عدلت عن الرحيل ورحت أتصفح صحفا أخرى علها تكذب هذا الخطاب، غير أني ما لاقيت تكذيبا بل وجدت إعلاميا جزائريا شهيرا يرد على الاعلامي المصري قائلا: «يا مصريين حررتمونا وعلمتمونا العربية، لكن الجزائر لديها طلب صغير عندكم هو أن تكملوا جميلكم وتحرروا لنا فلسطين»!

سكنت مرة ثالثة كأني جذع الشجرة التي قطعها الفأس، كان حوار من حولي يبلغ مسمعي كأنه الوشوشات، فجأة ارتعشت بسبب بوق سيارة فعاد لجسدي حركته وسمعه.

قمت بهدوء وغادرت المقهى، سرت بذات الخطى المتثاقلة التي فارقت بها بابي العتيق، سرت بذات الخطى عائدة إلى قاعة الدرس، كنت أعلم أني قد فوت مقالات أخرى لصحف أخرى، غير أني شعرت في أعماقي بأني قد فقدت قدرة قراءة المزيد بعد الخطابين اللذين ما توقعت يوما أني سألاقي مثلهما.

حين بلغت وجهتي جلست على مقعدي بالقرب من زملائي ولزمت الصمت من جديد، نظمت كتبي وأقلامي فوق الطاولة ثم وضعت بجانبها

سؤالا كنت قد دونته قبل أيام لأستفسر الأستاذ عنه، وتمنيت في قرارتي لو أن أستاذي يطلع على صحف البلدين ثم يحيد عن الدرس ليكلمنا عن هذا الاهتمام الذي تجاوز حدود توقعاتي وأعجز فضاء احتمالاتي.

وفي هذه اللحظات نادى أحد زملائي علي ثم سألني عن خطبي لأني لا أبدي رأيا أو حماسا ولا أشاركهم الكلام في الموضوع الأهم بالنسبة إليهم!

ابتسمت وأخبرته بصوتي الهادئ أن كرة القدم ليست من هواياتي، ويا للمفاجأة، قطب حاجبيه بمجرد سماعه لكلماتي وقال بنبرة خالية من أي ود أنه يعرف أمثالي من الذين لا ينشغلون بغير حب أنفسهم، ولا يحملون عناء إعطاء أوطانهم عاطفة قط، همهم ما يسلبونه من الوطن فحسب.

ساد المجلس صمت غريب، نظرت إلى زملائي وانتظرت منهم ردا منافيا للذي نطق به على مسمعهم لكن عبثا فعلت فلا أحد فتح فاه، نظرت مرة أخرى إلى صاحب هذه الكلمات وهذه النبرة، فأشاح بوجهه عني وعاد للجلوس على مقعده، صوبت بصري مرة ثانية نحو وجوه زملائي فبدا لي أنهم يوافقونه تلك التهمة التي ألقى بها علي فقد تعمدوا الصمت، والصمت العمد تعبير صريح، وبينما نحن على هاته الحال دخل الأستاذ القاعة فجلس كل منا بمكانه المعتاد.

لم يسألني أحد أن أعيره كتابي أو دفتري أو شيئا مما تعودت أن أسأل إعارته، فامتنعت أنا بدوري عن طلب أي شيء منهم، لزمت الصمت طيلة زمن المحاضرة فلما انتهى الدرس جمعت كتبي ودفاتري والسؤال الذي لم أطرحه على المعلم ثم سارعت بالعودة إلى بيتي.

فكرت وأنا أسير بالدرب المؤدي إليه في تلك التهمة والنبرة، فصمت الباقين المعبر عن موافقتهم: «لماذا بدوت لهم شخصا لا يحب وطنه؟ ماذا فعلت؟

فيم أخطأت؟»، راودتني هذه الأسئلة حتى انتابني الصداع، بحثت في ذاكرتي مرات ومرات عن الكلمات التي نطقت بها فأوحت بلامبالاتي بوطني وبأنانيتي وجشعي، غير أني ما وجدت سوى اعترافا بعدم الميل للعبة.

بلغت البيت وأنا أشعر بتعب شديد، غير أني ما منحت نفسي قسطا من الراحة وما تناولت وجبة الطعام بل توجهت بسرعة صوب المكتبة، جلست على كرسيها الهرئ وحيدة وأنا أشد على وشاحي ومعطفي، خيل إلي لحظتها أن الكتب كلها تشعر بالبرد مثلي وأنها دون بابها الحامي كجسد عار لا يملك ما يدثر به، بدت دونه حزينة خائفة، فالكتب ذوات مشاعر لا يتحسسها سوى قارئ مخلص، قارئ تعود صفحاتها ورائحتها وعود نفسه صحبتها والعناية بها.

سرعان ما استحال علي المكوث بالمكتبة مع أنها المكان الذي أحب الاختلاء به إذا ما شغلني هم فقد اقتحمت ريح باردة أرجاءها، وراحت تقسو علي وعلى كل المخطوطات فيها كأنها تنتقم للسنوات التي منعها أثناءها الباب العتيق من قطع دفء خلوتنا، غادرتها وعدت إلى غرفتي وفكري منشغل بالذي قيل عني في أرضي التي أقدس مذ سمعت القسم وأنا رضيع بالمهد.

كنت على يقين أن زميلي ما نطق بالذي هز جوارحي إلا لوهم حسب أنه رآه، فبالرغم من أني تهت في غاب السؤال إلا أني ما شككت لحظة في إخلاصي لوطني وهيامي به فأنا الفتاة التي ترعرعت بمبادئ وأخلاق دار الستة وأنا التي أديت القسم حتى بعد أن سلمت شارتي وأنا التي احتفظت ولا أزال أحتفظ بالعلم في انتظار رفعه بساريته مرة أخرى.

غفوت بعد أن نال مني التعب والسؤال والاستذكار ثم ما استيقظت إلا بصعوبة على رنين منبه الصباح وهو يشير برقاصه إلى السادسة تماما.

نظرت إلى المنبه زمنا، فكرت برهة ثم امتنعت عن الذهاب إلى الكلية وكانت هذه المرة الأولى التي أمتنع فيها عن السير إليها فقد كنت على يقين أنه ليس في استطاعتي مواجهة زميلي ومطالبته بسحب كلامه وبالإعتذار، فأنا لم أك قد عبرت من قبل لأحد عن أفكاري وعن الذي يلتهب بفؤادي، لا بل طالما كان الصمت درعي وملاذي، هذا ولم يك في مقدوري المرور بجانبه والجلوس بالقرب منه كأن قوله ما عناني وما أوجعني وما أرقني.

أشحت بوجهي عن المنبه وما غادرت تختي بتلك الساعة الباكرة الباردة الماطرة، جثمت بأحظان دفئه بعد أن انكمشت حول نفسي مخفية رأسي تحت بطانيته ولكأني طفلة تخشى صوت الرعد.

سكنت تحت البطانية وبقيت على هاته الحال إلى أن طلبت إلي والدتي أن أغادر غرفتي، ساعدتها في بعض ما كانت تقوم به من أعمال منزلية وحاولت أن أجد لها مبررا لتغيبي عن الكلية، ومع أن أعذاري لم تحو من الإقناع ذرة إلا أنها سمحت لي بالمكوث بجانبها شرط أن أتناول طعام الإفطار كله وكذا أن تكون هذه المرة الأولى التي لا ثاني لها، قبلتها وأنهيت ما كان علي إنجازه ثم عدت إلى غرفتي.

جلست بالقرب من نافذتي ورحت أراقب الدنيا خارج حجرتي، توقف الغيث عن الهطول وبدا المكان من بعده هادئا وباردا وحيا، فكرت مرة أخرى في التهمة التي ما كان على زميلي الإلقاء بها علي، وفكرت في كل ما دونته الصحف فشعرت برغبة في كتابة رسالة لهم جميعا، لكني سرعان ما ذكرت حال المكتبة البائس واستحالة الجلوس بها للمطالعة أو للكتابة، ثم استطردت واعترفت في أعماقي بأني ماكنت لأكتب حرفا حتى لو ما هوى الباب العتيق.

تركت النافذة وجلست بالقرب من الحاسوب، وقبل أن أطلع على الصحف اليومية خاطبته قائلة: «الأمس مضى ومقالاته، اليوم يوم آخر»، هكذا ظننت

وخاب ظني حد الحزن والاختناق بمجرد أن اطلعت على معرض الصحف الذي كان عامرا بحبر لم ينشغل بغير المقابلة التي ستجمع الفريقين، وما كنت لأحزن بسبب ظن خائب، وما كنت لأشعر بالضيق في صدري بسبب مقالات رياضية، ولكن تداول الصحف لما نشره إعلام دول أجنبية كان محزنا وخانقا.

صحف غربية تتساءل فيما يشبه الاستهزاء عن الكراهية المتنامية بين الجزائريين والمصريين، تنشر زورا أن ما يجمعنا رابط هش ينهار أمام المنافسات الرياضية تماما كما تنهار قطعة سكر في كوب شراب ساخن، وأننا لسنا بالاتحاد الذي ندعي، ولا بالأخوة التي نرفع.

كان هذا أكثر حبر بشع وقع بصري عليه مذ ولدت، كان أقبح كذبة بتاريخ البلدين العظيمين، وكنت سأسعد بقراءة كل رد جزائري وكل رد مصري على هذه المقالات الأجنبية الدسيسة للسم، وكنت لأفتخر بكل حبر هو ترياق هذا المدسوس، ولكنت ابتسمت ورفعت رأسي عنفوانا، ولكني ما ازددت إلا حزنا وضيقا فصحف البلدين اكتفت بترجمة ما دونته هذه الصحف الغربية الغريبة بدل الرد عليها، بدل تعريفها بالقومية التي تنبض بأعماقنا.

تركت الحاسوب وارتميت على تختي، تمتمت لاعنة وقاحة هذه الصحف الأجنبية ثم تساءلت أن لم لم ترد صحف البلدين بقوة واتحاد على هذه الكراهية الزائفة التي نسبت إلينا، ومرة أخرى عجزت عن العثور على جواب لسؤالي، أو على شبه الجواب فقمت وغادرت غرفتي، حملت صندوق والدي للمعدات وتوجهت صوب المكتبة لأصلح بابها.

جثمت أمام الباب الهاوي ورحت أنظر إليه زمنا ثم أنظر إلى ما في حوزتي من معدات زمنا آخر، لم أعرف كيف أصلحه أو أي المعدات أحتاج في سبيل إصلاحه، حملت المطرقة بيمناي وحاولت أن أضرب بها مسمارا معوجا بعد

أن صوبته بيسراي غير أني ضربت دون قصد أناملي، وبدل أن أتألم غضبت، وعوض أن أتأوه صرخت، وتسارعت دقات قلبي وأنفاسي، ثم ما حاولت تضميد الجرح بل ألقيت بالمطرقة أرضا ورفعت علبة المعدات وقذفتها بقوة فتبعثر كل ما بداخلها على الدرج المبلول.

جثمت عند عتبة المكتبة غير قادرة على الحراك بعد أن شعرت بالخذلان يسري بأطرافي، حاولت أخذ نفس عميق فلما عجزت بكيت حتى هدأت ثورتي الصغيرة بسرعة تماما كما اندلعت، لم تكن تلك المرة الأولى التي يرى فيها العلمان المترافقان بالزاوية اليمنى دمعي، غير أنها قد كانت أول مرة لا أخبرهما فيها عن خطبي.

شيئا فشيئا استجمعت قليلا من القوة فقمت ثم انحنيت أرضا ورحت أجمع أشيائي تارة وأمسح ما تبقى من دمعي تارة أخرى، فلما أعدت المعدات إلى علبتها سرت عائدة نحو حجرتنا.

«لماذا أشعر بضيق شديد؟ لماذا لا أستطيع أخذ نفس عميق؟»، تمتمت وأنا أتخذ بالقرب من مدفأة غرفتي مكانا، أحاول أن أشعر بدفئها في أعماقي مثلما شعرت به في جسدي، «لماذا فقدت نفسي للحظة؟» سألت نفسي بعد أن فاجأتني ثورة غضبي السريعة فأنا لم يسبق لي التصرف بمثل تلك العدوانية، لم يك من طباعي إلقاء الأشياء أرضا والصراخ بأعلى صوتي.

لم يخف علي في تلك الغرفة البسيطة أن شيئا في داخلي يختنق، يحاول التحرر غير أنه يعجز، لم تخف علي تلك الرغبة في كتابة رسالة لزميلي وأخرى للصحف أعبر فيها عن عاطفتي وأفكاري بصدق وبأدب، ولكني ما استطعت الدنو من القلم والورق فأنا لم أكاتب من قبل حيا، ولم أرسل عبر البريد رسالة قط فلم أواجه بذلك نقدا لأفكاري وعواطفي، نقدا لكياني والنقد هو كل ما خشيته في الحياة.

مرت الساعات دون أن أقوم فيها بعمل يذكر فلما حل الليل حاولت النوم غير أني لم أغف إلا بصعوبة بعد أن جاوز منتصفه.

أفقت في صباح اليوم الموالي على صوت والدتي وهي تحييني بتحية الصباح وتطلب مني الإسراع في تجهيز نفسي حتى لا أتأخر عن درسي، استرقت النظر إلى المنبه فأدركت أني قد فوت موعد الاستيقاظ بعد أن عجزت عن سماع رنينه.

سارعت بارتداء ثيابي وتسريح شعري وهممت بتوديع والدتي فوجدتها قد حضرت لي كأس اللبن ووضعت بجنبه رغيفا بعد أن دست فيه قليلا من العسل، أعادت على مسمعي تحية الصباح ثم نظرت بعمق في عيني وهي تمسح بيدها على رأسي.

لم تقل والدتي شيئا مع أنها قد علمت بميزة الذكاء وبفطرة الأمومة أن خطبا ما قد ألم بي في الكلية فدفع بي مرة للتغيب ويدفع بي مرة أخرى للتأخر، لم تسل عنه فقد كانت أعلم الناس بالكتمان الذي أحوط به نفسي، اختارت أن تطوقني بقوة الحب الموجود بكوب لبن وقطرات عسل جلبتها لأجلي، بنظرة عميقة ولمسة ناعمة، ثم ودت تلك الأم التي لم تفارقني عنايتها بي عشرين عاما أن تدس أيضا شيئا من الدفء بذلك الصباح البارد فراحت تشغل المذياع وهي تقول أننا سنشرب اللبن على صوت الطرب، لكن المذياع شاطر صباحنا بأخبار تحضيرات فريق كرة القدم تحسبا للمباراة التي ستجمعه بفريق مصر.

ما إن صمت المذيع حتى بثت القناة أغنية رياضية حماسية، قمت من أمام الطاولة وأنا أخبر أمي أني قد نلت كفايتي قبل أن تسألني عن الكوب الذي ما تجاوزت الرشفة الواحدة من لبنه والرغيف الذي ما قضمت منه غير قضمتين صغيرتين، ارتديت معطفي ولففت وشاحي حول عنقي ثم ودعت

أمي وتوجهت حاملة حقيبتي نحو الكلية.

سرت بخطى بطيئة كأن ليس بانتظاري درس، استوقفت نفسي بالقرب من أول معرض للصحف لاقيته بدربي المعهود ثم قرأت العناوين الرئيسية كلها، هذا وتأملت صور الصفحات أيضا فوجدتها جميعها منشغلة بالمقابلة التي ستجمع الفريقين في الأيام القريبة، جميعها دون استثناء واحد، حتى تلك التي كان محورها مستجدات الاقتصاد وتقلبات البورصة، حتى تلك التي كان همها أخبار المشاهير وآخر صيحات الموضة.

ولمحت من بين الصور صورة غريبة ما حاولت إدراك مغزاها فقد فطنت مذ الوهلة التي لمحتها فيها أنه لا مغزى لتعديل صورة لاعبين جزائريين زورا حتى يبدوان كأنهما يحملان بيديهما سلاحا ناريا يشبه البنادق!

دنوت من الصحيفة لأقرأ عن كثب العنوان العريض الذي رافق هذه الصورة الغريبة فكان العنوان وعود رجال أعمال جزائريين بمنح اللاعبين حال فوزهم على الفريق المصري سيارات فاخرة ومبالغ مالية كبيرة!

ببطء تركت المعرض ثم توجهت إلى أحد مقاهي الأنترنت بعد أن أضحى الجلوس قبالة حواسيبها للاطلاع على مقالات صحف البلدين أحدث العادات التي وقعت في شراكها، لم أك أملك من المال ما يمكنني من شراء كل الصحف الجزائرية، لكن بعض الدنانير بهذه المقاهي تسمح بالولوج إلى مواقع كل هذه الصحف وإلى نظيراتها المصرية أيضا.

رحت أقرأ الصحف المصرية بدقة على وقع الأغاني الرياضية الجزائرية التي اختارها صاحب المحل، رحت أقرأ وعود رجال أعمال مصريين والتي كانت شبيهة بالوعود الأولى، سيارات فخمة ومبالغ مالية كبيرة للاعبين في حال فوزهم على نظيرهم الجزائري.

غادرت المقهى بعد زمن ثم واصلت السير صوب وجهتي، عجزت مرة أخرى عن إدراك سبب انشغال الصحافة المكتوبة كل هذا الانشغال بمجرد لعبة هي كرة تتقاذفها الأقدام ساعة وبعض الساعة قبل أن يعود كل متتبعيها إلى حياتهم غير ناقصة من هم أو كرب، وتمنيت وأنا أجتاز عتبة باب الكلية العملاق، تمنيت أن أعثر على جواب لا أسأله إقناعي وإرضائي، بل أرجوه انتشالي من حيرة ولدت على حين غرة ثم أبت مفارقتي.

بلغت قاعة الدرس وأنا أفرك يدي لأشعر ببعض الدفء، كنت قد هممت بالمضي صوب مقعدي المعتاد غير أني سرعان ما عدت بخطاي إلى الوراء لأتحاشى متهمي، تأملت أرجاء القاعة ثم اتخذت من أحد المقاعد الذي لا يقربها مكانا لي، اخترت عن طواعية المقعد الأخير لأتجنبه وباقي الزملاء الذين أبوا الدفاع عني، تخليت لهم عن مقعدي بالصف الأول مع أني اجتهدت طيلة سنوات دراستي لأستحقه، وفطنت إلى أنهم قد اكتشفوا مهربي بعد لحظات فقط من لجوئي إليه وأنهم ما حملوا عناء توجيه التهمة إلي مرة أخرى فقد بدوت لهم أضعف من أن يسترسلوا معي في حديث أو جدل، أدركت هذا كله فشعرت بالاستياء لأني لا أستطيع الوقوف وقفة محام للدفاع عن نفسي مع أني طالبة متفوقة في كلية القانون، لأني أعجز خارج المكتبة المهجورة عن كشف أفكاري وعواطفي، عن كشف كياني، وكانت هذه أول مرة شعرت فيها بعيب الصمت.

اختنقت في ذلك الصف الغريب عني فبالكاد كان صوت الأستاذ يبلغ مسمعي وبصعوبة استطعت قراءة ما دونه على اللوح، غادرت القاعة فالكلية قبيل انتهاء المحاضرة وأنا أعلم أني أتخلف بذلك عن باقي المحاضرات ثم تبعت الدرب المؤدي للبيت بخطى بطيئة متثاقلة ولكأني عجوز على الرصيف.

حين بلغت الدار انزويت بغرفتي والتزمت فيها بالصمت وبالسكون أيضا،

كان اليم متشبثا بالحزن الذي عرفه قبل أيام فأبيت تأمله لأن حزن اليم خانق ولئن كنت على اليابس، ثم نادت علي والدتي لتناول الطعام وأصرت حتى ألبي نداءها فجلست وهي برفقة والدي الذي راح بدوره يتحدث عن المقابلة وعن جميع أبناء حينا الذين ينتظرون موعدها.

لما أنهينا صحن الحساء شغل والدي التلفاز وراح يقلب قنواته ثم توقف عند صحفية جزائرية وهي تقرأ بنبرة الفخر خبر سفر فريقنا الوطني لكرة القدم في طائرة خاصة ونزوله بفندق فخم وهذا بعد قضائه فترة بمنتجع أوروبي، غير أبي بعد هذا الخبر القناة لنجد أنفسنا نستمع إلى صحفية مصرية تصف بنبرة لا تقل فخرا طائرة الفريق المصري وفندقه ومنتجعه.

فاجأني أن يكون للعبة كل هذه الأموال الطائلة وكل تلك الوعود الباهضة وأن يكون نصيب دار الستة اللاشيء حتى أضحت خرابا بعد أن كانت دنيا من العلم والأخلاق والخير، فاجأني حد الشرود في قسمات وجه والدي التي رسمها شقاء العمل في بساتين قصور الأغنياء الذي بالكاد كان يستطيع به سد حاجياتنا، فاجأني حد استرجاع ذكرى الرسالة التي كتبتها مذ سنوات أحكي فيها عن أصحاب العذاب في الجزائر ومصر، هؤلاء الذين لا يجدون رغيفا، ولا ثوبا، ولا حذاء، ولا دواء، ولا عونا، ولا عطفا، ولا إحسانا...

وقطع شرودي وخيط ذكرياتي صوت والدتي وهي تدعوني لجلب حبات البرتقال، قمت بهدوء صوب المطبخ الذي لم يك به سوى برتقالتين، عرفت لحظتها أن أمي ستدعي كما تفعل دوما الشبع حتى يكون نصيبي برتقالة كاملة كوالدي، وأن والدي سيبتسم كعادته بعد أن يخبرها بأنه لن يتناول سوى البرتقالة التي ستقبل تشاطرها معه، ففي بيوتنا نحن البسطاء نعد حبات البرتقال، لا بل نعد كل ما تمنحنا إياه الحياة، وما أقل عطاءها مقارنة بالشح.

عدت وجلست بالقرب من والدي الذي واصل تقليب القنوات، للحظة

استوقف نفسه عند بث إحداها صور زيارة الرئيس المصري للفريق الوطني أثناء قيام هذا الأخير بحصة تدريبية ثم عاد وغير القناة، تمتمت دون أن أشعر قائلة: «لم زيارة الرجل الأول لفريق لعبة؟ هل يزور رئيس مصر الفريق قبل كل مباراة؟ ثم هل زار بسطاء مصر كلهم ونظر في شؤونهم جميعهم حتى ما تبقى له سوى تفقد الألعاب؟»، هنا قاطعني والدي وسألني عما أتحدث فهو لا يستطيع سماعي بوضوح، طلبت إليه ألا يشغل باله فقد تمتمت أمرا يخص وظيفة كلفت بها في الكلية ثم استأذنتهما وعدت إلى غرفتي.

«ماذا يحدث؟ لم تهتم صحافتنا وصحافتهم بهذه المقابلة كل هذا الاهتمام، ثم من أين لهم كل هذه الأموال لإنفاقها على مثل تلك الأماكن الفخمة ووسائل النقل المترفة؟

من أين لهم كل تلك الأموال، فليخبروني أركض لأنال منها بعضا، أرمم به دار الستة ومكتبتها وحديقتها ثم أنادي على عمالها وأشبالها أن عودوا، عودوا لتعود بعودتكم الحياة، عودوا ليعود بعودتكم البسطاء، عودوا ليعود بعودتكم الأمان والعلم والخير والتوت الأبيض واليمام المسالم، عودوا لتعود بعودتكم الفضيلة.

عودوا فقد حكم علي بالوحدة من بعدكم، عودوا فأنا أكتم حزني وأواسي نفسي بيوم لقياكم، لكن أنى لكم أن تعودوا والمال يقدم قرابينا لفخامة كرة.

نحن نعد البرتقال هنا، أيتها الصحفيتان اللتان تتكلمان بفخر عن فخامة ودلال الكرة وأتباعها، نحن هنا، ببيوت الجزائر ومصر البسيطة نعد حبات البرتقال، وندعي الشبع ليأكل غوالينا حصة أكبر، أم تريد لابنتها حصة أكبر، ومثلها أمهات كثر، تكلما عنا أيتها الصحفيتان، تكلما لكن نبرة الفخر لن ترن... لن ترن.

لم كل هذا الاهتمام، لم تحظى بكل الدلال؟ لست أجد جوابا لسؤالي بهذا الحاضر فهل سأجد له بالغد جوابا؟»، حدثت النجم وأنا أتقلب على التخت، تمنيت والليل قد جاوز منتصفه العثور على جواب مع الشروق عل حزني على داري يخف، عل عطشي للماضي يرتوي.

أفقت مع الشروق على صوت الطبيعة التي أجبر المطر طيرها على البقاء مختبئا بعشه، تماما كما أجبر سماءها أن تحتجب ويمها أن يكتئب.

غادرت البيت مسرعة قبل أن تقدم لي أمي كأس اللبن الذي ما كنت أقوى على ارتشافه، استقليت أول حافلة لاقيتها لألتحق بالكلية، وما إن انطلقت حتى راح السائق يتحدث إلى الركاب بصوت عال طالبا منا الدعاء حتى لا ينهمر المطر يوم المقابلة، فالمطر حسب قوله ليس في صالح الكرات الطويلة!

بدا لي طلبه نكرانا لرحمة الله التي لولاها لانعدمت الحياة فسارعت بوضع السماعتين بأذني حتى أرحل بقطعة موسيقية بعيدا عن كلام رجل مجنون لكن عبثا فعلت، فقد قلبت قنوات الراديو علي أجد طربا غير أني ما لاقيت غير الأغاني الرياضية التي لم أك يوما من محبيها.

أعدت السماعتين إلى حقيبتي ورحت أتأمل عبر زجاج الحافلة شوارع عاصمتي، كانت جميلة كما لم تكن يوما، وجميلة ككل يوم، كأن جمالها يزداد عند كل شروق مع أن جمالها لا يقل عن اليوم السابق، كان جمال شوارع عاصمتي سحرا لا يمكن فكه أو فهمه، كان للانبهار به وكفى.

لما بلغت الكلية توجهت كعادتي صوب قاعة المحاضرات لكني لمحت ما إن اقتربت من وجهتي متهمي جاثما عند بابها الرئيسي فخشيت أن يلقي بالتهمة على مسمعي مرة ثانية إن هو لمحني أمر بالقرب منه، استوقفت نفسي برهة عله يتخذ من زاوية أخرى مكانا له، لكن الرياح الباردة هاجمتني بقساوة

ففررت صوب مقهى الكلية.

طلبت كوبا من الشاي الدافئ ثم رحت أراقب الطلاب وهم يروحون ويجيئون بحثا عن أكواب دافئة تساعدهم على مواجهة شتاء بارد ذي ريح قاسية، وهكذا حتى لمحت أحد عمال المقهى وهو يهم بتشغيل التلفاز فتهيأت لأتابع ما تبثه شاشته، ولأن القنوات الوطنية الجزائرية لم تنل إعجابه بسبب برامج الأطفال التي طالما غزتها بتلك الساعة من النهار، راح يقلب القنوات العربية الخاصة الكثيرة التي طالما أحببنا متابعة حصصها الفكاهية وأفلامها العريقة ومسرحيات كبار نجومها.

وفي رحلة بحثه عن بث مثير للاهتمام لاحظ مثلما فعلت أن كل القنوات المصرية تتحدث عن فريقها الوطني لكرة القدم وتخوض في تفاصيل اللقاء المرتقب بتكهنات واقتراحات في استوديوهات استضافت فيما خيل إلي مختصين بهذه اللعبة.

سرعان ما عاد عامل المقهى إلى صب الشاي، وسرعان ما عدت إلى تأمل الطلاب، فجأة انبعثت عبارة واحدة من تلك الشاشة فعصفت بالأجواء كلها كأنها الإعصار: «لماذا يكرهنا الجزائريون؟».

عم السكون المقهى بعد أن شدت عبارة إعلامي مصري الطلاب والعمال كلهم، وقبل أن أدرك إن كان ما سمعناه صحيحا أو أنه قد خيل إلينا، إذا به يكرر عبارته ويضيف قائلا أنه يود رؤية انزعاجنا بخسارة المقابلة لأنه يكره تعالينا!

تعالت أصوات الجميع مستنكرين للذي ينطق به أحد أشهر الإعلاميين المصريين، قام أحد العمال وأطفأ الشاشة والغضب باد عليه، ثم أقسم بأعلى صوته أنه لن يتابع تلك القناة ولا إعلامييها مرة أخرى، ولا أعرف لم خيل

إلي لحظتها أني سأسأل هذا السؤال حين ألاقي مصر، ولكن الخيال لوحده استطاع زرع الضيق في صدري، فسارعت بترك المقهى لآخذ نفسا عميقا خارجه، ثم ما شعرت بنفسي وأنا أتمتم على مسمع زملائي كمجنون قائلة «كلا، ما هكذا سيكون اللقاء».

استجمعت أنفاسي ثم توجهت صوب قاعة الدرس لكن الأستاذ منعني من حضور حصته بسبب تأخري، عدت أدراجي إلى ساحة الكلية الشاسعة التي بدت على غير الأيام التي عهدتها بها خاوية من الطلاب والأساتذة، شعرت لأول مرة بذات الريح الباردة التي اقتحمت مكتبتي قد اقتحمت كليتي، كانت ريحا شديدة البرودة والقسوة، لم يرضها تطويقي فودت أن تفك أزرار معطفي لتصيب بسهم من جليد قلبي.

وأدركت وأنا شبه وحيدة بتلك الساحة أني أتشاءم مرة أخرى فحملت نفسي وعدت إلى بيتي عل وجود أمي وأبي من حولي يعيد إلي التفاؤل ويطرد ذاك التشاؤم بعيدا عني.

بلغت البيت بعد ساعة من الزمن فاستقبلتني أمي بالتحية وبالسؤال عن سبب عودتي المبكرة، أخبرتها أن أساتذتي كلهم قد تغيبوا عن الكلية فتظاهرت بتصديقي، طلبت إلي مساعدتها في تحضير طعام الافطار ففعلت، ثم جلسنا جنبا لجنب حتى نشاهد مسلسلها المصري المحبب، كانت أمي عليمة بأني لا أهوى مشاهدة التلفاز إنما أهوى قربها فراحت من سعادتها تحكي لي بشغف عن أحداثه حتى أستمتع بالحلقة التي كنا ننتظرها معا.

كانت أمي تجد في المسلسلات المصرية ما كنت أجده في كتبها؛ الألم والأمل والبساطة في كل ما تحمله الحياة، وعكس الكتب المعتنقة الضاد الفصيح، فإن لسان المسلسلات قد تبنى اللهجة المصرية التي طالما استحبتها قلوبنا حتى صارت أكثر لهجة عربية نفهمها.

كانت أمي تبتسم حين يبتسم الممثلون، وتحزن حين يحزنون، تقطب حاجبيها عند رؤية الشرير وسطهم وترسم ابتسامة على ثغرها لدى لمح الخير مقبلا، يتقلب مزاجها ليطابق الأحداث بعفوية جعلتني أمعن تأملها بدل متابعة الشاشة، أيقنت لحظتها أن للفن قدرة عظيمة على مواساة البسطاء، على منح اليائس شيئا من الأمل، على وهب المحزون قليلا من الغبطة، على جمع أم وابنتها، على جعل ابنة شاكرة لما رأته من شغف بعيون أمها التي بعيدا عن الفن نادرا ما تلمح بعيونها الطيبة شغفا.

قامت أمي بعد انتهاء المسلسل لتأخذ قيلولتها المسائية، ورحت أنا أقلب القنوات علي أتابع بثا آخر، ثم استوقفت نفسي دون أن أشعر عند شخصية مصرية وهي تحدث أحد الصحفيين قائلة أن الفريق المصري عازم على إسعاد الشعب المصري من خلال الفوز بالمقابلة المرتقبة، واصلت تقليب القنوات فلاقيت صدفة حوارا آخر جمع صحفيا بشخصية جزائرية وهي تؤكد أن الفريق الجزائري مصر على ادخال السعادة لقلوب الجزائريين عن طريق الفوز بذات المقابلة.

تتبعت كل ما نبست به شفاه شخصيتين لم أتعرف عليهما، أصغيت إلى السعادة الموعودة التي نطقا بها دون أن أجد لها وقعا في نفسي، فالفرح الذي يصرون عليه لا يبعث شيئا في دار الستة تماما كما لا يبعث شيئا بدار مصرية حزينة مهجورة، شعرت لحظتها أن في الوعد خطبا، غير أني ما استطعت تمييز ذا الخطب فقمت بعد ساعة من تقليب القنوات متجهة صوب غرفتي.

تمددت على تختي ثم مددت يدي وسحبت تذكرة سفري من درج مكتبي الخشبي الذي عثر عليه والدي ذات مرة فأصلحه وجلبه إلي هدية، تأملتها زمنا ثم أعدتها إلى المكان الذي خصصته لها، أغمضت عيني لكني لم أقو على الإبحار في يم عواطفي وخواطري مع أن موعد رحلتي قد دنا مني أكثر من أي

وقت مضى فكل ما تردد على مسمعي هو سؤال الإعلامي المصري الشهير «لماذا يكرهنا الجزائريون»!

دار بفكري قوله ونبرته ونظرته فاهتمام الإعلام كله بهذه المقابلة وحرص كل طرف على أن يكون الفوز حليفه، لكأن فرحة الواحد منهما مشيدة على حزن الآخر، ومهما بدا ذا الوصف قبيحا لأن المقابلة لا تعدو أن تكون لعبة، إلا أن تصريحاتهم ونبرات أصواتهم ولمعات عيونهم وحتى أنفاسهم، جميعهم، قد أوحت إلي بهذا الوصف، وكنت إذا ما حاولت تناسيهم تذكرت تهمة زميلي وصمت الباقين.

نال مني الأرق تلك الليلة أيضا فتقلبت ذات اليمين وذات الشمال عددا لابأس به من المرات قبل أن أغفو.

مرت تلك الليلة الباردة وحل من بعدها فجر ماطر فاستيقظت بصعوبة بالغة، نظرت إلى لوني الشاحب في المرآة ثم سألتها كيف استطاع أسبوع واحد أن يصنع بي هذا، فجأة خطر على بالي بألا أحد سألني عن خطبي بالرغم من لون التعب الذي ارتسم على ملامحي، ثم دار بفكري أني لو سئلت لعجزت عن الإتيان بجواب لأني لا أدري ما خطبي!

لم أك أشكو مرضا، لا بل كنت في تمام العافية، أزاول دراستي بالكلية التي اخترتها عن طواعية، قريبة من لحظة اللقاء التي طالما حلمت بها غير أني ما عدت أشعر بهذا كله، فما كان الخطب الذي ألم بي وحرمني الشعور بدنياي؟ أكان اهتمام الإعلام البالغ بالمقابلة، أم التهمة التي لم ترفع عني؟

كان من المستحيل أن يبرر الاثنان لوحدهما ما آل إليه حالي من أرق وفقدان للشهية وتعب بالجسد وتهاون في الذهاب إلى الكلية، فبالرغم من أنهما شغلا بالي إلا أنهما لم يبلغا حد حرماني من الشعور بحاضري وحياتي وعاداتي، فما

كان خطبي؟

كان فقدانا للطمأنينة، ولم أقدر الجزم لماذا هذا الفقدان ولكني أدركت لما أضاعت دقات قلبي نبضها المنتظم وليالي النوم الطويل الهانئ ونهاري شغفي بالدراسة والأدب، أدركت أني لا أطمئن، ثم لم أقدر الجزم متى بدأ هذا الفقدان واكتفيت بالقول في نفسي: «ربما يوم هوى الباب العتيق أو يوم تلوث بالدم الرغيف؟»

حضرت حقيبتي وهممت بمغادرة البيت للالتحاق بالكلية التي تغيبت عن عدد من حصصها ولكن اتصال أحد أقاربي استوقفني، فبالرغم من رد والدتي عليه إلا أنه أصر على تكليمي دون غيري، أمسكت السماعة وألقيت عليه تحية الصباح، وبدل أن يرد التحية سألني عما إذا كنت سأحضر المباراة التي ستجمع الفريقين في القاهرة!

لوهلة اعتقدت أنها واحدة من مزحاته التي طالما أحب مفاجأتي بها لكني سرعان ما استشعرت جديته، لم أخف عنه استغرابي فقد كان من أعلم الناس بأني لا أتابع هذه اللعبة، وبدل أن يقدم لي مبررا لهذا السؤال أقفل الخط، وضعت السماعة بعد أن أخبرت والدتي أنه أغرب اتصال تلقيته في حياتي، ثم تركت البيت ونسيت بعد أن سرت بضع خطوات بالشارع العريض حوارنا.

استوقفت نفسي عند أول معرض للصحف ثم حملتها صوب أول مقهى للأنترنت، هناك أبحرت في يم مقالات جزائرية وأخرى مصرية علي أجد دربا، علي أجد قنديلا، أو علي أعثر على ختام الحال غصت فيه يوم استوقفني المطر بالقرب من معرض للصحف، غصت فيه كمن وضع قدمه على رمال متحركة وهو يحسب أن ليست الرمال كالبحر.

غادرت المقهى وأنا أشعر أن أسماء بعض الصحفيين والاعلاميين قد لطخت

ذاكرتي، تماما كما لطختها وجوه شخصيات عامة رياضية وغير رياضية، جزائرية ومصرية، فلما بلغت الكلية توجهت صوب المقهى بدل التوجه نحو قاعة الدرس، جلست وحيدة فيه بعد أن طلبت كوبا من القهوة عديمة السكر، كأني أود من مرارتها أن تعيد إلي حاسة ذوقي فأستطعم مرة أخرى كليتي ومكتبتي ودربي، كأني أرجو من سوادها أن يعيد ذهن جدران ذاكرتي فيعاد إليها فضاء شاغر كان قد صار عامرا بتصريحات ونبرات ونظرات وأنفاس.

لكن ما يصنع الكوب الوحيد لذاكرة ما استطاعت أن تنعم بلحظات من الهدوء فقد جلست إحدى زميلاتي بالقرب مني، ثم سألتني عما إذا كنت سأحضر المقابلة فقد بلغها أثناء حديث جمعها ببعض الطالبات أني سأسافر قريبا لزيارة مصر، وقبل أن أتفوه بجواب قالت أني محظوظة حقا، لا بل أني أكثر فتاة ذي حظ قابلتها في حياتها كلها.

أخبرتها أن موعد المقابلة سابق لموعد رحلتي ثم لزمت الصمت وقلت في نفسي: «ما لهم يسألونني ذات السؤال، فحتى لو تصادف الموعدان فإن لي بسطاء ألقاهم وألف مكان أزوره وألف ألف عاطفة أحياها قبل لعبة لم أك يوما من متتبعيها».

«مالهم يسألونني ذات السؤال؟»، تمتمت على مسمع الكتب حين عدت إلى البيت بعد انتهاء الدرس في الكلية، جلست على أحد كراسيها والبرد المقتحم عنوة أرجاءها يحاول جاهدا إجباري على مغادرتها.

«لكأن حب كرة القدم واجب علي، ذاك يسألني لم لا أبدي في سبيلها حماسا، وذاك يتصل ليتأكد من تواجدي بملعب القاهرة، وتلك تعتبرني فتاة ذات حظ وافر، أتصدقين أن هنالك من يجد لي حظا موصوفا بالوفرة»، وبينما كنت منشغلة بالتمتمة على مسمع الكتب سمعت وقع خطوات أعرفها وهي تقترب منا، ثم ما هي إلا لحظات حتى أبصرت والدي جاثما وفي يده علبة

المعدات الخشبية.

ألقى علي التحية دون أن يجتاز العتبة فاعتلت وجهي ابتسامة وأنا أرد على تحيته ثم قمت وجثمت جنبه، استغربت تواجده بالقرب منا بذلك المساء البارد لكني كتمت استغرابي ورحت أتأمله وهو يفك قفل العلبة ويختار بعضا مما تحتويه ويضعه جانبا.

قال لي بصوته الهادئ أنه بحث عن البراغي المناسبة لباب المكتبة أياما دون أن يجد طلبه في المتاجر التي اعتاد اقتناء هذه الأشياء منها فهذه البراغي قديمة الطراز، ولكنه لم ييأس بل سأل أصدقاءه البستانيين والعمال البسطاء حتى وجد طلبه عند أحدهم.

فجأة توقف عن الكلام واسترسل ضاحكا ثم قال أنه يتذكر كيف كان عمال وزوار الدار يطلبون إليه منعي من الجلوس في المكتبة، لابل ويسألونه دق المسامير حول بابها المخيف حتى أعجز عن فتحه، قال أن ملامح القلق على وجوههم لا تزال تضحكه كلما عادت به الذاكرة إلى تلك الأيام الخوالي.

نظرت إلى تقاسيم وجهه الحزين وكنت قد أدركت أن والدي يحن إلى أيام مجد دار الستة مثلي تماما، تذكرت لحظتها الورد الذي بذره واعتنى به حتى تفتح الوردي منه والأبيض والأحمر والبنفسجي، ثم تذكرت البعض وهو يسأله منعي من المطالعة في الحجرة المتداعية ذي الباب المرعب، أخبرته أن زمنا لابأس به قد مر مذ حدثه آخر واحد منهم في هذا الشأن، هز رأسه مبديا موافقته ويداه منهمكتان في العمل، هكذا كان منذ صغري، يحدثني ويضحكني ويستمع إلي دون أن يتوقف عن رعاية أزهاره.

لزمت الصمت برهة ورحت أتأمله تماما كما كنت أفعل وأنا شبل بالدار، ودونما تردد سألته لأول مرة عن سبب عدم إصغائه لمخاوفهم ومزاعمهم، ابتسم

والدي وقال دون تفكير أنه لم يحظ في صغره بالتعليم الكافي الذي يمكنه من المطالعة، أنه لم يستطع اكتشاف ما تخفيه المكتبة بنفسه، وكيف كان يمر عليها شابا حين كانت بهية المنظر يود لو كان يستطيع القراءة مثل أترابه الجالسين باطمئنان من حولها، وكيف كان يرى سعادة القراء كلما دق ساعي البريد بابنا العالي وهو حامل صندوقا من كتب جديدة.

صمت للحظات وراح يتأمل الباب العتيق بعين تفيض حزنا، ثم عاد وابتسم وقال أن الكثيرين قد تذمروا أمامه من مظهرها ليحول دون جلوسي بها فامتنع، لا لأجل حلمه الدفين فقط ولكن علمه بأن قراء من قبل قد شعروا هنا بالاطمئنان والسعادة جعله على يقين أنها ستشعرني أنا أيضا بهذين الإحساسين، هز رأسه وقال وفي صوته عمق لم أعرفه من قبل: «الجزائر أرض أمان وكذلك مصر».

كان هذا سر والدي في إعطائي الحرية الكاملة بالمكتبة المهجورة مذ كنت طفلة تتعثر أثناء السير وتقع، كان هذا سر والدي الذي أذهلني عمقه، سره الذي لم يكشفه لأحد من قبل، فلما فعل أفصح عنه وعن الأمان في آن واحد، لكأنه عثر عن الذي فقدته فهب ليعيده إلي حتى أعود أنا إلى الحياة.

بقيت إلى جانب أبي أتأمل يديه وهما منشغلتان بالعمل، ثم لم يمض من الزمن سوى القليل حتى كان الباب العتيق سليما في مكانه، حمل والدي علبة المعدات ونزل الدرج مبتعدا عن الباب وعني، ورأيت في خطواته البطيئة تعبا كثيرا فأدركت أنه ما حمل عناء تصليحه في ذلك المساء البارد إلا ليشعرني بشيء من السكينة التي لاحظ أني لا أحظى بها منذ أيام.

أقفلت الباب العتيق وأنا أشعر بالرضى بعد أن عاد الأمان والدفء إلى كتبي، عدت إلى حجرتنا وتناولت صحنين كاملين من شوربة العدس التي قالت والدتي أنها قد حضرتها لأجلي، حدثنا والدي بعد العشاء عن فرصة

عمل عرضها عليه أحد الأثرياء، قال أنه سيزرع أزهارا وشجيرات كثيرة بحديقة قصره الفاخر، فلما أنهى كلامه طلبت إليه والدتي ألا يرهق نفسه كثيرا، فهؤلاء الأثرياء ذوو طبع متطلب جدا، وبين إصراره على أن العمل لا يتعبه وترديدها لذات النصيحة قمت وخلدت للنوم، غفوت بمجرد أن وضعت رأسي على الوسادة ولم أستفق إلا عند شروق شمس اليوم الموالي.

❄❄❄

كان شروقا مميزا في نظري بالرغم من كآبة اليم وعري الشجر واختناق الزرقة بالسحب، كان وبالرغم من كل هذا مميزا لأني ما استرقت النظر إلى الطبيعة من وراء بلور نافذتي، بل رحت أحدق إلى بطاقة سفري التي ذكرتني بأن أياما عشرا هي كل ما يحول بيني وبين اللقاء القدر، أيام عشر فقط وسأسير بعدها على ضفاف النيل، وسأسأله بلهجتنا: «واش راك يا زينة لنهار»، ثم سأصرخ بأعلى صوتي قائلة أنها تعني إزيك يا أجمل نهر.

شربت كوب اللبن قبل أن أغادر البيت صوب السوق كما أفعل في تلك الساعة من الأسبوع، استوقفت نفسي أمام أول معرض صحف اعترض طريقي ثم رحت أحملق إلى عناوينه العريضة، وأدركت فور قراءة أولاها أن يوما واحدا فقط هو ما يفصل الفريقين عن المباراة التي تتحدث الصحف وقنوات التلفاز والراديو عنها دون فاصل، ازداد لحظتها تميز ذاك الشروق في نظري بعد أن أيقنت بأن يوما واحدا هو كل ما تبقى حتى يعود الإعلام إلى الأخبار التي عليه نشرها، إلى الأصوات التي عليه رفعها، إلى الأحزان والمواجع التي يقع على عاتقه واجب كشفها حتى يسارع إلى طبها، يوم واحد وسأتنازل بعده عن هذه الزيارة التي أقوم بها لمعارض صحف البلدين.

تركت المعرض وواصلت السير صوب وجهتي، وبلغ مسمعي وأنا أصارع ريحا شديدة البرودة، بلغ مسمعي حوارات الناس من حولي وهم يتحدثون عن

المباراة؛ هذا يفصح عن طريقة اللعب التي يراها مناسبة، وذاك يشيد بلاعب على حساب لاعب آخر، هناك يقف من يذكر بنقاط قوة الفريقين، ليعود صاحبه إلى نقاط ضعفهما، وهكذا على طول الدرب الذي طالما سرت فيه على رهبة صمت الناس الراكضين خلف أعمالهم ومشاغلهم وهمومهم وأحزانهم وديونهم وحاجاتهم، وهكذا بدا الدرب صاخبا مختلفا عما كان عليه طيلة عشرين عاما.

«أمر غريب»، تمتمت بشفتين متخفيتين خلف وشاح الصوف الذي حاكته لي أمي، «أمر غريب فمد هذه اللعبة قد تجاوز الشباب المحب لكرة القدم وبلغ النسوة اللواتي طالما عبرن عن انزعاجهن منها خاصة حين ينشغل أزواجهن عنهن بسببها، لا بل وبلغ الأطفال الذين لا يتابعون في العادة مجرياتها بل يكتفون بلعبها حسب قوانينهم هم لا قوانينها المتعارف عليها».

وأنساني التنصت إلى أحاديث الجميع وقع الأغاني الرياضية المنبعثة من أغلب السيارات والمحلات، ثم أنسانيها هي أيضا منظر الدرب الذي زين بالأعلام الجزائرية لكأنه العيد الوطني، دوخني عدد الثياب الرياضية المعروضة للبيع في كل مكان حتى لو كان العرض به ممنوعا، هذا وأدهشني محي بكل زاوية ملصقا للاعبي كرة القدم أو شعارا رياضيا محفزا للفوز.

حملت المشتريات التي كان علي اقتناؤها وعدت إلى البيت وأنا أتبع ذات الشارع، أصغي وأتصنت وألمح وأندهش وأدوخ وأتمتم، فلما بلغت وجهتي وجدت والدي يقلب القنوات المصرية التي راحت تبث حاضر شوارع مصر، كانت هي أيضا مزينة بأعداد كبيرة من الأعلام الوطنية، تنبعث من زواياها الأغاني الرياضية المصرية وتملأ جدرانها صور اللاعبين والشعارات المحمسة للفوز.

توجهت صوب غرفتي ثم جلست قبالة الحاسوب، رحت أقرأ كل ما حملته

صحفنا والصحف المصرية من مقالات انشغلت كلها بهذه المقابلة حتى شغلت الناس جميعا، فلما أتعبني حبرها اللامتناهي تركتها لأتابع ما وضعه المنخرطون في شبكات التواصل الاجتماعي من آراء حولها، علهم يكشفون لي سر هذا الإهتمام، لكن عبثا فعلت، فكل ما عثرت عليه هو تناقلهم لتصريحات اللاعبين والمدربين ولصورهم أيضا، تناقلهم لمقاطع حصص رياضية يتحدث منشطوها عن ذات المقابلة، لتقارير إعلامية حول تدريبات الفريقين وخطط دفاعهما وهجومهما، هذا وتابعت وصفهم للفريقين بطرق جادة وهازلة وأخرى مستفزة، كان جليا لي وأنا أرى بأم عيني قدر اهتمام المنخرطين بهذه المقابلة أنها قد أضحت أهم حدث للشارعين العربيين.

مددت يدي إلى درج الطاولة وفتحته، نظرت إلى بطاقة سفري كأني أراها لأول مرة، سكنت زمنا ثم قررت منع نفسي من التفكير في الذي يحدث، تمتمت على مسمعها قائلة: «وماذا لو لم أكتشف سر اهتمام الاعلام بهذه المقابلة، وماذا لو لم أفك سر اهتمامهم بكرة القدم كلها، ستظل الحياة مثلما عهدت فليس هذا بالأمر الجلل، أعتقدني قد وقعت في فخ الدعاية الإعلامية مثلما فعل الباقون، انجرفوا هم وراء التشجيع وانجرفت أنا وراء سيل من الأسئلة، إنه صنف من الانفعال الذي كثر ما يرافق مباريات كرة القدم وإنه لزائل بمجرد انتهاء هذه المقابلة، وإن الصحف وغيرها من وسائل الإعلام ستعود لتهتم بمشاكل الحياة ومطباتها وكذلك القراء والناس جميعا، فكفاني تتبعا للذي يحدث، كفاني».

تركت غرفتي وقضيت ساعات الزوال في مساعدة والدتي بالأعمال المنزلية اليومية، فلما حل المساء توجهت إلى المكتبة المهجورة، سرت بين رفوفها زمنا طويلا بحثا عن كتاب للمطالعة، وأحسب أنها قد كانت المرة الأولى التي أطلت فيها البحث عن قطعة أدبية تناسب فكري وقلبي التائهين.

حسمت أمري بعد كثير من التردد ثم حملت ديوانا للشعر، غير أني سرعان ما شعرت بالظمأ فعدت إلى البيت لأرتوي، وبينما رحت أسكب الماء في الكوب بلغ مسمعي صوت صحفي جزائري وهو ينقل عبر شاشة التلفاز خبر اعتداء مجهولين في القاهرة على وفد فريقنا الوطني لكرة القدم.

جثمت برهة كمن استشعر وقع أقدام وهو وحيد بوسط غابة مظلمة، لا يدري إن كان الوقع حقيقة أم أنه قد خيل إليه وكفى، لكن هيهات أن يكون ما بلغ مسمعي وهما، فقد كرره الصحفي مرة ثانية بصوت عال حازم لم يترك في نفسي فسحة للشك.

أسرعت باتجاه مصدر الصوت ثم جلست بهدوء جنب والدي وبصري كبصرهما لا يفارق الشاشة، كانت تلك المرة الأولى في حياتي التي أشهد بها اعتداء على وفد جزائري بمصر وبعض المرات الأولى تصيب المرء بالشلل فقد عجزت للحظات عن الحراك والكلام لا بل وعجزت لوهلة عن أخذ نفس وكأن الهواء قد اختفى فجأة من تلك الغرفة البسيطة.

رحنا نشاهد القنوات المصرية والقنوات العربية التي نقلت خبر الاعتداء، تابعنا خطابات متعاقبة لأشخاص لم أعرف جلهم، تساؤلات لم تنفك تطرح حول الأمن المكلف بسلامة الفريق، حول شخص المعتدين المجهولين أو المأجورين كما لقبهم البعض، هذا وتابعنا التشكيك في الحادثة واعتبارها مجرد خدعة قام بها الفريق الجزائري من أجل نقل المباراة إلى ملعب محايد، كلام كثير ومتخالف ومتضارب ومحير لحدث مفاجئ، خطابات كثيرة، نبرات غاضبة ومهددة ومتهمة بلسان عربي.

«حبا بالله، ماذا يحدث؟»، تمتمت شفتاي الجافتان اللتان لم ترتويا، فجأة وكمن انقضت عليه مخالب حيوان مفترس ارتجفت عنيفا فقد شعرت بانقلاب الموازين كلها وبتعدي الكرة وصفها كلعبة لتضحي قضية للمحاكمة.

أكان هذا الانقلاب احتمالا قد سبق له أن مر مرورا خاطفا بمخيلتي؟ ذات مساء؟ ذات ليلة؟ ذات مرة؟ ذات لحظة؟ مطلقا، كان غريبا موحشا إلى حد أني لم أقو بادئ الأمر على تصديقه.

قمت ببطء وعدت إلى المكتبة بخطى متثاقلة، هب علي في الدرب القصير المؤدي إليها ألف ألف سؤال، والأسئلة إذا ما هبت بهذا العدد وبهذه السرعة فلأنها تريد أن تزيد من ضياع المرء لا أن تنتشله من حيرته.

وانتبهت وأنا في خضم الألف فالألف إلى أن يدي لا تزال تشد على كوب الماء، وما كنت لأفعل لوما الصوت الذي أحدثته حبات المطر وهي ترتمي من السماء إلى حضنه.

حين بلغت المكتبة أعدت ديوان الشعر إلى الرف بيد رعشة وكانت تلك المرة الأولى التي أرتعش فيها وأنا ألامس كتابا، جلست على الكرسي وحيدة مثلما تعودت ثم حاولت صد ما هب بفكري فعجزت، حاولت مجاراته ففشلت، وأتعبتني المحاولة وسبب لي العجز والفشل الصداع فغادرتها للعودة إلى حجرتنا بعد أن تركت كوب الماء والمطر جنب العلمين.

لما بلغت غرفتي نظرت عبر نافذتها إلى الليل المرخي بسدوله على الدنيا فعجزت عن رؤية اليم الذي ما وجد قمرا يضيئه ولا بواخر تزينه كحباحب رياض، سألته: «يا موجا يرتحل بين شواطئ البلدين، ماذا يحدث؟»».

رفعت بصري إلى السماء وتمنيت أن يحمل الغد المعجزة القادرة على التخفيف من وقع ما حدث، ثم كررت أمنيتي مرات ومرات فقد كنت على يقين أن الغد إن هو قدم فقير المعجزات فسيهوله ثمن فقره.

انزويت بتختي وتخفيت تحت بطانيته السميكة، تمتمت وغير الليل لا أحد يستمع، تمتمت أني لست بالوحيدة التي تعجز عن أخذ نفس عميق، أني

لست بالوحيدة التي تعجز عن النوم فكثير، كثير من الشخصيات الجزائرية والمصرية السياسية والرياضية والإعلامية والفنية تشاطرني الحال، ولكنها على خلافي تخط رسائل الغد التي ستخاطب بها الشعبين قائلة أننا أمة واحدة، وأن الذي حدث لا يتعدى أن يكون عنفا رياضيا لشباب لا يزال بسبب صغر سنه طائشا، ثم ستتصافح وستبتسم حتى تطمئن النفوس، حتى أطمئن ويطمئن الموج.

حل الصباح فقمت وأجفاني التي لم تلامس النوم لحظة واحدة، حملت حقيبتي وغادرت بيتي وسرت بتثاقل نحو الكلية، كان التعب باديا على محياي وظاهرا في نبرة صوتي حين كلمت بائع الصحف لأطلب إليه إحداها، دون تمييز بينها ولا اختيار مادامت جميعها تعتنق حبرا واحدا وجميعها تنشغل اليوم بذات الخبر.

أمسكتها بيد تكاد لا تقوى على مسك الأشياء وواصلت المضي في دربي، فكرت وأنا أتبع شوارع مدينتي البليلة بالمقابلة، فجل ما كان في وسعي القيام به هو التفكير بها وانتظار اللحظة التي يضع فيها حكمها تلك الصافرة في فمه ليعلن انتهاءها وانتهاء كل شيء معها.

بلغت الكلية التي كان الجميع فيها يتحدث عن حادثة الليلة السابقة، جلست على أحد مقاعد ساحتها بدل الجلوس بقاعة محاضراتها ثم رحت أصغي إلى حوارات غاضبة بسبب الاعتداء الذي مس وفدنا وبسبب زعم بعض الشخصيات المصرية أن الحادثة ملفقة بيد طاقمنا الرياضي، فقد كان ذا الزعم غريبا، كان مستفزا وظالما أيضا.

مددت يدي إلى الصحيفة وانطلقت أطالع ما خط فيها وكان جليا من عناوين صفحتها الأولى أن حبرا كثيرا قد سال حول الحدث، وكنت على يقين أن الصحف كلها، بمصر وبالجزائر وبالدول العربية الشقيقة وبالدول الغربية

أيضا قد كتبت ما شاء لها أن تكتب، ونقلت ما اعتبرته الأصح، وزعمت وأضافت وتجاهلت وتنبأت...

قرأت كل ما دون في الصحيفة ثم توجهت إلى أحد مقاهي الانترنت واطلعت على كثير من الصحف الجزائرية وكثير من الصحف المصرية أيضا، لابل واطلعت على صحف عربية وأخرى أجنبية، ولا أعرف كم من الزمن قضيته وأنا أتصفحها وأحاول ألا أغفل مقالا قد يكون الأهم، ومع أني وجدت فيها الكثير من التصريحات والتهم والتكهنات والزعم... إلا أني ما وجدت نفسي.

عدت إلى البيت دون أن أحضر درسا واحدا فقد قضيت ساعات الدرس كلها في المقهى، انزويت في غرفتي وما استطعت سوى التفكير في الذي يحدث وفي مقالات الصحف التي خطت عناوين عملاقة تكاد تشبه عناوين الحروب؛ الإعتداء الدموي، القاهرة تستقبل الجزائر بالحجارة، حجارة المتعصبين للمنتخب المصري تؤجج التوتر مع الجزائر، الاستقبال القاسي ضد الجزائر...

كان غريبا أن يراق كل هذا الحبر العملاق لرياضة عرفت بالعنف منذ نشأتها، كان غريبا ألا تتفاجأ الصحف العربية ولا الأجنبية مثلما تفاجأت بالذي حدث، وكأننا نعيش مثل هذا الحدث كل زمن قصير مع أن البلدين لم يعرفا مثيلا له قبلا، كان غريبا ألا تشير الصحف إلى علاقتهما المتينة، لا بل جعلت الاعتداء فعلا مؤججا للتوتر السائد بينهما مع أن التوتر لم يعرف قط في تاريخهما، كان غريبا أن تتجاهل تاريخ البلدين لتكتب أن مصر كلها تستقبل الجزائر كلها بالحجارة، كان غريبا في نظري كل الحبر الذي قرأت لكنه لم يكن كذلك في نظر الصحف، فما كان في قاموسها؟ فأنا لا أعرف سوى قواميس الكتب والرسائل الصادقة.

جثمت بالقرب من النافذة وألقيت وأنا على هاته الحال بنظري إلى اليم إلا أنه ما دعاني إلى أحضانه كما يفعل في كل مرة يتحسس فيها كآبتي ومخاوفي،

وكأن الأزرق الحزين ود لأول مرة لو أدعوه أنا إلى أحضاني.

تركت عيناي اليم ثم جالتا بأرجاء فناء البيت فوقعتا على الأرجوحة الملقاة أرضا مذ اجتثت شجرة التوت الأبيض العملاقة، حركني شوق عارم إليها فقد كان هزها الأمر الوحيد القادر على مواساتي.

حل المساء المنتظر فخلت شوارع البلدين كما لم تفعل يوما؛ لا مار يعبر رصيفها ولا طفل يلعب بأرجائها ولا بائع متجول ولا شيخ جالس على أحد المقاعد، التف الجميع حول شاشات التلفاز لأجل المباراة، وجلست أنا أمام شاشتي لأتابع لأول مرة في حياتي مقابلة للعبة أطلق عليها اسم كرة القدم.

ما إن وجهت بصري إلى تلك المساحة الخضراء حتى استشعرت حماسا مفرطا ألقى بظلاله على المناصرين كلهم فدق قلبي دقا قويا، ثم عاد وخفق ببطء، كنت كالجميع أوجه بصري نحو الشاشة، وعكسهم كلهم لم يكن بصري متعلقا بمجريات المباراة بل بهتافات الجماهير القوية، بنظرات عيونهم، وبتضاريس شرايينهم التي برزت في رقابهم، سعيت مرات ومرات إلى أن أعثر في تلك الكرة على هذا السحر الذي يلفت الأنظار ويستميل الأنفس ويشغل الفكر ويسكن القلوب غير أني ما استطعت لمحه، لكأنه كان مخفيا بتعويذة مستحيلة الكسر، فجأة صفر الحكم معلنا نهاية المقابلة بفوز الفريق المصري ومعلنا كذلك تعادل مجموع الفريقين، فخوضهما مباراة فاصلة أخرى.

لم أستوعب في تلك اللحظة سبب إجراء مقابلة أخرى فقد كنت أبعد ما أكون عن قواعد كرة القدم، هذا ولم أشغل بالي بمحاولة إدراك السبب فقد غمرتني الحيرة وأنا أتساءل في نفسي: «أيحق لي تناسي هذه الأيام، أم علي انتظار صافرة نهاية المباراة الثانية»، ولكنني سرعان ما استطردت وأنبت نفسي بسبب هذا التشاؤم، تمددت على الأريكة ثم رحت أتابع واحدة من الحصص الرياضية التي بثت عبر إحدى القنوات.

كان المعلق وضيوفه يتحدثون عن أهم مجريات المقابلة، وعن أهدافها ونقاط الضعف التي لا بد من مراجعتها، وعن أخطاء التحكيم وتجاوزات الجماهير، وكنت أستمع إليهم الواحد تلو الآخر فأجد الكثير حول هذه اللعبة ولكني لا أجد شيئا من الذي فجرته في داخلي من أسئلة وحيرة وضياع طيلة أيام، فجأة قطع الحصة خبر عاجل عن اعتداء طال المناصرين الجزائريين في العاصمة المصرية...

عادت نبضات قلبي إلى الدق بقوة واختفى الهواء مرة أخرى من حجرتنا الضيقة، تتابعت بعد هذا الخبر الأخبار عن الاعتداء الجسدي واللفظي الذي تعرض له العشرات في القاهرة، ثم سرعان ما راح أحد المناصرين الجزائريين يصرخ مؤكدا مقتل شاب جزائري بيد معتدين مصريين مجهولي الهوية.

وضعت يدي على قلبي الذي شعرت بالصقيع يدب فيه لكأن فصل الشتاء كله قد غزاه، ارتعشت يداي كأنهما يدا عجوز تجاوز المئة عام ثم تصلبتا كأنهما يدا جثة، فقدت القدرة على الكلام والحراك فبدوت كتمثال بتلك الحجرة البسيطة.

بصعوبة مددت يدي المتشنجة إلى جهاز التحكم ثم رحت أقلب القنوات التي راح بعض إعلامييها يتحدثون عن التخريب الذي مس أموالا مصرية في العاصمة الجزائر بيد شباب جزائريين ما إن بلغهم خبر الاعتداءات التي طالت المناصرين، هذا وراح أحدهم يصرخ قائلا: «إن جزائريين ينادون بقتل أي رعية مصرية يلمحونها بالشارع».

وفي خضم هذه العاصفة المهولة من الأخبار الرهيبة والإدعاءات المرعبة والصراخ المخيف العنيف، في خضم هذا كله كنت وحيدة على أرضي الوحيدة أتمتم دون أن أشعر: «كفى، حبا بالله كفى»، وفي خضم هذا كله لم يصرخ أحد من الذين استأثروا بحق الكلام العلن «كفى».

لا، لم يصرخ أحد «كفى» فلم أقدر الابتعاد عن شاشة التلفاز، لم أستطع كبح نفسي من النظر إلى كل ما بث من هذه الأخبار طيلة ساعات منتظرة صرخة تقول «كفى»، منتظرة اللحظة التي أفيق فيها من هذا الكابوس الرهيب، أو اللحظة التي يسدل فيها ستار المسرح على هذه التمثيليات البشعة، منتظرة كل شيء استطعت تخيله وكل شيء لم أعرف كيف أتخيله في سبيل أن يكون ما أحياه كل شيء عدا واقعي.

قمت والليل قد جاوز منتصفه إلى غرفتي، لا لأني رغبت في ذلك بل انصياعا لأمر والدتي التي لم تعرف ما تصنع لوحيدتها التي تحتفظ ببطاقة سفر إلى مصر، أمي التي عرفت مذ ولادتي ما يليق بها وما يتوجب عليها أن تفعله من أجلي، قد أعجزها الذي يحدث عن إيجاد الفعل المناسب، تظاهرت بشكل مقنع أنها مصيبة بقرار إبعادي عن تلك الأخبار، وكانت مثلي عليمة أن تتبعها أو الهروب منها قد أضحيا سيان، فتلك الأخبار قد صارت الدنيا كلها.

انزويت تحت بطانيتي وفكرت في الذي يحدث بالعاصمتين، وهل سيحمل لهما الفجر هدوءا أم سيحمله الشروق، ومن ذا الذي سيصرخ «كفى» ومن سيؤيد صرخته ثم تمتمت: «ما طب أوجاع هؤلاء الذين اعتدي عليهم».

بتلك الليلاء الفارقة عن كل اليالي لم يسمع تمتمتي أحد، لم يلق إلي بجواب واحد، لم أعثر على بوصلة حقيقة الذي يحدث فتقلبت في التخت مرات عجزت عن عدها، مددت يدي إلى الكوب الموضوع بجانبي لأبلل شفتي اللتين جفتا كأنني مصابة بحمى، هذا ومسحت دمعي بكفي قبيل الفجر تماما كما عودت نفسي أن أفعل قبل بلوغ العشرين.

أقبل اليوم الموالي فعجزت عن الذهاب إلى الكلية، قد كنت مرهقة القوى، تعبة الجسد، ذابلة العينين يكاد لا يبدو أني فتاة بنت العشرين ربيعا، هذا ولم أشعر بالذنب بسبب إخلاف الوعد الذي قطعته لوالدتي قبل أيام حول عدم

التغيب مرة أخرى فكل ما شعرت به في ذلك الصباح هو ضياعي في حاضر دخيل ومخيف.

لم أقم من تختي حتى بعد أن بلغ اليوم ظهيرته ولم تطلب إلي والدتي أن أفعل، سألتني مرة واحدة حين جلبت لي كوب اللبن أن أرافقها إلى السوق فلما اعتذرت امتنعت عن الإلحاح، عاملتني كما تفعل في كل مرة أكون فيها مريضة بحمى أو بزكام، فهي لا تجلب لي الطعام إلى الغرفة لأن للطعام مكانه، ولا تسمح لي بالخمول والتغيب عن الكلية لأن لي دراسة ومهاما منزلية أقوم بها، ولكنها تخالف قوانينها جميعا إذا ما نال مني المرض ليضحي رجاؤها الوحيد هو شفائي.

شعرت أمي أن في أعماقي ضياعا وأنه لن يزول قريبا، أدركت المرأة التي أنجبتني والتي لم تحرمني يوما من المكتبة وما فيها من روح مصر أني أحيا صراعا سيشتد وأنها لن تقدر على حمايتي منه ولا على خوضه عوضا عني، وجل ما استطاعت القيام به هو تقبيل جبيني قبلة تشبه دعاء للنجاة.

غادرت أمي البيت وبقيت فيه وحيدة أستمع إلى صوت المطر، شعرت لحظتها بحاجتي لصديق أقص عليه أسئلتي والأمان المفقود وتهمة زميلي وكل ما خالجني من بعد أن احتميت ذات صدفة بسقيفة جنب معرض للصحف، كنت لأرضى بصديق يستمع حتى لو لم يملك جوابا واحدا، لا بل وكنت سأرضى بصديق يستمع حتى لو صب على حيرتي حيرته.

فتحت درج طاولتي ونظرت إلى تذكرة السفر الموضوعة فيه، لمستها بهدوء ثم حملتها وجثمت أمام النافذة، نظرت إلى الدنيا من حولي، إلى اليم الحزين والمطر الغزير والشجر الفقير من اللون الأخضر والطير واليمام ثم ذرفت دمعة نابعة من قلب ما امتلك الدقات القوية القادرة على مجاراة الذي يحدث، وفكر ما عثر بعد على مفتاح صندوق أسرار محكم الإغلاق.

أطلقت نفسا طويلا حارا وقلت للشتاء بصوت يائس: «قد حركت مشاعري بأكثر من الرياح والزخات، قد عصفت بها وجرفتها كسيل عارم، فهل قرب موعد الربيع أم تراك أيها الشتاء فصل أبدي؟»

تركت غرفتي وجلست أمام شاشة التلفاز، قلبت القنوات وأسئلتي، غيرت الحصص والاحتمالات، ثم ما أفصحت لأحد عن شيء مما خالجني وصارعني، لا دنوت من الورق ولا من القلم ولا من الصحف فقد كنت أنتظر بتوسل لحظة تبث فيها تلك الشاشة مفاجأة تغير مجرى الأحداث بالبلدين فتحيل دمعتي ابتسامة، وخوفي أمانا، وأرقي سكونا.

لم أغادر بيتي أو الأريكة الموضوعة جنب شاشة التلفاز في ذلك اليوم الكئيب، لم تبلغ مسمعي المفاجأة التي انتظرتها ساعات طوال، ولم تهدأ العواطف التي هبت بفؤادي والأفكار التي تلاطمت بفكري فبقيت معتنقة الصمت جاعلة منه ملجأ مع أن ملجئي هش ورث يستحيل أن يدوم للأبد.

حضرت والدتي حساء العشاء لوحدها ولم تطلب إلي القيام بأي عمل قصد مساعدتها، أما أبي فقد اكتفى بالجلوس بالقرب مني ومتابعة القنوات التي اخترتها، فلما جلسنا إلى طاولتنا الخشبية تكلم والداي عن سعادتهما بنفي سفير مصر خبر مقتل الشاب الجزائري، وعن سعادتهما بعدم صحة خبر إطلاق دعوة للعنف اتجاه الرعايا المصريين بالجزائر، ثم أبديا استياء شديدا ما رأيته من قبل وهما يتساءلان أن كيف يستطيع البعض أن يطلق عنان كذب كهذا.

اكتفيت بالإصغاء لهما دون مشاركتهما الحديث، تذوقت الطعام ثم ادعيت الشبع، تظاهرت بالخلود للنوم إلا أن النوم لم يقرب أجفاني سوى مرة واحدة لم تدم سوى ساعة من الزمن.

في صباح اليوم الموالي توجهت إلى المخبزة القريبة لأبتاع منها الرغيف كما أفعل في كل مرة تطلب فيها والدتي مني القيام بهذه المهمة، كانت تود أن أترك البيت زمنا قصيرا حتى تنتشلني من ذاك الصمت الذي تعرف أنه جزء من طباعي، تماما كما تعرف أنها تمقته حينا، وتخاف منه أكثر الأحيان، إلا أنها لن تحاول تحطيمه عنوة، فتحطيم طبع بالعنف قد يحطم الكيان كله للأبد.

سرت ببطء نحو وجهتي، وبلغ مسمعي أثناء السير حوارات الجميع وهم يكررون كل ما بثت عبر قنوات التلفاز وكل ما خط في الصحف حول الاعتداءات التي تعرض لها مناصرونا بالقاهرة، بلغ مسمعي حواراتهم بكل الطرقات وبكل موقف للحافلات، أمام كل مدرسة ومعمل ومقهى ومتجر، حتى بالقرب من الجامع الأبيض فقد كان من المستحيل أن يجتمع الناس دون أن يتحدثوا عنها مبدين غضبهم وأسفهم.

كان الحديث عن هذه الاعتداءات بكل مكان مررت بجنبه فأحزن كل حديث قلبي، لأن الاعتداءات التي طالت أبناء جزائري لم تكن في بلد أجنبي بل في مصر التي لم نعرفها سوى بلدا مرحبا بنا، بلدا نلجأ إليه ويلجأ إلينا، لا بلدا نفر منه ويفر منا.

كان محزنا لقلبي الفتي الإصغاء إلى هكذا حديث وإلى حوارات تقص تفاصيل المضايقات التي تعرض لها مصريون مقيمون بالجزائر، وتصف التخريب الذي مس بعضا من أموالهم، قال أحدهم أنه لا بد من رد الإساءة بمثلها، وقال آخر أنها لم تك قط بالجسامة التي صورها بعض الاعلاميين المصريين، ولكن المواجهة التي ستقع بين أنصار الفريقين حين يلتقون في المباراة الفاصلة التي ستجمعهما بعاصمة السودان لن تنتسى، فكلانا يود الانتقام!

هنا توقفت عن السير دون قصد، فقد شعرت بدقات قلبي تتسارع حتى كاد ينفجر، ثم تتباطؤ حتى كاد يتوقف، ولوما الاستغفار الذي رحت أردده

في نفسي لما استطاعت الصمود هذه المضغة.

عدت إلى البيت هرولة، وضعت الرغيف بالمطبخ ثم جلست أمام الحاسوب لأتحقق من صحة الإشاعة التي بلغت مسمعي، ولجت بسرعة إلى صفحات التواصل الاجتماعي التي كانت مرآة تعكس وجه الشارعين العربيين، وتمنيت وأنا أنقر على فأرة حاسوبي أن يكون ما ألقي كقنبلة يدوية على مسمعي مجرد حديث طائش، ولكني فوجئت بمجرد أن نقرت عليها بتعليقات خطها آلاف من شباب البلدين، يعلنون استعدادهم للسفر إلى السودان من أجل حضور المباراة، يتوعد ويهدد كل طرف منهما الآخر وهو كاشف عن غضب لم أره ولم يحك لي عنه من قبل، هذا ويطالب كل على حدة رئيس جمهوريته مساعدته للسفر إلى ما لقبوه... بالمعركة!

«المعركة»، تمتمت قبل أن أخفي عيني بأناملي، «أين الجميع من الذي يحدث؟ أين الإعلام؟ أين المشاهير؟ أين السياسيون؟ أين الفن؟ أين الشعر والنثر والرسم والنحث والعزف والرقص؟ أين الجميع؟ أين كل هؤلاء الذين يستأثرون بالصوت العلن؟»

فارقت أناملي الباردة الهزيلة عيني، فعدت إلى شاشة الحاسوب ورحت أتأمل مناصري المنتخبين؛ كانوا كثرا، يافعين، مندفعين، حزانى وغاضبين، حملقت مطولا إليهم فلم أقو على رؤية الفارق بينهم جميعا، فقد كانت لغتهم الضاد، ودينهم الإسلام، وبريق عيونهم حامل لروايات تاريخ مجيد وحاضر قاس ومستقبل مشترك مبهم، حملقت مطولا وبالرغم من حملهم للعلمين، وترديدهم للنشيدين الوطنيين، ووقوفهم في صفين مختلفين إلا أني قد رأيتهما واحدا.

«هل سيتصارع أبناء أمتي، لست تقول لا، وألف لا، فهل صمتك يعني أجل؟ لا تواصل التزام السكوت بل قل لي لماذا؟ إن كنت ستقص علي ما حدث في الأيام المنصرمة فصه، صه لأني عليمة به، ثم امض في جوابك بعيدا

عنها فهذه الأيام لا تقدر جعل أبناء الجزائر ومصر يقفون هذه الوقفة، أخبرني عما تراه من عل فأنا لم أبلغه يوما، لم أحلق ولم أكشف أسرار الناس ليلا»، قلت للقمر الذي سرعان ما تخفى وراء السحب، أبى أن يحكي فلطالما كان خجولا كتوما.

أصغيت زمنا إلى المطر النازل غزيرا، ثم ناديت على اليم الذي أخفاه سواد الليل قائلة: «أيم، أوتعلم أني سأسافر بعد أسبوع إلى مصر؟»، لم يقل اليم الحكيم شيئا فانزويت في التخت وأنا أخشى النوم، أخشى أن يغمض لي جفن فأرى في كابوس تعارك أبناء البلدين الشقيقين، أخشى الكابوس ويتملكني الرعب من أن يصير الكابوس واقعا.

«ألا يخشى الآخرون النوم؟»، تمتمت وأنا وحيدة مثلما تعودت: «ألا يتملكهم الرعب، أولئك الذين يستأثرون بالكلام المسموع دون أن يرسلوا سلاما لقلوب تعتقد أن عليها التعارك».

قمت من التخت عند شروق الشمس بعد ليلة منعني الخوف فيها من النوم، رحت أشغل نفسي بتنظيف زجاج البيت وأنا أردد قائلة أني لن أطلع على الصحف ولن أشغل شاشة التلفاز لكأن واقعي سيختفي إن أنا تجاهلته، لكني سرعان ما عدلت عن ذا الموقف، وجلست أمام الحاسوب للنظر إلى صحف البلدين، إلى ذاك الحبر الذي لا يشبه حبر الكتب، لا، قطعا لا، هذا ولا يشبه حبر رسائلي.

حبر لا يشبه حبر الكتب ولا حبر رسائلي راح يصف بعبارات الفخر والتبجح الأسراب الجوية التي تنقل آلافا من المناصرين الشباب إلى العاصمة السودانية الخرطوم لحضور المباراة، سرب جوي جزائري هو الأول في التاريخ بعد أن أمر بتسخير طائرات عسكرية ذات الاستعمال المدني لهذا الحدث، هذا وأمر بدعم أسعار تذاكر الرحلات وبسن إجراءات تسمح باستخراج جواز

السفر في يوم واحد بعد أن كانت الإجراءات تتطلب أسابيع، أما في مصر فقد التحق بالمناصرين كثير من الفنانين والبرلمانيين وكذا إبنا رئيس الجمهورية، شعارات تنادي بحياة هذا وتلعن حياة ذاك، تصريحات كثيرة للاعبين ومدربين وكذا مشاهير البلدين في الإعلام والموسيقى والسينما والرياضة والمسرح يطلبون كل على حدة من أبناء بلدهم السفر برفقتهم للمساندة والتشجيع والوقوف بقوة وثبات، أغان حماسية بالشوارع والأزقة والساحات، شعارات على الجدران ولافتات في كل مكان، مئات من الشباب بالمطارات يهللون: «الله أكبر، الله أكبر، خذونا إلى أم درمان»...

فاقت بشاعة ذا الخبر قدرتي على الاحتمال وقارب الضيق في صدري على خنقي فحملت مطريتي وغادرت بيتي ثم انطلقت أسير في شوارع عاصمتي...

سرت بشوارعي الجميلة أتأبط ذراع الوحدة وأشد على يد الصمت، شعرت بالغضب في كل زاوية مررت بها ولم أك قد استشعرت الغضب في تلك الزوايا من قبل، كنت قادرة على رؤيته بوجوه المارة تماما كما كنت قادرة على إبصار الأسى، كانا شعورين دخيلين نحو مصر، شعورين لم تعرفهما قلوبنا نحوها، تمتمت والسماء ملبدة تكاد تبكي: «وفي زوايا شوارعك يا مصر غضب وأسى، دخيلان لم تعرفهما قلوب المصريين نحونا».

تظاهرت وأنا أتبع الشوارع واحدا واحدا بأن لي وجهة محددة، وأحسبني قد أتقنت التظاهر مع أني ما جربته من قبل، رحت أبحث أثناء تتبعي للشوارع عن جزء مفقود لما نعايشه من الأحداث، فوحده هذا الجزء الذي لم أعرف أبشر أم جماد كان ليقدر إعطائي مفتاح صندوق أسرار حاضري.

«آه، كم هو قاس وغريب العالم خارج مكتبتي، لكأن الكتب ورسائلي لم تولد فيه، أو أنها لا تعنيه، أين كل ما قرأت وكتبت عنه؟ كل ما أشعرني بأنا واحد؟».

سرت وأنا أجر سؤالي وحيرتي وضياعي زمنا طويلا تحت المطر الذي راح فجأة يزداد غزارة كأنه النحيب والعويل، بللت حباته وجهي وخصل شعري ووشاحي ومعطفي، فلما نال مني البرد بسبب البلل سارعت صوب أحد المتاجر لأحتمي به.

جلت بأرجائه وأنا أرى ولا أرى ما عرض فيه من السلع، لوهلة استوقفت نفسي بالقرب من حقيبة وردية صغيرة الحجم، رحت أتأمل تفاصيلها فدنا صاحب المحل مني وأثنى على ذوقي ثم سألني إن كنت مسافرة، أجبته بكل عفوية قائلة أن تخمينه صحيح، دونما طلب أخبرني عن ثمنها ثم سألني عن وجهتي!

صمت برهة من الزمن، حملقت إليه للحظات، شرذت في ذلك اللون الوردي هنيهة ثم أخبرته بأن الحقيبة لا تناسبني وهممت بمغادرة محله هرولة فسارع بالاعتذار قائلا أنه قد بالغ بالسؤال وبلغ به خصوصياتي.

تظاهرت بقبول اعتذاره ثم غادرت محله وغادر معي ذلك الشعور الذي تملكني لما سألني عن وجهة سفري والذي أوحى إلي بأن أكتم حقيقة أني كنت سأحمل تلك الحقيبة الوردية إلى القاهرة، استوقفت نفسي وسط الشارع وكنت قد أدركت لحظتها أني لن أجد جوابا للذي يحدث في هذا العالم الذي يجبرني على كتم لقائي بوطن عربي، فطنت إلى أني لن أعثر على جواب واحد في شوارع البلدين وفي صحفهما، وعلى شفاه كل من ينقل لي أخبارهما لأن الجميع يخفي الجواب عمدا عني، كانت تلك هي اللحظة التي أيقنت بها أني لن أحصل عليه سوى قبالة المرآة السحرية، أيقنت أني لن أعثر عليه سوى في المكان الوحيد الذي لاقيت فيه من قبل كل الأسرار.

عدت إلى البيت هرولة، وسارعت ما إن بلغته نحو المكتبة، ركضت على درجها المبلل بأقصى ما لدي فوقعت وجرحت ركبتي، لكني لم آبه بل قمت

وواصلت الركض حتى بلغت رفوفها.

بحثت فيها عن ديوان أو كتاب أو كتيب يجيب عن تساؤلاتي التي تؤرقني وتفقدني شهيتي وتتعبني وتجبرني على الجلوس في المقعد الأخير وتسير بي تحت المطر، فتشت عن نص أو مقال أو قصيدة واحدة، قصة طويلة أو قصيرة، رواية حقيقية أو وهمية تفسر لي الذي يحدث، تكشف أسراره، تكسر أقفاله، تفك ألغازه، لكن المكتبة التي حوت ألف كتاب وكل جواب وكل عاطفة وكل فكرة وكل مبدأ لم تحو صفحة واحدة أو فقرة واحدة أو سطرا واحدا تبوح به ما واقعي.

توقفت عن البحث لما أيقنت أني أطلب من المكتبة ما لا تملكه، نظرت إلى الفوضى التي سببتها لأول مرة فيها بعد أن خربت نظام رفوفها كلها ثم أخبرتها أنها المرة الأولى التي لا أجد فيها جوابا، هناك تراءى لي بعد أن دب اليأس في قلبي، تراءى لي أني أواجه ما رفض الكتاب والأدباء والمصلحون تدنيس حبرهم به.

جلست على البلاط وتمتمت على مسمع الأرض المهجورة: «إنها هي وآلها ومبادئها الذين لا أعرف عنهم جميعم شيئا، ها هي تكشر لي عن أنيابها وتبرز لي مخالبها وتنقض على روحي وتحاول تمزيقها، تلك التي ألقيت بها في التجاهل تأبى اليوم إلا أن تذكرني بوجودها وبالرذيلة السارية في عروقها».

غادرت المكتبة وأنا ألف الصمت حول عنقي كوشاح، لا، بل كحبل مشنقة، عدت إلى حجرتنا وتأملت ما إن بلغتها أرجاءها الضيقة التي اختفت منها تلك الألحان والتمثيليات المصرية التي كنت أقوم بترديدها وبلعبها، وعادت للاختفاء أيضا تلك السعادة التي لم أشعر بها مذ دمرت دارنا، خلدت إلى النوم دون أن أجلس لطاولة الطعام ولكني لم أغف بل اكتفيت بالتخفي تحت ملائتي.

كنت وفجر اليوم الموالي نعلم أن أمي أيضا ما استطاعت النوم، وأنها قد رسمت في خيالها مقدمات كثرا، وتصورت حديثا مطولا، وشدا وجذبا للآراء، وقوافل من الأسباب والأعذار، وأنها لم تكن واثقة من قدرتها على الإقناع إلا أنها قد كانت على يقين بوجوب اقتناعي.

ثم رحل الفجر وبلغ اليوم الظهيرة، ولم أتفاجأ لما دقت والدتي باب الغرفة حاملة كوبا من اللبن، جلست بجانبي وراحت تشتكي عطل الفرن مجددا، وتشيد بمهارة والدي في إصلاحه مرة أخرى، ثم قالت وهي تنظر عبر نافذتي لتتحاشى عيناها لقاء عيني أني سأحب ربيع مصر، وكانت أكثر الناس علما أني أحب بمصر الفصول كلها، ولكنه قلب الأم الذي شغله الخوف مثلما شغل قلب جميع أمهات البلدين.

لم أنطق ببنت شفة، لم أحرك ساكني، لا، هذا ولم أتجاهل كلماتها وكيف لي أن أفعل، كنت لا أزال راغبة في اللقاء غير أني شعرت وأدركت وأيقنت بأن الخيار لم يعد ملكي بل ملك الناس كلهم من حولي، شعرت وأدركت وأيقنت أن علاقتي بمصر خارج المكتبة علاقة يشاركني فيها الغير ويحكمها ويقرر مصيرها.

لم أغادر غرفتي أو تختي طيلة ذلك اليوم البارد، لم ألق بنظري على صحف البلدين ولا على قنواتهما التلفزيونية ولا على مواقع التواصل الاجتماعي، كنت منزوية فيه وحيدة بأفكار وعواطف لا يعنى بها العالم من حولي، كنت أشبه بيتي مرة أخرى، فقد كان كلانا مهجورا، بعد أن كان كلانا بسيطا.

فجأة علت أصوات منبهات السيارات في الشارع الرئيسي فتركت غرفتي هرولة وسارعت صوب شاشة التلفاز التي راحت تنقل حال الجماهير بعد انتهاء المقابلة الأخيرة؛ غبطة وغناء ورقص في شوارع الجزائر، وحزن وبكاء ودموع في شوارع مصر.

«من صنع بنا هذا؟ من أضحكنا وأبكانا في يوم واحد؟ من أسعدنا وبث فينا التعاسة بفضل وبسبب ذات الحدث؟ من أطلق زغاريدنا وزفراتنا في ذات الآن؟».

تمتمت وأنا أقلب القنوات، أبحث عن الذي هدد به المناصرون المسافرون إلى السودان بعضهم بعضا، أبحث وأتمنى ألا أعثر على ضالتي، أبحث وأتمنى أن يكون كل ذاك التهديد وعيدا زائفا من فرط الغضب، من فرط الانفعال ومن فرط الحزن.

فجأة راح فنان مصري عبر اتصال هاتفي يصرخ قائلا أن المناصرين الجزائريين يعتدون على المناصرين المصريين بالسكاكين والسيوف، وأنهم يشتمونهم ويشتمون مصر كلها، ثم علت صرخة إعلامي مصري وهو يقول أن المصريين يموتون في السودان، أن الجزائريين يقتلون أشقاءهم المصريين في العاصمة الخرطوم: «...نناشد جمهونا يقتل الجزائريين المتواجدين بمصر، عندنا جزائريين بمصر، نرحلهم، نموتهم...»

ضاق صدري من جديد فعجزت عن أخذ نفس عميق، لوهلة شعرت أني سأفقد الوعي أو أن الوهن بقدمي سيسقطني أرضا: «هل يكتب اليوم تاريخ جديد بسجل البلدين، هل يدون فصل عراك واعتداء ودماء، هل رفعت الخناجر والسيوف بأيدي هؤلاء الذين لم يطلب منهم صوت واحد ألا يتعاركوا؟»

قلت في نفسي وأنا أرفض أن أصدق، أرفض أن يدون هكذا تاريخ، أن تكتب الصحف العالمية هكذا عنوانا، ثم قطع همساتي وخطاب أناي المستشار الطبي في سفارة مصر بالسودان وهو يصرح في اتصال هاتفي أنه ووفد من اثني عشر طبيبا قد جابو شوارع الخرطوم ومستشفياتها دون أن يعثروا على مصاب واحد.

انقطعت الكهرباء فجأة فانقطع معها صراخ يزعم بأن الجزائريين يعتدون على أشقائهم المصريين، قمت والسكون كالظلام مخيم ثم عدت إلى غرفتي بخطوات تشبه الزحف كأنني شبح ببيت مهجور معتم، جثمت بالقرب من نافذتي ورحت أتأمل اليم في جوف الليل:

«أيمي، حزين أنت منذ زمن، حزين حتى قبل أن أحزن، وحزين حتى قبل أن ألحظ، كنت تروح وتجيء فيلقي الكثيرون بأسرارهم إليك، وبعض الأسرار حمل موجع، كنت تعلم أن عهدا غير الذي ألفنا سيقدم، لكنك ما أفصحت عن الذي كنت على علم بمقدمه، أأمين أنت كل هذه الأمانة، أم تخيفك الفضفضة مثلي؟».

طلعت شمس اليوم الموالي على بيتي فأنارت كل زواياه تماما كما فعلت بقصور الأغنياء من حوله، قمت بصعوبة وغادرت غرفتي، حضرت كوبا من القهوة عديمة السكر، ثم ارتشفتها بفناء الدار جالسة على جذع شجرة التوت المجتث، ملتحفة بوشاح من الصوف ومستأنسة بالنسمات التي راحت تلاعب خصلات شعري الأسود الطويل.

أبيت صبحها الاطلاع على معرض صحف البلدين ومعرض صحف الوطن العربي والعالم كله فقد كنت على يقين أن حبرا جارحا قد غزا بياض الورق، كنت قادرة على تصور تلك العناوين العملاقة والصور الكبيرة التي شغلت الصفحات الرئيسية، كنت قادرة على تصور التصريحات الكثيرة والمقالات المتعددة والاتهامات والشكوك والمفردات المنتقاة والعبارات المختارة، كنت قد أضحيت دون رغبة مني خبيرا بحبر الصحف تماما كما كنت خبيرا بحبر الكتب، ولكني واسيت نفسي قائلة: «قد انتهى كل شئ الآن، آن للنسيان أن يحط رحاله».

عدت إلى حجرتنا بعد زمن، جلست جنب المدفأة ثم رحت أتابع شاشة

التلفاز التي شغلها والدي قبل مغادرة البيت صوب العمل، رحت أتابعها لأنظر إلى نهاية الحدث، ويا للهول! كل ما لاقيته هو أصوات شخصيات مصرية شهيرة تصرخ وتشتكي الاعتداء الذي أصابهم في الليلة السابقة، اعتداء لم تثبته صورة واحدة بزمن لا أمر فيه أسهل من التقاط الصور.

كان صراخهم يتردد بأرجاء بيتي كله، وبأرجاء كل بيت بالجزائر وكل بيت بمصر وكل بيت بالوطن العربي، كنت جنب مدفأتي أزداد شعورا بالبرد كلما ازداد عدد الصارخين وكلما علت أصواتهم، قمت بعد زمن تاركة مدفأة اتهمتها زورا بالعطب ثم جلست قبالة حاسوبي لأطلع على آراء المنخرطين في شبكات التواصل الاجتماعي، ووسط كم هائل من الشتائم والكلام الجارح مصريون يقومون بحرق العلم الجزائري وجزائريون يقومون بحرق العلم المصري، ووسط كم هائل من الصراخ والعويل والتهديد انفجر غضب المصريين بسبب الاعتداء الذي يقسم بعض من مشاهيرهم بصحته وانفجر الجزائريون غضبا بسبب اعتداء همجي ينسب إليهم دون أن يثبته دليل واحد، وسط هذا الكم كله من الغضب راح يطالب كل شعب على حدة سحب سفيره وغلق السفارة وقطع العلاقات الدبلوماسية.

وسط هذا كله صمت، فبالرغم من هول الضجيج لم يك هناك صوت واحد يسعى لأن يبعث شيئا من السلام، صوت واحد لشخص واحد يحمل بيده العلمين معا.

فجأة، دقت والدتي باب غرفتي وهي تحمل صحنا من الحساء، وضعته بجانبي وراحت تحدثني عن الذي شاهدته في السوق، بدا جليا أن أمي تود تهريبي من الأحداث وهي تكلمني عن إناء الفخار الذي تمنت اقتناءه لولا ثمنه الباهض، تحاول رسمه في الفضاء بكلتا يديها لتبدي لي حجمه الكبير وشكله الذي يشبه ساعة الرمال.

قلت: «أمي»، فتوقفت عن الكلام ظنا منها أني سأسألها أمرا يخص ذا الإناء، لكني ما كلمتها عن لونه أو زخرفته أو ثمنه، بل عن سوارها الذهبي الوحيد الذي ما لمحته عيناي أثناء تتبعي لحركات كفيها الناعمتين، ابتسمت وقالت أنها ستشتري سوارا آخر غيره، ثم قامت بسرعة وغادرت غرفتي وهي توصيني بتناول الحساء كله.

«والتي لا تملك ثمن الفخار أنى لها بثمن قطعة من الذهب»، قلت في نفسي وقد أدركت أن أمي قد وهبتني السوار ليتحقق اللقاء الحلم: «هذا اللقاء قدري، تخلت والدتي لأجله عن السوار الذي ورثته عن جدتي، ومن غيري يعلم كم أحبت أمي سوارها، وكم تباهت به أمام النسوة اللواتي طالما عبرن عن إعجابهن به، سوارها الذي كان كل حليها، وكل زينتها، وكل ثروتها، وكل ما تبقى من ذكرى أمها»، تمتمت ودمعي ينهمر غزيرا: «ويأتي من بعد أمي من يتساءل قائلا لماذا يكرهنا الجزائريون؟ أوليست أمي الأحق بمنبر علن؟»».

جثمت قرب نافذتي ورحت أتأمل المطر المنهمر، مسحت دمعي وكنت قد صرت خبيرا بإزالة آثار حزني وانكساري ثم رددت: «ويوما سأقتني فيه لأمي سوارا وعقدا وحليا كثيرا».

حل الليل الحزين وأقبل من بعده الفجر الكئيب، هكذا رأت عيوني الطبيعة وهكذا ترى العيون الباكية الحياة، بعثت بسلامي إلى اليم ورحت أتأمل موجه ثم سألته عن عذابه وهو يرتحل بين شواطئ البلدين، فلكأنه أوحى إلي بأن قدره كقدري؛ قد كتب على أرضين.

وقطع وحيه إلي نداء أمي فلبيت النداء، جلست بالقرب منها على الأريكة وبيدي قطعة كعك ساخن كانت قد حضرته لأجلي، تماما كما كانت تفعل حين كنت طفلة أطلب إليها ثمن لعبة لا تملكه، كانت تخبرني أنها لا تستطيع اقتناء اللعبة ولكنها قد دونتها أعلى قائمة مشترياتها، وأنها ستجلبها بمجرد أن

تقبض قليلا من المال، وكنت أخبرها أني أصدقها فتسارع إلى تحضير بعض الكعك الساخن بقليل من الطحين والسكر وبيضة أو بيضتين، تسارع إلى تحضيره بقالب القلب وآخر على شكل عصفور حتى لا تشعر بأنها لا تستطيع تقديم شيء لصغيرتها.

أمي التي باعت سوارها لأجل أن تلبي لي حلما واحدا، شعرت أن طفلتها قد لن تنعم بالحلم فلم يتبق لها سوى الكعك الساخن ليشعرها بأمومتها، لم تسألني لحظتها عن الكلية، لم تؤنبني بسبب تغيبي عن محاضراتي، لم تطلب إلي القيام بمهامي المنزلية كأنها قد سمحت لي بالتنازل عن كل شيء شرط أن أتنازل عن السفر أيضا.

غادرت سيدة البيت البيت نحو السوق دون أن تطلب إلي مرافقتها، كنت على يقين أنها ستفكر بسفرتي طيلة دربها، بل إنها لن تفكر في غيرها، بدت لي خطواتها وهي تسير بفناء الدار متجهة صوب الباب الخلفي، بدت لي تعبة متثاقلة على غير عادتها.

شغلت التلفاز ورحت أقلب قنواته وأنا أرى ولا أرى ما يبث فيه، كانت صورة أمي وهي تغادر حجرتنا تتردد بمخيلتي فقد شعرت بالذي يخالجها ويخيفها ويرعبها ويعجزها ويؤنبها أيضا: «يا للحياة، يا للأحداث، لا أمي استطاعت حمايتي منهما، ولا أنا استطعت حمايتها»، فجأة دوت صرخة قطعت شرودي، فجأة دوت صرخة جعلتني ألتفت صوب الشاشة بكل جوارحي، فجأة دوت صرخة إعلامي مصري أرجاء البيت كله وهو يصف شهداءنا الأبرار بالمليون والنصف مليون جزمة...

سكنت وتجمدت في مكاني، يحسبني الرائي تمثالا وضع قبالة الشاشة، أو جثة فارقت للتو روحها، وقبل أن أستطيع الإتيان بأي حركة تعالت صرخة اعلامي ثان وهو يقول عنا أننا شعب لقيط.

بأبي وأمي ما آلمني في حياتي كلها تجريح كهذا الذي نطقت به شفاههما، بأبي وأمي ما وخز قلبي عبارة كهاتين العبارتين، كأنهما السم القاتل، كأنهما السحر الأسود.

سكنت بعد أن عجزت عن تصديق ما تلفظا به، وقبل أن أقدر الإتيان بحركة إذا بغيرهما يسارعون إلى وصفنا بأبشع ما قد يصف به الأخ أخاه، نعوت ذميمة وقبيحة رمتها أفواههم لتسيء إلى وطني الحبيب وشهدائه الأبرار وأبنائه الطيبين، ألفاظ جارحة وموجعة وقاتلة هزوا بها قلبي دون أن يستوقفوا أنفسهم لحظة واحدة ليتساءلوا عما يرجونه من عدائهم للأرض التي لطالما استقبلتهم وأحسنت ضيافتهم وكرمتهم وأشادت بفنهم وأعمالهم، ليتساءلوا عما يرجونه من تمثيل مصر بهكذا خساسة، بهكذا خيانة لكل القيم التي سقتهموها.

عادت أمي من السوق باكرا، كانت ستهم بالحديث بمجرد أن تجاوزت عتبة الباب، كانت ستخبرني عن الذي ينطق به مشاهير مصريون، كانت ستخبرني عن حزن الجزائريين وصدمتهم في الشوارع والسوق والحافلة وجنب المسجد الأبيض وفي كل الزوايا التي مرت بها، لكنها استوقفت نفسها وكبحت خطابها لما لاقت عيونها عيوني الدامعة، اختنق صوت أمي بالبكاء فسارعت إلى ضمي إليها بقوة كأنها تحاول إخفائي عن ألفاظهم حتى لا تصيبني، تحاول حمايتي من ألسنتهم ونواياهم، من سمهم وسحرهم....

ببطء مددت يدي الهزيلة إلى درج الطاولة ثم سحبته، نظرت مطولا إلى التذكرة التي بداخله ثم حملتها برفق، قلبتها بأناملي مرات ومرات ثم رفعت بصري إلى الرقاص فأشار إلى أن ساعة وبضع الساعة هو كل ما يفصلني عن موعد الرحلة.

بدا لي واضحا حينها أنه ما عاد في وسعي السفر، فمصر لم تعد أرضا يطرقها الجزائريون والجزائر لم تعد أرضا يطرقها المصريون، استحال بذلك العهد

أن يكون لحلمي ميلاد، استحال لقدري في اللقاء أن يكتب، لم يترك لي سبب ولا عذر ولا أمل فمزقت تذكرتي بيدي ثم سرت وأنا أكاد أهوي نحو المكتبة...

الفصل الرابع

كانت المكتبة ورغم الضيق في أرجائها الفضاء الوحيد القادر على احتوائي لأنها المكان الوحيد الذي تعودت الانزواء به كلما شغلني هم وألم بي حزن ووجع، لأنها الأرض المهجورة التي لا يبحث فلا يعثر الآخرون عليها: «فعسى أن تكون الغرفة السحرية التي لن تجد الأحداث بين الجزائر ومصر سبيلا إليها».

سقطت ما إن بلغتها على بلاطها المتصدع فقد شعرت ما إن تجاوزت عتبة بابها العتيق أن لي التخلي عن ذلك القناع الذي أخفيت به ما يصارعني وينازعني ويذرف دمعي ويخض مضجعي، أني أستطيع كشف أوجاعي وأحزاني ومخاوفي دون إجهاد نفسي بالتظاهر بالأمان، شعرت ما إن تجاوزت عتبتها أني أحظى بين جدرانها بالحرية لأحيا كياني، وما كيان المرء سوى أفكار وعواطف.

حاولت وأنا واقعة أرضا أن آخذ نفسا عميقا، غير أني عجزت فقد أبصرت من ملجئي البسيط والمهجور والسحري سوادا في علاقة الجزائر ومصر مع أن السواد لم يعرف في علاقتهما قط، ورأيت في خضمه الإسلام والعروبة والماضي كله ثم نفخ على مسمعي كمعجزة أبواق الغد فوضعت يدي على صدري وتمتمت قائلة: «ألا أيها القلب، كيف ستحتمل؟».

وتمنيت والقلب يخفق ويرتعش أن يطرق الباب العتيق ثم يسارع الطارق إلى ضمي، يشد بقوة على كتفي ويواسي سعادتي المسلوبة مرة أخرى، يرثي قدري كما ترثى الدار والمكتبة والشجرة المقطوعة واليمام المنفي، لكن الناس خشوا بابي، فكانت الوحدة كما ألفت كل زواري.

قمت بهدوء ثم جثمت بالقرب من رفوف المكتبة ورحت أبحث فيها عن الكتب الممزقة أوراقها، فلما جمعت عددا لا بأس به حملتها وجلست إلى الطاولة الوحيدة وحيدة.

راحت يداي تطبان هذه الكتب، فلطالما وجدت الصفحات الممزقات جرحا قاتلا لا يلتئم إلا بعد إعادة لم شمل هذه الصفحات بمجلدها، لم يكن كبر عمر بعض الكتب ليمكنها من احتمال صقيع فصل الشتاء فكنت أجتهد حتى لا تتلف بتفقدها والاعتناء بها طيلة موسمه.

لوهلة نظرت عيناي الكئيبتان إلى الأوراق البيضاء الموضوعة فوق الطاولة، ذكرني بياضها بالأيام التي لم أكتب فيها شيئا لأني لم أقرأ شيئا، والحقيبة بجانبها، انتظرت بصبر دورها لتذكرني ما إن رمقتها بعين تفيض وجعا وحزنا أني لا أحملها للذهاب إلى الكلية وأني لا أمد يدي إلى الدفاتر التي بداخلها.

تمتمت قائلة: «قد غيرت أحداث البلدين حياتي، أبعدتني عن المطالعة والرسائل والكلية، حرمتني النوم وأفقدت طعامي وشرابي ذوقهما فأنا لا أقربهما إلا نادرا وأكتفي إذا ما اقتربت بالقليل القليل منهما».

طأطأت رأسي وعدت إلى مداواة الكتب، كل ما شعرت به في تلك اللحظات هو الحزن والألم فقد اخترقت الأحداث التي عاشتها الجزائر ومصر في بضعة أيام صدري ونهشت قلبي الفتي الذي لم يعرف قبل هذه الأيام شقاقا بينهما أو خلافا، لا بل طالما استأنس واطمأن للعلاقة المتينة التي تربطهما، اخترقت صدري ثم نهشت قلبي كضباع الغاب الجياع.

تمنيت والشمس تغرب وديمة من الدمع على خدي، تمنيت الهرب من تلك الأحداث لتفادي الألم الذي تسببه لي والحزن الذي تغرقني فيه، غير أني كنت عليمة بألا وجود لمهرب منها فقد كانت في كل مكان بحاضري، لا بل كانت هي حاضري كله وما كان في وسعي الوثب وثبة نحو مستقبل لا وجود لها به، أو العودة بخطوة إلى ماض لما تكن قد ولدت أثناءه بعد.

تمتمت سائلة نفسي إن كانت هذه بداية عهد جديد ميزته الخصام والعداء

بين البلدين، غير أني ما تلفظت بالجواب فقد بدت كأنها بداية العهد حقا، وأنى لها ألا تكون بعد صنيع بعض الإعلاميين والمشاهير المصريين، وكان من الممكن ألا تكون لولا صنيع بعض الإعلاميين والمشاهير المصريين، وآه على صنيعهم، خلف في قلبي جرحا لا تضاهيه في الألم الجراح وحزنا لا تضاهيه في العمق الأحزان، فنحن شعب شقيق ولد من خصر عذاب، قاسينا ويل الاستعمار الفرنسي ووحشيته عقودا طوالا، ثم لازلنا حتى أقسمنا على ألا تتعذب جزائرنا فوهبنا مليون ونصف المليون شهيد للوفاء بهذا القسم، لاقينا العشرية السوداء التي أخذت من دمنا الكثير الكثير بيد الغريب وبيد القريب، ثم لازلنا حتى أقسمنا على ألا تنزف جزائرنا فوارينا أوجاعنا وأثآرنا الثرى لنهديها فصلا جديدا، نحن شعب صنعنا أفراحنا بيدنا وقدمناها لوطننا، فكيف استطاع بعض الإعلاميين والمشاهير المصريين التبرؤ من هذه الأخوة ثم التهجم على عذابنا وتضحياتنا بالإهانة والتحقير والشتم.

بتلك الحجرة المهجورة إلا من أنفاسي تردد صدى أصواتهم على مسمعي فبكيت وسط سفراء مصر القدامى دمعا حارقا على الجرح والحزن الذي خلفه صنيعهم في القلوب، وبينما حاولت البحث عن منديل لأكفكف به دمعي وقع ناظري على علم مصر الذي كان فوق طاولتي رفقة علم الجزائر، سكنت فجأة، نظرت إليهما مليا، حدقت بهما مطولا، ثم خاطبتهما قائلة: «أقدركما اليوم الفراق؟».

أتصور بعضكم وهو يقول نعم، وأتصور بعضكم الآخر وهو يقول أجل، ومن لم يقل منكم شيئا هز رأسه موافقا، فيا من أصدرتم حكمكم، لقد ترافقا قرابة الخمسين عاما؟

وبالرغم من خفق قلوبكم بسبب هذه السنين الطوال التي هي فوق أعمار بعضكم وضعف أعمار بعضكم الآخر، إلا أنكم ما زلتم على حكمكم حتى

قبل أن تجمعوا على سبيل واحد لإصداره، وها أنتم تطالبونني بالتفريق بينهما، ولستم وحيدين في هذا الطلب فكل من وما أنجبه أواخر عام ٢٠٠٩ قد أراد مني إبعادهما عن بعضهما، فصلهما فإعلان الشقاق والخلاف والخصام والقطيعة وكل عواطف الغضب والكراهية، وكان علم الجزائر وعلم مصر في تلك الأثناء ينظران إلي وينتظران حبري... أو هكذا شعرت.

لا أعرف كيف تذكرت ما إن سألت في نفسي إن كانت لحظة الفراق قد دقت، تذكرت أول مرة قمت فيها بإزالة الغبار عنهما بالماء الصافي فتجفيفهما ثم إعادتهما إلى مكانهما بالرغم من أني قد حاولت استرجاع هذه الذكرى من قبل ولم أفلح، نظرت إلى الأنامل التي اعتنت بهما سنينا وسنينا ثم كفكفت بها دمعي.

وها أنتم تتساءلون لم كفكفة الدمع بدل مدهما لتفريق العلمين؟ وها أنا أعترف مرة أخرى أني أتصور أفعالا وأقوالا مختلفة ومتضاربة لكم إذا ما شعرت بالضيق حتى أختلس لحظة آخذ فيها نفسا عميقا، ولكني لا أتصور هذا الطلب فأنا أراه في عيونكم تماما كما رأيته في عيون غيركم، وسواء تطلبون إلي التفريق بينهما بلين أو بعدوان فأنا لست بمتضايقة ولا براضية ولا تعتريني عاطفة غير عاطفة الألم والحزن، فالألم والحزن اللذان طرقا باب علاقة البلدين قد كانا أكبر من أن يتركا مكانا لعاطفة غيرهما في نفسي.

ولي أن أتصور الآن إلحاحكم الشديد لمعرفة مصير العلمين المترافقين ببيتي، ولكني أرفض عمدا الحديث عن قدرهما قبل أن أقف عند الألم والحزن الطارق لعلاقتنا؛ الجزائر ومصر وأنا، ومع أني لا أملك في نظر الكثيرين حق الوقوف عندهما إلا أني أحظى بهذا الحق على ورقي لأنني الراوي، وسبق وأخبرتكم بأن سرد المرء لروايته لابد أن يمنحه هبة...

لم أعرف يا من بلغتم هذا الفصل من الرواية، لم أعرف حين انزويت بالمكتبة

بعد أن مزقت تذكرتي مكانا آخر قادرا على احتوائي، هذا ولم أعرف وأنا أعنى بصفحات كتبها الممزقة شخصا آخر راغبا في العناية بها، أتذكر، وكيف أنسى الليل الماطر ونور المصباح الخافت، الورق الأبيض والحبر الأسود فالبليل المتسلل من ثقوب النافذة الهرئة، العين لم تحدق إلى غيرها والأنامل لم تلامس سواها، لربما اشتهى الرسام لو علم بمرآنا رسمنا، ولربما ترك القلم عقيما والورق بورا برفضه الدنو من بابنا البسيط، ما همنا الرسام وما شغلنا، فقد كان يرضينا وينسينا الوحدة والصقيع علمنا بأن أول ما تنزل من الكتاب الكريم يتجلى فينا.

وبقينا جنبا إلى جنب والصمت ثالثنا، ومع أني رغبت في طرد الغريب عنا لأتكلم على الورق وأبوح بما في نفسي، إلا أني أبقيته عسى أن يدق البلدين طيب يحمل طيبا فنعود إلى سابق عهدنا، نعود إلى سابق ودنا حتى لا يبقى للذي في نفسي جدوى، لكن مر الزمن ولم يبلغ مسمعي فيه صوت عدا أنفاسي وصفحاتها، فلما أنهيت طبها وضعتها جانبا ثم عدت إلى تذكر الأحداث بكل تفاصيلها...

تذكرت أول صحيفة قرأتها وآخر قناة تتبعتها وما بينهما، أول صباح تأخرت فيه عن كليتي وأول مرة تغيبت فيها عنها وتهمة زميلي والمقعد الأخير، رغيف الدم ولحظة سقوط الباب العتيق فبطاقتي التي مزقتها، الوجوه الكثيرة بتقاسيمها، شوارع البلدين وما رفع فيها والذي خط على جدرانها، اليم الكئيب والقمر الكتوم والسؤال الذي أعجز المكتبة، ثم تردد على مسمعي مرة أخرى كل التجريح الذي رمونا به؛ بلدي وشهداءنا الأبرار وشعبي وأنا، فحزنت مرة أخرى، حزنت وشعرت بألا شيء قادر على إذهاب حزني، جرح جرحي مرة أخرى وكنت على يقين بأن الحكماء لا يقوون على طب جرح يزداد عمقا كلما حاول أن يلتئم، ثم نظرت من حولي فأبصرت العلمين بالزاوية اليمنى كأنهما يكلمانني دون أن يكلماني.

دسست رأسي بين ذراعي وأطبقت جفني، كان التعب جراء الليالي التي هجرني فيها النوم وتركني للأحداث أدبر فيها باديا علي، وكذلك كان النحول بسبب قلة الطعام، حاولت أن أغفو مرة ومرة أخرى لكن هيهات أن يحظى المحزون بالقليل منه، رغبت في ذرف العبرات مجددا ولكني عدلت عن هذه الرغبة فقد كنت على دراية بأن عبراتي تعجز عن تخفيف ألمي وحزني ولو قليلا وأنها ستزيد من تعبي كثيرا، ثم إني لن أواسي بها نفسي ولن أجد بها مؤنسا، فجأة شعرت أني فارقت العشرين ودنوت من الهرم.

بدا أن الشعور الذي خالجني وهم إلا أنه لم يكن كذلك فمع أني لم أفارق ما شعرت بأني فارقته، ولم أدن من الذي شعرت بأني دنوت منه، إلا أني فارقت حقا كل ما تبقى في أعماقي من سذاجة فصل العشرين الأولى ومضيت أكثر في ذلك الفصل الذي تغرز فيه الحياة أنيابها بكياننا، ثم إن فراق ذلك والدنو من ذاك ذو وقع شبيه بفراق العشرين والدنو من الهرم؛ فكلاهما متعب وموجع ومفروض بحكم القدر، وكلاهما حنان إلى عهد الصبا والفتوة الأولى.

رفعت رأسي وأخذت نفسا عميقا فشعرت باختلاف عطر ذلك العهد؛ قد كان كمزيج من غضب أبناء البلدين، عطر يفوح من كل البيوت، من شوارع كل المدن والأرياف، حتى من السهول والوديان والصحاري والجبال، عاصف كالرياح الهوجاء، قوي جارف لكأنه يتفجر من الأرض ويتهاطل من السماء.

كنت أشعر به قد بلغ المكتبة المهجورة، يحاول أن يوقع بابها العتيق ليتخذ لنفسه مكانا برفوفها كأنه فصل رهيب لقصة لعنة ذي حبر لا يجف، كان ذاك العطر شبحا يطوف بالأرجاء.

وانقضت تلك الليلاء وأقبلت شمس اليوم الموالي، اخترق شعاعها الذهبي ثقوب نافذة المكتبة فبدا كحباحب صغيرة على الخشب، تأملته زمنا ثم قمت وفتحت النافذة لأجد أن نبعه قد أنار الدنيا كلها فدبت الحياة في كل حي

وتجلت زرقة السماء فزرقة اليم.

تمتمت قائلة: «إنها الشمس، وحدها تنير الكون كله وبرحيلها يسدل عليه اللون الأسود، نبع حياة الإنس والدواب والزرع، صاحبة الفضل في زرقة السماء واليم، إنها الشمس، الكوكب الثابت الذي تحوم حوله الكواكب، واللهيب الحارق لكل من وما يحاول الدنو منه».

لا أعرف لم سحرتني الشمس بذلك الصباح مع أني أعرف الشمس مذ خلقت، لا أعرف لم شكرتها وبعث لها بسلامي كما لم أفعل من قبل، ربما لأنها الوحيدة التي زارتني بالمكتبة عقدين كاملين والوحيدة التي ما كانت لتحرمني الزيارة سواء أحسنت الضيافة أم ضيعت آدابها.

لكن، وبالرغم من طلوع هذه السيدة المعجزة إلا أني قد أبصرت مرة أخرى السواد في علاقة الجزائر ومصر داكنا مرعبا فأدركت أنه سواد لا ينجلي إلا بالقلم:

حملت نفسي على ألا أكتب ما يخالجها وما يعصف بها مادام في نفسي شيء من الأمل، أما وقد رأيت السواد بعد الشروق فلا أجد أملا ولا أجد إلا أن أنكب على ورقي وقلمي.

لربما غضبت الشمس لقولي، ولربما نقمت علي جحدي بعد عشرين عاما من الكرم، فلا تغضبي أيتها المعجزة ولا تنقمي، إنك لو علمت ما أكتم عنك لما رأيت النور في ذاتك.

أبلغت من اليأس ذروته؟ لا، لا، بل بلغت اليوم الذي لا أرى فيه سوى أمتي ولا أرى بعده غيرها، وأحسب أني قد بلغت اليوم النضج كله.

الألم يعتصر جوارحي بعد الذي بلغت، والحزن يم لامست قراره،

وإذا ما حاولت أن أجد منفذا للشفاء والفرج شدني إلى حالي الأول نظرة واحدة إلى حاضري...

إن ما يخالجني من شعور هو ما يدفع بي للانزواء في المكتبة فأنا لا أعرف غيرها مكانا لألمي وحزني لأنها الزاوية التي ربيت فيها مذ ميلادي ولأنها ملاذي الذي ألجأ إليه كلما ألم بي هم وحزن ووجع، أحضا فيها بالحرية فأكشف عن كياني أفكارا وعواطفا محفوظين على الورق.

إني أنظر من زاويتي المهجورة إلى كل الذي عصف بنا؛ أحاول إعطاءه اسما فتضيق به كل الأسماء، وأحاول أن أمنح له وصفا فيتمزق عليه ثوب كل الصفات، فلا أجد إلا أن أعترف به قضية تدفع بي وبقلمي للوقوف وقفة جد لم نقفها من قبل.

إني لا أريد منك أيها القلم أن تحجب حقيقة مهما قست، أو أن تضيف للناقص وهما ليكتمل، أو أن تزين واقعا بشعا مهما أفزعت بشاعته طرفك الأملس الناعم، لا أريد منك أن تبدي عاطفة وتكتم عواطفا، ولا أن تطلق عنان فكرة وتأسر أفكارا، عليك أن تكون ما كنت عليه دوما؛ أناي حبرا، عسى أن يكون لنا بعد هذا اللقاء رسالة هي أولى رسائلنا للعلن.

أي قلمي، قاس على كلينا هذا اللقاء وسيحمل ندوب قسوته علينا الورق، فما أشجع البياض وما أقواه.

أي قلمي، سألت في نفسي ذات مرة وأنا أتصفح دفتر جرد المكتبة قائلة: «لم توقفت دور النشر المصرية عن إرسال الكتب هدية إلينا»، سألت مرة في صمت، وكان علي أن أسأل أكثر، بصوت أعلى عن الدفتر الذي ما سجل كتابا قادما من مصر

مذ الأعوام العشر التي سبقت ميلادي، ثم سألت في نفسي وأنا لا أعثر في المقررات المدرسية حفظا لمساندة مصر للجزائر أثناء ثورتنا الجبارة، ولا حفظا لمساندة الجزائر لمصر أثناء حرب أكتوبر المجيدة، قائلة: «أمس كتب التاريخ سحر محى هذا الجزء»، سألت مرة في صمت، وكان علي أن أسأل أكثر، بصوت أعلى عن الكتب التي ما عادت تسرد ماضينا.

لا، لم ألح في السؤال بل مضيت قدما وأنا أشعر بالاختلاف عن الجزائريين الذين لم يطالعو كتبا مصرية ولم يرحلو بفكرهم وأفئدتهم ليدقو على أبواب بيوتها، ليسيرو بشوارعها، بمدنها وقراها، فلم يتعرفو على أهلها، كاختلافي عن المصريين الذين لم يطالعو كتبا جزائرية فلم يقدمو إلينا بفكرهم وأفئدتهم، ولم يدقو أبواب بيوتنا، ولم يسيرو بشوارعنا، بمدننا وقرانا، فلم يتعرفو علينا.

أجل، شعرت بالاختلاف وواصلت المضي قدما فقد حسبت الاختلاف أمرا عاديا، لكني استوقفت نفسي لما شعرت بنفسي غريبة وسطكم، جميعكم، مهجورة على عكسكم، بل ومتهمة في وطنيتي على خلافكم كلكم.

لا أعرف كم قارئا قبلي عذب بذنب أنه صادق كتبا عربية، فاحترق في صمت بين بلدين، وتوجع وبكى وتألم وحزن ومزق حلمه أمام ناظريه، ولكني أعلم بأني لو سئلت لاخترت هذا القدر مرة أخرى ولفضلت هذا العذاب كله على أن أمد يدي لأؤذي بالتفريق علمين عربيين.

لا، ما آذيت العلمين لأني قرأت عشرين عاما، ورافقت السفراء القدامى، أجل، كنت أقرأ حين توقفت دور نشر البلدين عن

الاهتمام بارسال مخطوطاتها لبعضها بعض لتملأ مكتباتنا ومكتباتكم بالضاد الصادق الأصيل، كنت أقرأ حين قرر عدم تدوين تفاصيل علاقة البلدين بكل عظمتها في المقررات المدرسية حتى تكتشفها الأجيال وتحفظها وتحترمها وتقدسها وتحمل على عاتقها مسؤولية استمرارها، كنت أقرأ بينما كان من لا يقرأ يتعرف على الجزائر من خلال شاشة التلفاز وكفى، وكنت أقرأ حين كان من لا يقرأ يتعرف على مصر من خلال شاشة التلفاز وفقط، فحسب هؤلاء أن مصر هي منتجعات فاخرة فجولة بقارب باهض الثمن على نهر النيل وكفى، وحسب أولئك أن الجزائر هي شاطئ ساحر للاستجمام وواحة ذهبية من حولها فنادق فخمة وفقط.

كنت أقرأ دون أن أعثر على الاختلاف بيننا وبينكم، كأننا جميعا نتشاطر خط كف واحد، فكان ألمكم كألمنا، ومواجعنا كمواجعكم، وحلمكم كحلمنا، وأملنا كأملكم، لكن خارج أسوار مكتبتي عالم لا يقرأ، خارج أسوار المكتبات لا يعرف الجزائريون والمصريون بعضهم بعضا فصرنا كالغرباء نعتقد ونصدق أن بيننا كرها وغيرة وضغينة وتنافسا، أن سعادتنا مشيدة على حزنكم وسعادتكم مقامة على حزننا، أن كرة، أجل كرة هي الأقرب إلى قلوبنا منكم، وذات الكرة هي الأحب إلى قلوبكم منا!

سألت ذات مرة زميلي أن متى صارت كرة القدم تحظى بكل هذه الاهمية، مازحني هو بجواب ساخر فابتسمت، ولكنني ربيبة الكتب وسيدة الرسائل، لا ترضيني الأجوبة الساخرة، فبحث بعيدا عن الصخب الذي أرفقتموها به، وبعيدا عن صخبها كنتم صامتين، هادئين، محزونين في زوايا مهجورة مثلي تماما، أدركت لحظتها أنها كل رسائلكم، كل أصواتكم، كل معارككم وأنكم بعيدا

عنها قد استسلمتم فلا حياة تخوضونها، ولا حلم تسعون إليه، ولا أمل تتشبثون به، ولا صرخة ولا تهليل ولا وترا يضرب ولا بوقا ينفخ.

سألت ذات مرة لماذا ينشغل الاعلام بهذه المقابلة كل هذا الإنشغال، وها أنا أسأل الآن ماذا لو لم يمنحها كل ذا الاهتمام، ماذا لو لم يهبها كل تلك الصفحات والمقالات والحصص والتصريحات والتكهنات والحوارات والصور، ماذا لو ما صب كل ذلك الحبر الذي لا يشبه حبر الكتب، ماذا لو اهتم بزوايانا المهجورة، ماذا لو أخرس المقالات الأجنبية التي جعلت من أخوتنا مجرد زعم وادعاء كاذب، أكنا التففنا حول تلك الكرة بكل تلك الحشود الغفيرة؟

ماذا لو رفع الاعلام أصواتا منادية «كفى» بدل أن يجعل مصر كلها تستقبل الجزائر كلها بالحجارة، ماذا لو منح سلطته للأصوات التي تنادي «كفى»، ثم ماذا لو اجتمع هؤلاء الذين وليناهم أمرنا ليخاطبونا بلغة القومية، ماذا لو سارعو لشد حبال الجسر التي راحت تنقطع الواحدة تلو الأخرى، بل راحت تقطع الواحدة تلو الأخرى.

لا أملك الجواب إنما السؤال، ولكنت استوقفت نفسي ها هنا، لكن بعض المشاهير المصريين قد أصرو على إضافة فصل آخر لما نطقت أفواههم بالكلام الجارح في حق الجزائر دولة وتاريخا وشعبا، ولا أملك في شأنهم السؤال إنما اليقين بأن كل الذي نطقو به قد أحزنني بدل المرة مرتين: مرة لجزائري ومرة لمصر، أم حسبوا أن ليست مصر بالموجوعة بعد صنيعهم، فما أقبحهم، ما أقبح الابن العاق بوطنه وأمته.

قبحهم كاد أن يصنع حربا، والصمت من حوله ومن أعلاه وقبالته حماه.

يقال اليوم أن علاقة الجزائريين والمصريين قد ضربت للأبد، فيؤذي قولهم فؤادي، ويدمع عيني، ويفقدني الشعور بدفء الشمس ونورها، أعرف أن علاقتنا قد اهتزت وأن وصالنا قد انقطع وأن خصامنا سيمتد زمنا ولكني موقنة بأنا سنعود إلى سابق عهدنا، إلى سابق ودنا لأن الذي يجمعنا هو قدر عروبتنا واسلامنا، ولا مهرب لنا من قدرنا ولا مغير له مهما كان الفعل وأيا كان من أتى به وحماه.

أني أنظر إلى العلمين المتحدين بقربي، قدرهما أن يرفعا جنبا لجنب وقدري أن أصونهما والشمس تشرق وتغيب والهلال أو البدر الكامل والشهب الومض والنجم في العل، وذات يوم سيطرق القراء باب مكتبتي، قراء كثر، سيشيرون إليهما وسيلتفون من حولهما، وسأروي لهم لحظتها ملحمتهما دون أن أخشى الرواية، دون أن أكتم فصلا أو تفصيلا ثم سأردد بأعلى صوت: «أودعتكم العلمين، أودعتكم الجزائر ومصر فإنهما أعظم وديعة أؤتمنت عليها وأعظم وديعة أأتمنكم عليها».

صادقة في الجزائر

كذا كانت رسالتي التي بللها الدمع حتى أوشكت على التمزق لوما جففها التنهد تلو التنهد.

كذا كانت رسالتي التي خطت يدي حروفها وفواصلها ونقاطها غير رعشة أو مترددة، فبالرغم من الذي أحزنني وأوجعني وأرقني وشد على عنقي يود خنقي ثم ألقى بي في متاهات كادت أن تفقدني صوابي من بعد ما أفقدتني طباعي وعاداتي، بالرغم من هذا كله إلا أني ما شككت لحظة واحدة في قوميتنا العربية.

بلغ شعاع الشمس طاولتي ثم احتضن العلمين كما يفعل منذ السنوات الطويلة التي سبقت ميلادي، مسحت بيدي عليهما ثم نظرت بعينين لم تنفكا تذرفان ذاك اللون المنعدم المعبر عن الوجع والحزن، نظرت مطولا إلى رسالتي التي كان بياضها وسوادها المتحدين سندي الوحيد في مواجهة الحياة المتوحشة، قبلتها ثم ضممتها بقوة إلى صدري ولم أك قد قبلت أو ضممت رسالة من قبل.

الفصل الخامس

كانت هذه أول رسالة يستطيع سعاة بريد الدنيا حملها بمحافظهم الجلدية والسير بها عبر شوارع المدن العريضة ودروب الأرياف الوعرة لإيداعها جنب أبواب من خاطبتهم بفكري وفؤادي، كانت أول رسالة يستطيع متلقيها التوجه إلى حبره وورقه لتكليمي عن أفكاره وعواطفه، عن الذي خالجه بسببها وصارعه من بعدها وعن المنزلة التي حظيت بها في نفسه، كانت رسالة فارقة عن سابقاتها من الرسائل فقد كانت تلك البيضاء المضرجة بالسواد تجلب السعادة والحزن، الرضا والنقم، الاطمئنان والخوف، الهدوء والغضب، الحياة والفناء ففيها أمة تصنع بالوحدة مجدا جبارا، غير أنها تحيا زمنا أجبرت فيه على مواجهة إعصار الشتات.

وها أنتم، يا من تلزمون الصمت، تتساءلون بعيونكم التي تواصل تتبع نهر حبري لتعرف أين المصب، تتساءلون عن الذي صنعته بها بعد أن قبلتها وضممتها، فاعلموا أني ما سلمتها لسعاة البريد بل جلت بها في مدن وأرياف الشقيقتين، طرقت لوحدي الأبواب كلها وناديت بأعلى صوتي على آلهما جميعا ثم كشفت عن فحواها.

لأنتم أذكى من أن تصدقوا هذا الادعاء، وأعقل من أن تتقبلوا الآن تحرري، فالخوف الذي أسرني لسنوات ومنعني من مواجهة انتقاد الغير لأفكاري وعواطفي ثم أجبرني على إخفاء كياني في غرفة مهجورة لا يطرق بابها أحد قد كان خوفا ذا غلال صلبة، أخضعني ببداية ذلك الإعصار الذي لم يسبق أن شهد البلدان له مثيلا، ثم أخضعني في خضمه حتى بدا جليا أني لن أستطيع التحرر منه بعيد آخر زوبعاته.

أنتم الآن قادرون على التكهن بجواب للذي سبق وتساءلتم عنه ولكنكم تأبون إلا أن تجدوا ذا الجواب على صفحات اعترافي، فاعلموا يا من تساءلتم أني أخفيت رسالتي كما فعلت بكل الرسائل التي كتبتها من قبل، جعلت منها

السر الدفين في درج طاولة المكتبة المظلم الهرئ، تركتها للوحدة وقد ولدت لتنادي بالوحدة.

قد هالكم كيف استطعت كتم قوميتي حتى صار من المستحيل عليكم أن تحبسوا في داخلكم تلك الكلمات التي تصارعكم، وها هي ذي شفاهكم تهمس بها همسا خافتا قائلة: «أيبلغ الخوف بالمرء حد الصمت قبالة شتات أمتنا؟»

وها أنا ذا لا أعمد إلى التظاهر بالغفلة عن همسكم حتى لا أضطر إلى تقديم الأعذار التي لن تقوى على إقناعكم، بل أصارحكم كما تعودت أن أفعل، ولست ألقي على صراحتي تبرا من الكلمات العذبة التي تحوم حول العواطف لتستميلها فتصدر الإدانة بنبرة خالية من القسوة والشماتة، بل ها أنا أتلفظ بها مجردة كلطخة قلم حبر أسود: «الخوف بلغ بي هذا المبلغ».

أجل، إني على علم بأن الصمت حكمة وحل مناسب ووسط، هو صفة العقلاء ومن الأمثلة ما جعله ذهبا، لكن الصمت على الذي يفجر شقاق وشتات أمتنا فذنب لا يغتفر أيا كان سبب ارتكابه، ثم أجل، لقد اقترفت ذنب الصمت الذي لا يغتفر فأدينوني دون أن تأخذكم بي رحمة ولكن لا تقربوا المطرقة، لا تدقوا، لا تعلنوا عن رفع الجلسة فلي بعد ذنوب أخرى صار لابد أن أعترف لكم بها.

ذنبي أني ولدت والناس من حولي لا يناضلون في سبيل قضايا أمتنا إلا القليل، ذنبي أني ترعرعت والناس يهدرون حقها بالسكون والصمت والتخفي ما عدا البعض، ذنبي أني نشأت وأغلب الناس معتادون على الانتكاسة مهما طال عهد قحطها، يذكرون الشجاعة والتضحية كأساطير زمن غابر لم يعد لها مكان في زمننا، يهللون للخطاب الذي يذكر مجدها الغابر ويتجاهلون الكلمة التي تسألهم إحياء هذا المجد، ذنبي أني قضيت سنوات عمري كلها والناس

جلهم قد بايعوا المال سلطانا والمال إذا ما بويع أسر رعاياه ليظل على العرش متربعا، والمال إذا ما بويع ما ترك للقلب مكانا لحب غير حبه، ولا للفكر فضاء لسواه، فيا أيها القضاة، أيها القراء، لا تجهدوا أنفسكم بالبحث عن عقاب للذنوب التي اعترفت لكم بها فلن تجدوا مهما بذلتم من الجهد أعدل من جزاء الله...

في تلك الغرفة التي لا ترى ولا تشعر بغيري أطلقت نفسا طويلا وجعا، مددت يدي الرعشة ببطء ثم أقفلت درج الطاولة وأنا على يقين بألا أحد سيقربه ليكتشف ما يخفيه، كانت تلك هي اللحظة التي أدركت بها أني قد اقترفت أكبر أخطائي يوم قررت سجن أول رسالة لي فيه وأني أقترف بسجن تلك الأخيرة أعظمها، كانت تلك هي اللحظة التي أدركت بها أني أحيا بقرار هذا الهرئ المظلم وأني بعيدا عنه أفارق الحياة فأنا دون أفكاري وعواطفي في عالم لا يعترف بوجودي لأنه لا يتحسس أثري ولا يشعر بنبضي وأنفاسي.

كان وجعي قاتلا ولم يك الأول ولم أك أعلم أنه ليس بالأخير، مددت يدي الرعشة بهدوء ومسحت بها على الكتب التي شفيتها من تمزق أوراقها، ثم مددتها ومسحت بها على وجنتي المبللتين دمعا، استجمعت القوى القليلة التي تبقت لي وقمت من الكرسي، أعدت الكتب المعافاة إلى الرفوف ثم هممت بمغادرة المكتبة بعد أن قضيت فيها ليلة من التذكار والدمع، وشروق من الأفكار والعواطف والحبر، غير أني استوقفت نفسي ما إن بلغت عتبة بابها العتيق فقد انتابني فجأة شعور برغبة العلمين في أن أظل بالقرب منهما.

عدت وجلست على الكرسي، وضعت ذراعي على الطاولة ثم دسست رأسي بينهما، تمنيت أن يلقي أحدهم بملاءة على كتفي ليقيني من لسعات برد ذلك الشتاء القاسي، وما إن تمتمت بهذه الأمنية حتى زال الزمهرير عن المكتبة، ثم حل محله دفئ ناعم غمر جميع أرجاءها فأطبقت جفني وغفوت بين

أحضانها تماما كما كنت أفعل وأنا طفلة لم تبلغ الخامسة بعد.

من منا كان الأكثر حزنا؛ تلك الدار المهجورة منذ سنوات أم تلك الكتب المتروكة للرفوف مذ أكثر من عقدين، ذينك العلمان المترافقان قرابة نصف قرن واللذان ترغب الملايين في التفريق بينهما، أم تلك الصبية التي قضت عمرها كله في دنيا من الوحدة ثم وجدت نفسها وحيدة في صراع مع إعصار من شتات.

كان مستحيلا أن يعرف أحد من منا كان الأكثر حزنا مادمنا قد عزمنا جميعنا على البقاء صامتين، لا نحدث أحدا عما يختلجنا، يمزقنا ويلقينا أرضا، يحرقنا وينثرنا رمادا، لا نحدث غير أنفسنا، فلا يشعر غيرنا بنبضنا.

غفوت في المكتبة وما أفقت حتى كاد اليوم أن يبلغ الظهيرة، لم تراودني الكوابيس أثناء نومي ولم أر أحلاما، لا ارتحت ولا ازددت تعبا، كان كلحظة خاطفة لا نستطيع تمييز ما حدث فيها، كلحظة فقدنا فيها أنفسنا ثم عدنا إلى استرجاعها.

قمت من الكرسي متثاقلة ثم غادرت أحظانها تاركة بها لغز رغبة العلمين ولغز الدفء الذي عم أرجاءها، أقفلت بابها العتيق وأنا أشعر بأني فتاة أكبر سنا من تلك التي مدت يدها إلى قفله بعد أن مزقت تذكرة سفرها، أكبر سنا بكثير، ولكأني أقاربه عمرا.

نزلت الدرج بخطى بطيئة ثم سرت بذات الخطى في الممر متجهة صوب الحجرة التي نقيم فيها، فجأة بلغ مسمعي نداء عال باسمي، صوبت بصري نحو مصدر الصوت فلمحت أحد أقاربي الذي يماثلني سنا جاثما بالقرب من باب الدار الخلفي الذي تعودنا استعماله بعد أن قيد الباب العالي.

نادى علي مرة ثانية بأعلى صوت ثم هرول إلي فحسبت أن خطبا ما قد ألم

به، ويا للمفاجأة، راح يعبر لي عن سعادته لأني خاصمت مصر وامتنعت عن الذهاب في الرحلة السياحية، هز بيديه كتفي تعبيرا عن فخره بالخصام الذي اعتنقته والقرار الذي اتخذته ثم رجاني حرق كل ما أملك من الأشياء التي لها علاقة بأرض الفراعنة وكذا إغلاق باب مكتبة تملأها كتب أبناء هذه الأرض فالإلقاء بالمفتاح في مكان مجهول.

لزمت الصمت وكنت أكثر الناس اتقانا لالتزام الصمت، لزمت الصمت فحسبه تعبيرا عن رضاي مع أن نظرتي لم توحي بشيء من الرضا، هز رأسه مبديا غبطته ثم سألني عن أحوالي، وبدل أن أسأله بدوري عن أحواله طأطأت رأسي ثم اعتذرت منه مدعية الصداع وواصلت السير باتجاه حجرتنا وقلبي يبكي على العلم المصري الذي ترافق وعلمي عقودا من الزمن، يبكي على الكتب التي لم تر مذ أزيد عن الثلاثين عاما قارئا غيري، ويبكي على رسائلي الصادقة التي لم تعرف أصحابها الطيبين المرسلة إليهم ولا أصحابها البسطاء الذين تحكي عنهم، لم تعرف غير ظلمات درج ضيق وهرئ، واصلت السير والقلب يبكي فقد كان المصير الذي يود الغير مني إنزاله عليهم قاس قسوة حجر الصوان.

جلست في غرفتي وحيدة وقد ضاق صدري بسبب الرجاء الذي ألقاه الضيف على مسمعي، جثمت أمام النافذة عل اليم يواسيني ولكن اليم زاد من ضيقي لاستسلامه في وجه لون السحب الكئيب، فكرة برهة من الزمن ثم قمت وارتديت معطفي ووشاحي بسرعة، حملت حقيبتي وتوجهت صوب الكلية، لم تك لدي رغبة في الدراسة ولا قدرة على مزاولتها ولكني فضلت مغادرة البيت حتى لا أسمع ذاك الرجاء مرة أخرى، فقد كان جليا أن قريبي ما طرق بابنا ليطمئن على حالنا، وإنما جاء حاملا بين ضلعيه خصاما شديدا ورجاء مستعدا لترديده حتى يلبى.

غادرت بيتي لأتجنب خلافا شعرت أنه سيشب بيني وبين ضيفي، وما إن فارقته حتى وقعت عيناي على الذي لم تقعا عليه من قبل؛ العلم الوطني مرفوع على شرفات جل المنازل والعمارات، مشدود إلى واجهات أغلب المتاجر والمحلات، موضوع على بلورات الحافلات والسيارات والشاحنات، يزين النساء والرجال والأطفال بعد أن علق أوسمة على صدورهم وحمل على محافظهم وحقائبهم وتبنت ألوانه أوشحة رقابهم وعصائب أيديهم.

دون قصد انطلقت في عد ذي الأعلام غير أني سرعان ما توقفت عن العد فقد فاق عددها المئات، سرت ذهلة كطفلة تقرأ أول مرة قصة من نسج خيال، حدقت إلى أقصى الشارع العريض ثم حملقت إلى كل زواياه بعد أن تلفت في جميع الاتجاهات دون أن أتعمد التحديق أو الحملقة أو التلفت كشخص فقد للحظة إدراكه للزمان والمكان، فجأة اصطدمت بأحد المارة فاستسمحته ثم تنحيت جانبا وجثمت جنب جدار.

لكانت تلك الألوف من الأعلام فرحة فؤادي بمنظرها البهي الذي لم يسبق ورأيت له مثيلا، لكانت أجمل لوحة أحتفظ بها في ذاكرتي للأبد، ولكانت رسالة أخطها بكثير من الفخر، ولكني تمتمت قائلة: «غير أنها كألوف من الأعلام المرفوعة في مصر بسبب الأحداث التي أجبرنا على معايشتها، بسبب الخلاف بيننا والخصام، بسبب الحزن والألم والصراخ والتهديد والغضب الشديد والأمان المفقود، فيا أمة محمد، أتوجع أنا فأنا أهوى كل الاعلام».

لوهلة خطر ببالي أن أسأل عن عدد الأعلام المصرية المرفوعة بتلك اللحظة في الجزائر فقلت في نفسي بألا علم مرفوع غير علم السفارة والعلم فوق طاولة مكتبتي، ثم راودني ذات السؤال حول الأعلام الجزائرية المرفوعة في مصر فقلت في نفسي مرة أخرى لا علم مرفوع غير علم السفارة وعلم فوق طاولة مصري يلزم الصمت مثلي، ربما أخطأت العد، وربما تماديت في خطئي، لكن الأكيد

هو أن العدد قد كان ضئيلا لحد مخجل ومرعب، وأنه وحدهما علما السفارتين ما كان ظاهرا للعلن.

أطلقت زفيرا طويلا حارا وجعا ثم تمتمت بثغر يتخفى خلف وشاح الصوف: «لكم كان مختلفا لو أنا رفعنا أعلامنا تعبيرا عن وحدتنا وأخوتنا ولقنا من ثم أطفالنا درسا عميق الهدف، لكم كان مميزا لو أنا رفعناها تعبيرا عن إيماننا ببعضنا بعض وبعثنا بذلك الأمل والطمأنينة في قلوب كل المسلمين والعرب، ولكم هو غريب وحزين وقاس وموجع أنا دفعنا اليوم لرفع هذه الأعداد الهائلة تعبيرا عن الشقاق بيننا».

تركت الجدار وواصلت السير ببطء وذهول ثم استقليت أول حافلة توقفت في المحطة، جلست على أحد المقاعد ثم رحت أنظر عبر بلور نافذتها إلى الشوارع التي مررنا بها سريعا، استأنست للحظات دفأ ذلك المقعد فحنيت رأسي وأسندته على البلور، لوهلة شعرت بالمواساة ولكأني أحط رأسي على كتف صديق، لكني سرعان ما استوحشت لما لمحت على جدار عبارات أريد بها الحط من شأن مصر.

شردت وتذكرت مثيلاتها من الكتابات التي أريد بها الحط من شأن الجزائر والتي كنت قد رأيتها على الجدران المصرية عبر وسائل الإعلام وعبر مواقع التواصل الاجتماعي، قلت في نفسي: «قد كنا مذ زمن قريب نرفع بالخط العربي تحياتنا لبعضنا بعض وشعارات إيماننا بوحدتنا وتلاحمنا وسيادتنا وحريتنا، ثم ماذا حدث...؟»

ثم علا صوت حوار ركابين بالحافلة، يتحدث أحدهما عن تعرضه للشتم والطرد من طرف أصدقائه المصريين عبر شبكة التواصل الاجتماعي، ليرد عليه الآخر بأنه كان السباق في شتمهم وطردهم.

آه كم حز في نفسي لحظتها أن تقطع أواصل الصداقة بين أبناء شعب مسلم وآخر مسلم في زمن قاس ومجرم، زمن اختفى فيه جانب الحياة المتبسم ولم يتبقى لنا فيه شيء حتى الصداقات التي ننشئها على موقع عالم وهمي.

واصل الراكبان حديثهما مرددان كل الكلمات الجارحة التي أرسلاها وتلقياها، وواصلت أنا الاصغاء وفي نفسي رغبة في أن أقطع حديثهما، لكن هيهات، هيهات لمن يواري حبره الظلام أن يعلى صوته.

اختنقت بدل المرة مرتين؛ بحوارهما وبصمتي فسارعت إلى النزول بأول محطة توقفت بها الحافلة بعد أن قررت مواصلة الدرب سيرا على الأقدام، شعرت بألم وحزن شديدين في قلبي، بثقل في خطواتي ولكأني أجر صخرا، بوهن في كفي حتى كدت لا أقوى الشد على محفظتي، هذا وشعرت برغبتي في الكشف عن رسالتي، لكني سرعان ما تمتمت بثغري الملثم: «من أنا ليقرأ الشعبان رسالتي، من أنا لينظر الشعبان إلى أفكاري وعواطفي، لست سوى ابنة بستاني بسيط، ثم ماذا لو بلغت مسمع البعض، ثم ماذا لو رد على كلماتي بالكلمات، هؤلاء الذين كادوا أن يشعلوا نيران حرب بين بلدين شقيقين، ويحي ما قد يصنعونه بي».

هكذا خاطبت نفسي بالشارع الذي تراقصت عليه قبل أيام وابتسمت فيه بوجه كل طفل وأنا أشع بشاشة وشبابا، الشارع الذي استوقفت فيه نفسي لأقطف زهرة أزين بها خصلات شعري الأسود الطويل، كان ذاته الشارع الذي جثمت بالقرب من إحدى محلاته لأتأمل نفسي بعد أن لمحت دون قصد انعكاس صورتي ببلور الواجهة.

تأملت لوني الشاحب وثغري الكئيب وعيني المتعبتين الباكيتين، أفزعني مظهري فسارعت إلى ارتداء نظارتي السوداء علها تحجب بعضا من الذي بث في نفسي الفزع ثم واصلت تتبع الرصيف.

بلغت الكلية التي فررت إليها وأنا لا أريد أن أتابع درسا فيها ولا أن أطالع كتابا بمكتبتها، تجولت في ساحتها وأنا أسترق السمع بكل من مررت به من زملاء، لا، لم أفعل بل كان صوتهم العالي يبلغ مسمعي دون استراق فقد كان جميع الطلاب يرددون الكلمات البشعة الجارحة التي تلفظ بها بعض من الإعلاميين والسياسيين والمشاهير المصريين، يرددون كل ما قيل، ويذكرون اسم قائله بصوت عال يكشف ألما وغضب شديدين.

«أيا كليتي، نحن ضحايا تجريح لم توقفه القوانين والتشريعات، فما أشد وقع الجرائم التي لا تقوى عليها العدالة»، تمتمت وأنا لا أزال أصغي إلى الأصوات العالية المتألمة الغاضبة التي امتنع كل أصحابها عن الالتحاق بقاعات المحاضرات على غراري، أجل، اعتزلو الدرس مثلي غير أنهم آثروا الفضفضة على الصمت، آثروا الحياة على عكسي.

واصلت التجوال بحرم الكلية بخطى بطيئة متثاقلة، فجأة لمحت غير بعيد بعضا من زملائي وزميلاتي اللذين تعودت الجلوس برفقتهم أحيانا، كدت أهم بالانظمام إليهم ولكني تساءلت قبل أن أفعل: «ما أقول حين يسألونني عن رأيي وعن عواطفي؟ عن سبب إلغاء رحلتي؟ أأصارحهم بفحوى رسالتي وأنا على يقين بأني لن أقوى على ردهم؟ أم أكذب وأتظاهر بالغفلة عن الحقيقة وأنا لا أعرف عن الكذب والتظاهر سوى أني لا أجيد الأول ولا أتقن الثاني؟»

جثمت للحظات وأنا أشد بقوة على وشاحي، ثم حسمت أمري وغيرت وجهتي، تمنيت وأنا أبتعد عنهم أن أسلمهم رسالتي، أن أكشف لهم عن حبري وأن يتقبلوا أفكاري وأن يتفهموا عاطفتي، ولكني فضلت التخفي خشية أن يكون موقفهم قاسيا وجارحا، خشية أن أنبذ وأترك وحيدة، لزمت الصمت وسرت مبتعدة عنهم وكنت وبالرغم من كتم كياني وحيدة، فيا للقدر، سواء قمت بالفعل أو بنقيضه أنزل بك مشيئته.

جلست على أحد مقاعد الكلية ورحت أتأمل الطلاب الذين شكلوا جماعات ليتحدثوا ويفصحوا عن أفكارهم وعواطفهم، شعرت مرة أخرى بالاختلاف عنهم كلهم، وتذكرت يوم جمعني ببعضهم حديث عن مصر فاختلفت مذاهبنا بين المواقع السياحية الفخمة التي زاروها أو يودون زيارتها والأحياء الشعبية التي أعرفها والتي أود السير بين ذراعيها، بين المؤدين الذين يرغبون في حضور حفلاتهم والبسطاء الذين أود ملاقاتهم، بين الأطباق الفاخرة التي يشتهونها وصحن الفول الذي أتمنى تذوقه، بين مصر التي عودتهم شاشة التلفاز على صورتها وروح مصر التي لامستها في حبر سفرائها.

«ما كنت أدري أن الاختلاف أحيانا هو الحمل الملقى على عاتقنا، والامتحان الأصعب في حياتنا، والنقطة التي لا رجوع لنا من بعدها إلى الحال التي كنا عليها من قبلها»، قلت بصوت خفيض قبل أن أحني رأسي، نزعت نظارتي ثم مسحت عبرتي بأناملي وكنت قد تعودت على مسح عبراتي لوحدي، وتعودت ألا أواسى وألا يربت على كتفي.

مسحت عبرتي بأناملي ثم عدت إلى تأمل الحياة من حولي، ولمح دون أن ألحظ، لمح أحد أساتذتي الذي طالما أثنى على اجتهادي وفصاحتي، لمح انزوائي وحيدة بيوم لم ينزو فيه أحد من الطلاب لوحده، اقترب مني بهدوء وسألني دون مقدمات عن خطبي وعزلتي والسر وراء كآبة ملامحي.

قمت بسرعة احتراما له، لوهلة تأملت تقاسيم وجهه فاستشعرت سنوات خبرته وعلمه وحكمته، فتحت فاه وهممت بإخبار أستاذي شيئا من الذي تحمله رسالتي وأعماقي، لكنه كان السباق بقوله: «أيا كان خطبك فلا بد أن تنسيك فرحة الانتصار على مصر هذا الخطب».

حملقت إليه برهة ولزمت الصمت للحظة ثم أخبرته بأني أشكو صداعا، ومع أنه لم يتكلف تصنع تصديقي إلا أنه لم يلح بالسؤال فقد شعر في نبرة صوتي

بأني أكتم ما لن أبوح به.

قمت بعد زمن وأنا أشعر بتعب شديد ثم غادرت الكلية، لا رغبة لي في الكلام ولا الأكل ولا النوم، سرت بخطى متثاقلة متجهة صوب بيتي، لم أنفك أذكر نفسي أني كنت لأسير بتلك اللحظات في شوارع مصر لوما الأحداث التي عصفت بي وبالدنيا كلها.

وشاء أن ألاقي قبل بلوغ وجهتي بعضا من أطفال حينا، كان هؤلاء الأطفال مذ سنوات خلت أشبال الدار الذين أحيي برفقتهم العلم وأصدقائي الذين يجلسون من حولي في فناءها لأسرد على مسمعهم قصصا من خيال الحبر، وكان من طبعهم استيقافي كلما لمحوني بالشارع العريض عائدة من كليتي أو من السوق ليقصو على مسمعي بعضا من مغامراتهم الشقية كأنني شقيقتهم الكبرى، أو كأنني ذكراهم الأخيرة من الدار التي بادلوها الحب.

أخبروني بعدما عبروا لي عن فرحهم برؤيتي أنهم لم يتلفظوا ذاك الصباح بمصر المدونة في نص بالكتاب المدرسي، وقالوا أن الأستاذ لم يؤنبهم ولم يعاقبهم، لا بل أنه بدا سعيدا بفعلتهم، قالوا أنهم يرغبون في أن تزال كل نصوص كتابها لأنها بلد أهاننا وأهان شهدانا، ثم سألوني إن كان هذا الفعل الصواب.

تصورت لحظتها أطفال مصر وهم يتفادون التلفظ بالجزائر المدونة في نص بالكتاب المدرسي وتصورتهم يتساءلون إن كان هذا الفعل الصواب، ثم تذكرت رسالتي الدفينة التي تمنيت أن تدون بمقررات البلدين المدرسية، رسالتي التي منعتها أن تحيا فكانت عقوبتي أن أحيا يوما يتحاشا فيه نشء الجزائر ومصر التلفظ باسم بلد الآخر.

ابتسمت ولم أقل لهم شيئا وكانوا أصغر من أن يتعرفوا على ابتسامة الحزن الفياض، سألتهم عن أحوالهم وعن هواياتهم، عن شوقهم للأيام التي قضوها في

الدار، للنشاطات والرحلات التي قمنا بها معا، وللبسطاء الذين طرقنا أبوابهم محملين بالحب والهدايا، ثم ودعتهم دون أن أقول كلاما آخر فأدركت أني قد أذنبت أكثر فأكثر بالتزام الصمت في وجه جيل سيتحمل ذات يوم أخطاء الجيل الأكبر.

واصلت السير بذات الخطى حتى بلغت بيتي قبيل الغروب، حيتني والدتي ما إن رأتني أجتاز عتبة حجرتنا وسألتني عن يومي فأخبرتها بأنه عادي لم يفرق عن غيره في شيء، ومع أن جوابي بدا مناسبا ومطمئنا لقلب الأم فيها إلا أنه كان ذنبا وإثما موجعا لقلبي العربي فقد كان على ذلك اليوم أن يختلف لأنه يوم إطلاقي لسراحي.

تمددت على تختي والشمس قد غربت، أطبقت جفناي وتذكرت اللحظات التي تجرعتها مذ غادرت البيت إلى حين عودتي إليه، بل مذ غادرت المكتبة، بدا لي جليا أن عودتنا إلى سابق عهدنا لن تتحقق بشروق شمس اليوم الموالي ولا بحلول الربيع المنتظر.

عادت والدتي ودقت الباب بهدوء ثم طلبت إلي الانظمام إليها لتناول الطعام غير أني استسمحتها وأخبرتها بأني لا أشعر بالجوع، هنا اقتربت مني وجلست إلى جانبي ثم سألتني بصوتها الدافئ عن خطبي، شعرت لحظتها بضعف قبالة الرعاية التي حوطتني بها في زمن عرفت الحياة فيه كيف تجردني من كل شعور بالوجود، شعرت بضعف شديد فأخبرت السيدة التي قبلت دون سؤال واحد سفري والتي طلبت دون عذر واحد العدول عن هذا السفر، أخبرتها أني أشعر بالاختلاف عن الجميع.

ابتسمت أمي وقالت أني طالما تميزت بكوني فتاة دار الستة والمكتبة، وأنها طالما أحبت اختلافي، ابتسمت لقولها وفضلت أن أخفي عنها حقيقة أني لا أتميز سوى بشجاعة لم أتحل بها يوما.

تركتني والدتي لأفكاري وعواطفي وغادرت غرفتي، أطفأت النور وحاولت النوم فلما عجزت مددت يدي إلى المذياع ورحت أستمع إلى الموسيقى ففطنت كما فعل الآخرون أنه ما عاد للألحان المصرية بث على أمواج الإذاعة الجزائرية، ثم حزرت كما فعل الآخرون أنه ما عاد للألحان الجزائرية بث على أمواج الإذاعة المصرية.

مددت يدي الهزيلة وأطفأت الراديو، أخفيت جسمي ورأسي تحت بطانيتي ثم سكنت والدنيا كلها نائمة عدا آلامي وأحزاني.

استيقظت في صباح اليوم الموالي متأخرا بعد أن نسيت تشغيل المنبه، سارعت بارتداء ثيابي غير أني سرعان ما استوقفت نفسي حين طلبت إلي والدتي أن أهدأ من روعي فلا حاجة للذهاب إلى الكلية أيام العطلة الشتوية.

ألقيت نظرة خاطفة على الرزنامة السنوية المشدودة إلى الثلاجة ثم أطلقت نفسا طويلا، جلست بجانبها وسكبت لنفسي كوبا من القهوة، شعرت لوهلة بشيء من الارتياح لأني غير مضطرة لحضور الدروس التي لم أك أملك القدرة على متابعتها وتحضير بحوث حول جوهرها، كان من المناسب في نظري أن أنقطع زمنا ولو قصيرا عن الكلية، ولكان من الأنسب أن أنقطع أيضا عن العالم كله من حولي، فجأة تبادر إلى ذهني أني لا أدري كيف سأقضي أيام هذه العطلة الماطرة بعد أن أجبرت على إلغاء سفري.

كنت فيما قبل أهوى بأيام العطل الشتوية زيارة حديقة المدينة فمطالعة الكتب في المكتبة، ومع أنه كان لا يزال في وسعي زيارة تلك الحديقة التي أحب الجلوس على مقاعدها الحجرية والسير بين أشجارها العملاقة ثم العودة إلى البيت بتأن وريح التراب يعطر الشوارع أو العودة إليه هرولة إذا ما هطل المطر، إلا أنه ما كان في وسعي المطالعة أبدا!

كنت لا أزال أحب كتبي وكتابها جميعهم إلا أني شعرت في قرارتي بالغرابة في أن أقرأ كتبا مصرية وأن أكاتب أصحابها المصريين، تماما كالغرابة التي كان ليشعر بها أي قارئ مصري اتجاه كتب جزائرية وكتاب جزائريين، قد كان من المستحيل أن أرحل بفكري وفؤادي إلى مصر دون أن أحمل معي الأحداث بكل تفاصيلها وخصام الشعبين وحزني وألمي وصمتي الذي صرت بسببه آثما، وشريكا في فاجعة أمة بأكملها.

انزويت بغرفتي ورحت أتأمل حزن الطبيعة؛ حزن شجرها العاري وطيرها الأخرس ويمها أسير اللون الداكن تماما كسمائها، كل هذا لم يك شيئا قبالة حزني.

كانت تلك المرة الأولى التي يمنعني فيها شيء من المطالعة، تذكرت وأنا أتأمل الجمال الحزين، تذكرت الأشخاص الكثر الذين طلبوا إلي الابتعاد عن المكتبة بسبب مظهرها فلم أصغي إليهم، الواجبات المنزلية الكثيرة والاختبارات الفصلية الصعبة التي حاولت أن تملأ كل وقتي حتى أعجز عن السير إلي زاويتي غير أني اجتهدت ونجحت دون أن أتغيب عن الكتب، تذكرت الأيام التي مرضت أو شعرت بإعياء شديد فيها غير أني لم آبه وكاتبت أصحابها بقلم صادق، ثم تركت الذكرى وتأملت واقعي.

«أبعدت عن المكتبة التي ما استطاع أحد أو شيء من قبل أن يحول بيني وبينها، بلغ دماركم عقر داري، بلغ دماركم أعماقي فإلى أين سيمتد؟»، تمتمت مخاطبة يمي.

«أيم، بأحضان من نرتمي، أما كنت أستأنس بعلاقة الجزائر ومصر المتينة في مواجهة كل شيء، وأي شيء، أما كنت تستأنس بالروح والجيء بينهما للمسح على شواطئهما، أما بعد الذي كابدنا فيغمرك خوف كبير ويغمرني خوف أكبر، فبحضن من نرتمي؟».

تصارعت أمواج البحر ومخاوفي فواصلت تكليمه غير مبالية بصمته: «هل سيحفظ الكتاب حالك وحالي؟ هل سينظم الشعراء الرثاء؟ هل ستعزف الألحان وتصمم الرقصات وترسم اللوحات وترفع ستارها المسارح أم أن الجميع مثلي ولا وجود لاستثناء واحد؟».

تركت اليم لحزنه وجلست قبالة الحاسوب لأجوب شوارع البلدين من خلال تلك الشبكة التي لا تعرف الحدود، كنت عليمة أني لن أجد بها بصيص أمل ولا حب ولا ود ولا صداقة ولا أخوة فتمتمت قائلة أن الابتعاد عنها أأمن لفؤادي، ولكني سرعان ما كلمت نفسي بصوت عال كمجنون قائلة: «لا سبيل للبعد فهذا حاضري، هذا واقعي، هذا قدري، وألف ألف تعويذة وألف ألف ساحر لا يبدلون قدرا واحدا».

حسبت الريح الباردة أن قلبي يغمره الدفء لأن نافذة بلورية منعتها من اقتحام غرفتي الصغيرة، هذا لأن الريح لم تعلم أن قلبي أسره الصقيع حين وقفت عند آلاف من الاهانات التي ألقى بها الجزائريون والمصريون على بعضهم بعضا؛ هذا يسب ذاك، وذاك يشتم هذا، أو يخونه، أو يسترجع ماضيه باحتقار، أو يلعنه ويلعن الأرض التي أنجبته...

قمت سريعا وفتحت النافذة عل نسيما يجد طريقه إلى صدري فيفك عنه قبضة ضيق شديدة، لكن النسيم كالجميع تركني أواجه قدري لوحدي.

عدت وجلست قبالة الحاسوب لأنظر إلى ما وضع على موقع اليوتيوب؛ مقطع فيديو فيه اتصال من ابن رئيس جمهورية مصر علاء مبارك بحصة تلفزيونية يقول فيه: «الجمهور للاسف الشديد الجزائري الذي كان حاضرا هو ليس جمهور كرة قدم على الاطلاق دون كانو في رأيي الشخصي جماعة مرتزقة يمارسون نوعا من الارهاب»، ليرد عليه مقدم الحصة المصري خالد الغندور قائلا: «انا قلت امبارح أيها الشعب المصري نقلكم مبروك على خسارتنا

لأن في حالة فزنا كان لا يقل عن ألف جثة كانت حترجع لمصر»، مقطع للاعلامي المصري عمرو أديب يقول فيه: «هما الجزائريين بيكرهو مصر ليه، أيه مزاج الجزائريين يكرهو مصر بالشكل ده»، مقطع للممثلة المصرية زينة تقول فيه: «لازم نقاطع الجزائر ذا شعب متخلف وحقير»، مقطع من أغنية للمطرب الجزائري رضا اسماها مصرائيل يقول فيها: «القاهرة ولات كاباريه... سياحتكم مشهورة بالرقاصة المصرية... كلاب ودواب... نصف بلدكم عاهرة... ربي خلاكم تعيشو في المقابر... حنا نعبدو ربي ماشي اسرائيل...»، مقطع من اغنية للمطرب لطفي يقول فيها: «قدام العرب مصر هي أم الدنيا وقدام اسرئيل مصر مجرد دمية»، مقطع للممثل المصري محمد رمضان يقول فيه: «الجزائر دولة أقل من أننا نحن كمصريين نتكلم عنها»، مقطع للاعلامي احمد موسى يحرض فيه المصريين على قتل الجالية الجزائرية: «...نناشد جمهورنا يقتل الجزائريين الموجودين بمصر، عندنا جزائريين بمصر، نرحلهم، نموتهم...»، أغنية يقال فيها: «دارو حجرة فقق حجرة اعطاوها اسم حضارة... واش بناو في مئة سنة حنا في ليلة نريبوها... يا مصري يا رأس الحمار... بعتو بلدكم لليهود...»، مقطع للاعب الجزائري عنتر يحي يقول فيه باللغة الفرنسية لقناة فرنسية بعد أن سئل عن الفريق الذي يتمنى أن تواجهه الجزائر: «إذا كانت أمنية ستكون فرنسا، سيكون هذا كالكرز فوق الكعك، لأننا سنستطيع إعطاء صورة أخرى مع فرنسا والجزائر في مصطلح التنافس الرياضي وسعادة لكلا الشعبين...»، مقطع فيديو لمجهولين مصريين يحرقون علم الجزائر ومقطع فيديو لمجهولين جزائريين يحرقون العلم ...

حطت كفها الدافئ على كتفي، وبصوتها الحنون سألتني عن الذي أود أن تطبخه لي، تأملت لوهلة يد أمي مجردة من سوارها الموروث، بدا جمال معصمها ساحرا، يفوق حسنه كل المعاصم المزينة بالحلى، شددت كفها وقبلت ذا المعصم ثم أخبرتها أني أحب كل الذي تطبخه يداها.

غادرت أمي غرفتي فتركت الحاسوب وجثمت بالقرب من النافدة ثم خاطبت اليم الذي ألف فضفضاتي دون استئذان أو مقدمات: «لتليق بأمي دواوين المدح والفخر».

تركت اليم ثم تمددت على تختي، لكم تمنيت لحظتها أن يطرق غرفتي البسيطة رفيق يخفف عني، يربت على يدي، يطلب إلي الارتماء على صدره حتى أبكي، لكن الناس جلهم لا يحبون الغرف البسيطة ويمقتون الكيان المختلف.

مر اليوم متباطئا وكذلك الليل الذي ما استطعت أن أغمض جفني آناءه، لم يعد هناك حلم سر أرسمه في مخيلتي قبل أن أغفو ليعود ويزورني في المنام، لم يعد هناك شيء مميز خاص بي يحمسني للغد، فحل الأرق محل الأول وهرول الخمول لأخذ مكان الثاني.

غفوت بعد الفجر وافقت قبيل منتصف النهار ذعرة على صوت الرعد، قمت بتكاسل وسكبت لنفسي كوبا من القهوة فأكواب اللبن ما عادت تجدي لصداع رأس بسبب نوم متأخر، طلبت إلي والدتي وأنا أرتشف قهوتي أن أرافقها لزيارة بعض المعارف، وما كنت لألبي طلبها لوما أصرت وألحت كثيرا، كانت تشعر بأني أعاني خطبا وأني لا أفصح عنه، وكانت على يقين أن لمصر علاقة به لأني ما سافرت ولأني لا أجلس بالمكتبة ولا أطالع، هذا وكانت تشعر أن ليس عليها حتي على الكلام ما دمت لا أبادر إليه ولكن عليها جري للحياة ما دمت لا أركض نحوها.

لم تفصح لي هي أيضا عن الذي يخالجها، لكنه لمع بعيونها كلما نظرت إلي، كانت كل أمانيها أن تعاد إلي السعادة التي أستحقها، وكانت على دراية بأن السبيل الوحيد القادر على بعث السعادة في نفسي هو إعادة دار الستة وإعادة علاقة البلدين إلى الحال التي كانتا عليها دوما، لكنه أمر يفوق قدرتها، يفوقها بكثير.

جلست في ذلك المساء البارد الماطر برفقة النسوة وأمي التي كانت تذكرني في كل موضوع تماما كما تذكر الأخريات بناتهن، كأننا أعظم إنجازاتهن، أجمل قلاعهن، كأننا انعاسهن بالمرايا، الانعكاس الذي طالما تمنينه.

جلست أرتشف الشاي بينما انطلقن في فتح كل حوار وفي استحضار كل خبر وفي خوض تفاصيل كل إشاعة، كنت أعمل جاهدة على رسم ابتسامة وعلى ترك انطباع لائق أمامهن، وكانت أمي تسترق النظر إلي بين الحين والآخر لتطمئن على حالي، فكنت أعمد إلى التظاهر بأني لا أفهم تلك النظرات التي تحيا لترعاني.

وهكذا راحت إحداهن تتكلم عن الأسرة المصرية القاطنة بأول الشارع والتي رحلت بذلك الصباح عائدة إلى الاسكندرية، قالت أن أبناء الأسرة لم يستطيعو تحمل مضايقات زملائهم لهم في المدرسة والحي، قاطعتها أخرى بالحديث عن إحدى قريباتها، متزوجة ومستقرة منذ سنوات في مصر، غير أنها عادت إلى الجزائر رفقة زوجها وابنها لأنهم ما استطاعو تحمل المضايقات أيضا، قالت ثالثة أنها قد قرأت في صحيفة عن جزائري قام بتطليق زوجته المصرية قبل المباراة فردت عليها رابعة بأنها قد قرأت في إحدى الصحف عن مصري طلق زوجته الجزائرية بعد المباراة، ثم التفتت صوبي وسألتني إن كنت لا أزال أتذكر أحد زملائي في الثانوية والذي نال منحة للدراسة في القاهرة؟ فلما أخبرتها أنه من الصعب نسيان طالب مجتهد مثله حملت إلي أنباء عودته إلى أرض الوطن وتضييعه لسنوات من الدراسة الجامعية.

لزمت الصمت بعد هذا واكتفيت بهز رأسي هزا لم تعرفن جميعهن أكان للرضى أم للإستنكار، فجأة سألتني صاحبة البيت إن كنت قد طالبت الوكالة بتعويض مبلغ تكاليف السفر، قالت أن بعض الوكالات تعيد نصفه إن هو التغى والنصف أفضل من خسارة الكل، ثم أضافت أني قد أقتني بالمبلغ المعاد

أريكة جديدة لحجرتنا، وقبل أن أفتح فاه وضعت الجالسة بجانبي يدها على كتفي وهي تبتسم وتقول: «أو سجادة من السجادات الجميلة التي انتشرت مؤخرا بالأسواق»، هنا تكلمت والدتي وقالت بنبرتها الحازمة التي لم يتجرأ أحد من قبل على مقاطعتها أننا قد قررنا تأجيل السفر إلى مصر لا إلغاءه.

نظرت إلى أمي ثم ابتسمت فقد شعرت أني لا أبدوا غريبا عن والدتي بعد أن بدوت غريبا عن الدنيا كلها من حولي، أمي التي كانت هي أيضا غريبة في عيون الأخريات، فمن غيرها تتخلى عن كل ما تملكه من الذهب لأجل سفرة أسبوع واحد.

كنا أول من غادر جلسة الشاي بعد أن أخبرتهن والدتي أن علينا قضاء أمر مستعجل ولم يك ما أخبرتهن به صحيحا، دون أن تفصح لي عن سبب مغادرتنا حوطت أمي ذراعها بذراعي قائلة أننا سندفئ بعضنا بعض حتى نصل إلى البيت.

كانت أمي تطلب إلي حين كنت طفلة أن أحتمي بمعطفها مرددة ذات العبارة، ثم فاق طولي طولها فصارت تلف ذراعها حول ذراعي كلما غادرنا البيت لذات الغرض، هن هكذا الأمهات، لا تعرن الفصول انتباها حتى يحل الشتاء.

سرنا بضع خطوات والصمت ثالثنا في شوارع عاصمتي، لكن سرعان ما قطعت أمي الصمت وهي تخبرني بأن ستائر بيت مضيفنا باهضة الثمن لكنها بشعة الزخرفة والألوان.

بدا واضحا لي أن أمي التي لم يك من شيمها الحديث بسوء عن ضيف أو مضيف، بدا واضحا أن قد آلمها حديث النسوة عن مبلغ تكاليف السفر، فقد فطنت أمي إلى أنهن قد حاولن إحراجها وأنهن قد تعمدن التلميح ما استطعن

بأن مثل هذه الرحلات لا تليق بأسرة كأسرتنا، فجأة استوقفتني وأشارت بيدها إلى بائع الشاي فتوجهنا صوبه لنبتاع كوبين من شرابه الصحراوي الدافئ.

رحت أتأمل والدتي وهي ترتشف الشاي وكنت قد لاحظت من قبل أنها لم تمد يدها لفنجان المضيف إكراما لكبرياءها بعد الكلام الذي ألقي به على مسمعنا، استسمحتها، فلما سألتني باستغراب عن السبب أخبرتها أني ومن فرط رغبتي في السفر غفلت عن تكاليفه، وأني ومن شدة حماسي بعد موافقتها ووالدي قد فاتني أن ألحظ سوارها المختفي أياما طوالا.

ضحكت والدتي وقالت أن السوار لي، وأنها قد احتفظت به لحين أكبر فأرتديه عروسا، لكنها وحين رأت سعادتي وأنا أخبرهما بالحلم السر، صمتت والدتي زمنا ثم داعبت بيدها خصلات شعري وقالت بعد أن أقسمت أنها لم تر تلك السعادة على وجوه كل العرائس اللواتي حضرت زفافاتهن، وأنها وبعد الذي رأت قد أدركت أن للسوار قدرا آخر.

«تتمسكين بقوة أو تدعين دون تردد، تثبتين وجودك بكلمة واحدة أونظرة حازمة، من المؤسف أني لا أشبهك فأنا لست بمثل شجاعتك»، قلت لأمي.

ضحكت والدتي مرة أخرى وقالت أني أشجع فتاة رأتها في حياتها كلها، فمن غيري كانت لا تخشى المكتبة مذ طفولتها بالرغم من منظرها المرعب، ضحكت بعد أن تذكرت كيف كنت أتعثر وأنا أصعد الدرج صوبها، وكيف كنت أغفو فيها واضعة خذي على صور كتبها بزمن لم يقرب أحد عتبة بابها خوفا وتضايقا، ضحكت بعد أن عادت بي الذكرى لتلك الأيام الآمنة ثم سألتها لأول مرة أن ماذا عنك يا أمي، ألم تخشيها كما فعل الجميع، ألم تخشي علي.

هنا أطلقت أمي نفسا طويلا حار ثم قالت: «خشي أبي وأمي أن ألتحق

بالمدرسة الاعدادية التي كانت تبعد عن قريتنا، خشيا أن يخالفا أهل القرية الذين امتنعو عن ارسال فتياتهن لإكمال تعليمهن، وخشيت أنا أن أعترض على كلامهما بالرغم من أني كنت أحن في اليوم الواحد ألف مرة لطاولة الدرس واللوح والطبشور وأحن لرائحة الكتب وملمس الدفاتر»، صمتت والدتي لتقدر حبس دموعها التي كادت أن تنهمر، ثم عادت لمخاطبتي قائلة: «أقسمت يوم أنجبتك أني سأحارب الجميع وكل شيء لأجل أن تنالي كل التعليم الذي ترغبين به، والمكتبة قدر جميل اجتمع بقسمي».

لكم كانت مفاجئة لحظة فضفضتها، لكم كانت حزينة وصادقة وعميقة، تماما كلحظة فضفضة والدي حين سألته عن سبب عدم معارضته لجلوسي بالمكتبة، تماما كلحظة فضفضة كل انسان.

سرعان ما طلبت إلي والدتي أن نواصل المضي صوب وجهتنا، فقمت ولففت ذراعي حول ذراعها لتشعر بالدفء وبوجودي دائما بجانبها، وفي طريقنا صادفنا إحدى زميلات الكلية، أخبرتني بعد أن تبادلنا السلام عن استياءها بسبب توقفها عن العمل الذي كانت تمارسه بعد الدوام، فبعد أن امتنع السياح الجزائريون عن زيارة مصر والسياح المصريون عن زيارة الجزائر قل دخل الشركة السياحية فاضطرت إلى تسريح العديد من العمال لا بل أنها قد تقفل أبوابها لأنها لن تقدر تحمل الضرائب والديون بدخل شبه منعدم.

خففت عنها قدر ما استطعت وتمنيت لها أن تجد عملا آخر في الزمن القريب ثم ودعتها دون أن أودع كل ما أخبرتني به، حملت كلماتها معي تماما كما حملت كل ما نطقت به مرتشفات الشاي من أخبار الراحلين والعائدين.

بلغت البيت بعد يوم طويل، جلست بغرفتي وحاولت الدراسة عملا بنصيحة والدتي التي طلبت إلي الانطلاق في مراجعة دروسي بينما تحضر هي حساء ساخنا، تصفحت كتابا ودفترا ولكني عجزت عن التركيز في فحواهما فقد

شغلت أمتي فكري وفؤادي وبدى كل شيء غيرها دونما وزن.

أطفأت النور وفكرت في هؤلاء الذين عصفت أحداث بلدينا ببيوتهم فهدتها وأرزاقهم فقطعتها ودراستهم فأوقفتها، فكرت وأنا أتأمل النجوم من وراء بلور نافذتي في هؤلاء الذين حزموا حقائبهم ليفارقو الجزائر أو ليفارقو مصر مرغمين، تمتمت قائلة: «إنهم يذرفون الآن عبرة ويطلقون زفرة وأنت أيها الليل الوحيد الذي يعلم، إنهم الآن يكابدون الألم، هؤلاء الذين لم يرتكبو إثما ولكنهم كانو الأوائل في دفع الثمن، والأواخر أيضا».

رحل الليل حاملا معه عبراتنا جميعا وآهاتنا التي لم تجد مواسيا لها ولا رحيما بها ولا مشفقا عليها، أفقت من النوم قبيل الظهيرة، ارتشفت كوبا من القهوة عديمة السكر ورحت أفكر في قضاء المساء بتنظيف البيت مع أنه لم يك في حاجة إلى تنظيف، فجأة دق بعض من أقاربنا الباب فسارعت بعد أن ألقيت عليهم التحية إلى ارتداء معطفي ووشاحي.

دقت والدتي باب غرفتي وهمت أن تطلب إلي الجلوس برفقتهم ولكنها فوجئت بي أتهيأ للخروج، سألتني عن وجهتي فتكلمت، لساني يرجوها السماح لي بزيارة السوق وعيناي تهمسان يا أمي، لست أقوى على سماع المزيد من ندوب الأحداث على قلوبنا.

ابتسمت والدتي وفي ابتسامتها الحنان والحب اللذان عهدتهما فيها، دنت مني وأحكمت إقفال أزرار معطفي، لفت وشاحي حول عنقي ثم قالت أنها لا تسمح للريح الباردة بلمسي.

غادرت البيت وأنا أعلم بأن أمي التي تخشى علي الريح الباردة تتألم لألمي ولا تفصح، تشعر بحزني ولا تتكلم، تحاول حمايتي منهما ولكنها تعجز، زاد وجع أمي على وجعي من وجعي فاختنقت وما استطاع فضاء الدنيا كلها مدي

بنفس يشعرني بالحياة، لوهلة شعرت بالخذلان يسري في جسدي فجلست على مقعد صادفته بالرصيف.

بصعوبة أخذت نفسا عميقا ثم رحت أتأمل الشارع المتفجر بالجمال، شارع الشهيد العربي بن مهيدي، بطل من أبطال «اجتماع الستة» و»اجتماع الاثنين والعشرين»، البطل الذي عذبته فرنسا عذابا وحشيا، فاقتلعت أظافره وسلخت جلد وجهه دون أن تأخذ منه اعترافا واحدا، ثم أعدمته دون محاكمة فاستشهد وعاشت الجزائر.

تأملت جمال الشارع الذي يحمل اسم رجل ثائر شهم مقدام نبيل خالد بالتاريخ ومقدس بقلوبنا فشعرت بالحرية، الحرية التي ولدت من رحم التضحيات والعذاب، الحرية التي صنعها رجال ثوار شهام مقاديم ثائرين نبلاء.

قمت بعد أن شعرت بالبرد الشديد ثم رحت أسير ببطء وأنا أطيل النظر إلى جمال كل زوايا شارع الشهيد الذي قال لأمه: «إن عشت بعد الاستقلال فسأنجب لك الكثير من الأبناء وإن أنا مت يا أمي فالجزائريون هم كلهم أبناؤك»، هذا القلب الشجاع وقلب أمه المحزون الصبور رواية ملحمة الجزائر، ولجزائري مليون ونصف مليون ملحمة.

واصلت السير ببطء حتى بلغت شارع الشهيدة حسيبة بن بوعلي، العذراء الفاتنة التي كتبت ملحمتها وهي بنت التاسع عشر ربيعا، رفضت تسليم نفسها للمستعمر الذي نسف بالمتفجرات البيت الذي كانت تحتمي به رفقة البطل علي لابوانت، والبطل محمود بوحميدي، والبطل الطفل عمر الصغير.

«زهرة المقاومة»، نظرتها بريئة عميقة وابتسامتها هادئة قوية وقلبها شجاع صادق هام بالجزائر هياما أسطوريا، هكذا تعشق الجزائر، هكذا العشق في وطني.

ترحمت على شهدائنا الأبرار ثم واصلت السير ببطء، فجأة لمحت بالقرب من إحدى المكتبات التي طالما مررت بجانبها دون أن أعبر عتبة بابها بدنانير لا تكفي لاقتناء كتاب واحد، لمحت علبة متوسطة الحجم بها كتب للعقاد، استغربت وجودها خارجها فولجتها وحييت صاحبها ثم أشرت إلى العلبة التي كنت أكيدة أنه قد نسيها أثناء استقباله لكتب جديدة، ويا للمفاجأة، أخبرني بعد أن رد التحية بأنه لا يريدها في محله.

سكنت برهة وكنت قد أدركت السبب، ثم سألته أخذها فوافق قائلا أن الفضول يتملكه وأنه ليود معرفة ما سأصنعه بها، أخبرته بعفوية أني سأضعها في مكتبتي، نظر إلي بحدة وقال بنبرة جافة أنه قد غير رأيه، أنه لن يمنحني هذه الكتب، صمت برهة ثم لاحت بذهني فكرة فسألته عن ثمنها، فلما كان جوابه يفوق الذي أحمله بكثير قلت في نفسي: «أسألت العقاد يوما عن ثورتنا؟ سله إن الجواب بصفحات كتبه مدون، أعلم أنك لم ولن تفعل فنحن نحيا بزمن لا تسأل فيه الكتب، نحيا زمنا تساوى فيه الأمي والكتبي»، فجأة سألني صاحب المكتبة عن سبب تحديقي إليه فاستسمحته وغادرت ملكيته.

سرت قليلا ثم جثمت غير بعيد عنها، ما كان أحد ليستاء من صاحب المكتبة فقد بدا جليا أن الألم والغضب بسبب عقوق بعض الإعلاميين والمشاهير المصريين قد كانا يعتصران فؤاده، تماما كما كانا يعتصران فؤادي، الفراق بيننا هو أني لم أصب ألمي وغضبي على الكتب، نظرت إلى الصندوق بعين تفيض حزنا ثم رحلت.

عجزت عن النوم تلك الليلة أيضا فرحت أقضي تلك الساعات الهادئة الداكنة في صنع الخبز، كانت صورة صندوق الكتب تراودني فسألت في نفسي أن ماذا لو حملتها خلسة قبل أن يتلفها المطر أو قبل أن تسلم لمن يتلفها معتقدا أنه الفعل الصواب، لكني سرعان ما تمتمت قائلة أن هذا الفعل ليس

من طبعي، وأنه لن يغير قدر صناديق الكتب الكثيرة التي تركت على قارعات الطريق بالجزائر وبمصر.

فجأة دقت أمي باب المطبخ وهي تدعي الظمأ، تظاهرت بتصديقها بالرغم من معرفتي أنها لا تخلد للنوم إلا بعد أن تضع قنينة الماء جنب تختها، بدا جليا أن بقائي مستيقظة بتلك الساعة المتأخرة من الليل قد خض مضجعها، فأمي لم تعلم أني صاحبت النجم والقمر مذ زمن، وأن الليلة ليست باستثناء إنما هي أحدث عاداتي.

عادت أمي إلى غرفتها الصغيرة بعد أن مسحت على رأسي، ولا أعرف لم تذكرت لحظتها الجدية التي كانت ترتسم على ملامحها في كل مرة طلبت فيها إلي أن أراجع درسي، ثم تذكرت غبطتها بكل مساء نقلت فيه إليها خبر نجاحي وثناء المعلم على مثابرتي وأخلاقي، ثم ارتسمت بمخيلتي ابتسامتها وهي تضع لي وسادة من صنعها فوق أحد كراسي المكتبة الأربع حتى أستطيع من بعد الجلوس عليها بلوغ الطاولة، فقد كنت آنئذ صغيرة السن قصيرة القامة أعجز عن تصفح الكتاب بعد وضعه على الطاولة فأكتفي بإسناده إلى ركبتي.

لم أخبر والدتي في الصباح الموالي عن هذه الذكريات التي استرجعتها دونما محاولة، لا لم أفعل، هذا ولم أغادر حجرتنا بذلك اليوم البارد الماطر ولم أغادرها بكل الأيام الشبيهة به التي تبعته، وكذلك فعلت بالأيام التي لم يطرق بها بابنا أحد وبالأيام التي قدم فيها بعض من معارفنا وأقاربنا للزيارة.

كانو يسألونني دوما عن مقاطعة السفر حسب تعبيرهم، ويسألونني عن مصر وعن كل تلك الأحداث، فأغادر المجلس بحجة إحضار شراب دافئ لهم أو كعك ساخن، فيتهامسون أو يخيل إليهم أنهم يتهامسون بصوت لا يبلغ مسمعي عن شدة لامبالاتي بالذي مررنا به جميعا في الأيام القلائل الماضية.

لم أغادر حجرتنا بتلك الأيام الماطرة الباردة، هذا ولم أزر حديقة المدينة فراحت أشجارها تسأل عني، لا لم تفعل، فقد كان لها زوار كثر غيري، أحببت بذلك العهد، أحببت الإحتماء ببيتي من الحياة وما كنت لأفارقه لولا انقضاء العطلة ووجوب عودتي إلى الكلية من أجل اجتياز الامتحانات الفصلية.

لم أك حينها الطالبة النجيبة التي كدت في المراجعة والبحث بل كنت طالبة أهملت كليتها وحياتها بعد أن شغلت أمتها بالها وفؤادها، حاولت يائسة أن أنقذ أوراقي قبل تسليمها ولكني أيقنت بمجرد أن عاودت الاطلاع على المسودة التي دونت عليها أجوبتي، أدركت أني لم أنقذ دراستي تماما كما لم أنقذ من قبل وطنين وبيتا وشجرة ويماما.

مرت الأيام دون استئذان ثم حل الربيع بعد شتاء شديد البرودة والخصام، لم ينسنا هذا الزمن شيئا من الذي حدث ولكنا عدنا جميعنا إلى حياتنا القاسية المتبسمة نادرا، عاد صمت الشوارع وهرولت الناس خلف همومهم ومشاغلهم وديونهم وأحزانهم وأحلامهم، عادت الصحف لنقل أخبار كل حدث وكل انشغال وكل مؤتمر وكل تظاهرة وكذلك قنوات التلفاز والراديو، عادت طباع الطلبة في كليتي فعاد التفافهم لأجل الدروس والمحاضرات والبحوث والامتحانات وكفى، عاد طير السنونو المهاجر، عاد للشجر الورق الأخضر وعادت زرقة السماء فزرقة اليم، عاد الجميع وعاد كل شيء وعدت أنا، لا، لم أعد كما كنت قبلا، لكني عدت.

بهدوء سرت بفناء بيتنا ثم جثمت بجانب الدرج الذي عثرت عليه حين كنت طفلة مرات لا تعد، بخطى لا تصدر وقعا تبعته حتى بلغت المكتبة، مسحت بيدي على بابها ثم دفعته ببطء فاغتبطت الكتب بمجرد رؤيتي جاثمة عند العتبة، كانت مثلي عليمة أني ما كنت لأبتعد كل ذاك الزمن لوما كان البعد قدرا محتوما، كانت مثلي على دراية أني لم أك قارئا يرحل بمجرد أن ينال

حصته من حبرها وأنها لم تك حبرا سهل الفراق، فلا أنا كنت قارئا عابرا ولا هي كانت حبرا لمطالعة عابرة.

بهدوء مددت يدي نحو درج الطاولة وبرفق حملت رسالتي الأخيرة، قلبتها بين أناملي فصارعني الخوف والحب في آن واحد، استسمحتها وأخبرتها أن هذا الشخص الجالس ها هنا، المتسم بالجبن والملطخ بالذنب ليس بالشخص الذي أملت أو اعتقدت أني سأصير عليه يوما.

أعدت رسالتي إلى المكان الذي لم يجدر بي أن أتخذه لها موطنا ثم أخذت نفسا عميقا، كان ريح الكتب يملأ الأرجاء الضيقة وكنت قد اشتقت لذلك الريح الفواح الذي لا تحمله قنان العطور، همس لي العلمان أن الغياب ليس من شيمي وأنهما لا يألفان غيابي، تأملتهما مليا وهما جنبا لجنب، تأملت جمالهما وعظمتهما وتلاحمهما:

علماي

ما أمر أن نكتم حبنا إن كان حبنا لوطن عربي، ما أمر أن نمتنع عن ذكر محبوبنا إن كان محبوبنا وطنا عربي، ما أمر أن نصمت لدى ذكره وأن نتظاهر باللامبالاة في حضرته، ما أمر أن يتخاصم آلنا وآله فينقطع الوصال ويرى صغارنا ما نصنع، ما أمر أن نبكي في الخفاء الجفاء بيننا وبينهم، ما أمر الصباح الذي لا يبدأه سلام منا لهم وسلام منهم إلينا والليل الذي لا نشاطرهم فيه أحلامنا ولا يشاطروننا فيه أحلامهم، والعيد الذي لا يرسلون به تهنئاتهم إلينا ولا نرسل به التهاني إليهم، ما أمر ألا دعاء بعد الصلاة نرجو فيه جميعنا لبعضنا بعضا غفرانا ورحمة وسلاما وأمانا.

علماي، ما أمر العهد الذي لا يستطيع ثلاثتنا الاجتماع فيه معا سوى بمكان مهجور، ما أمر العهد الذي لقاءنا فيه سر لو كشف

لأدانتني الأصابع وتهمتني قوميتي، ما أمر قدرك يا أمتي.

صادقة في الجزائر

الفصل السادس

فلما أذهب بالأمان ودب الخوف في فؤادي واستطعمت الحزن وكابدت الألم وتجرعت المرارة وحملت ذنبي على كتفي ما عدت أتوق للغد، لا بل تفجر في أعماقي شوق جارف إلى الزمن الغابر الذي حظيت فيه بقلب بريئ مطمئن مستبشر، كأني اعتزلت حاضري، وتنازلت عن كل مقبل، وجعلت من الذكريات زاوية للتصوف.

أنتم لا تعرفون هذا الحال الذي أتحدث عنه لأني لا أريد يا من رافقتموني بدربي الوعر، لا أريد أن أتصوركم جاثمين بزاوية مهجورة تكابدون المرارة والألم والحزن والخوف والذنب، تحاولون الفرار من لهيب جهنمهم صوب الذكريات التي تجمعكم بغلاتكم وغواليكم، فتسعدون أثناء البرهة التي تسترجعونها فيها وتبتسمون، ثم تضحكون بصوت عال فيعود البريق الساحر إلى عيونكم وتتورد خدودكم حتى يبدو محياكم كمحيا الطفل البريء الساذج، لكنكم سرعان ما تفيقون على صوت الحياة تنادي بكم بعد أن اكتشفت مهربكم.

يعيد هذا النداء إلى ذاكرتكم اليوم الذي باعد بينكم وبين من وما أحبت قلوبكم فيخالجكم عذاب هذا اليوم كأن لم تمر عليه فصول وسنوات، ثم تنظرون إلى ما ألتم إليه فيفزعكم المنظر، ودونما هوادة تهرعون إلى الدمع والتنهد عسى الحياة تلين برؤية الأول أو بسماع الثاني، عساها تكف عن إطلاق النار، عساها تصادق على الهدن، لكن عبثا الهرع فلا تلين الحياة من بعده ولا ترحم، ولا تستسمح ولا تستوقف، ثم لا يطرق أحد زاويتكم للمواساة، ثم لا مهرب سر آخر لكم للاختباء، هنا يسقم الأمل ثم يلفظ أنفاسه فتضحون جسدا يحيا في كآبة حتى الموت.

لا، لا أريد أن أتصوركم يا من رافقتموني تحيون في الكآبة حتى الموت فأنا ما سردت الرواية إلا رغبة في أن تحظوا بالحياة النابضة أمل، ما اعترفت بالذنب إلا لتتفادوا ارتكابه في حق أنفسكم وفي حق بعضكم بعضا، ما كشفت عن

الحزن والألم والمرارة والخوف إلا لتسيروا بعيدا عن دروبها فأنتم آلي الذين لا آل لي من بعدهم، أنتم العشق الذي لا يرضى قلبي أن يدق لعشق غيره، أنتم أمتي، انتمائي لكم ولكم وفائي وحبري.

أنتم لا تعرفون هذا الحال الذي أتحدث عنه ولكني الخبير به فقد فجر الجفاء بين الجزائر ومصر، فجر شوقي إلى زمن الهناء الوحيد الذي حظيت به والذي كان لي فيه الكثير من الأمان والسعادة والأمل فكنت أختلس من الحياة القاسية لحظة لأهرب إلى كل من وما مضى...

أطبق جفني ثم أسير بفناء دار الستة الفسيح، أحيي حارس بابها العالي فيرد على تحيتي بالابتسامة وهز الرأس، يمد يده السمراء ويفتح قفله فيدخل الأشبال تباعا ويصطفون جنب سارية العلم، تغمر أصواتهم وضحكاتهم أرجاء البيت، ويزين ثوبهم الموحد ساحته.

نتأهب بإشارة من القائد ثم نؤدي النشيد معا بصوت جماعي ساحر عذب، يتوجهون بعد ذلك إلى الحجر لتلقي درس في الأخلاق وأتوجه أنا إلى العين لأملأ دلو الماء وإلى كيس الحب لآخذ حفنتين، أطعم اليمام وأداعبه ويلتف هو من حولي، يلتقط الحب من الأرض تارة ومن يدي تارة أخرى، ثم أروي شجرة التوت الأبيض قبل أن أجلس على الأرجوحة التي تشدها أغصانها، أهز نفسي هزا هادئا دون أن أخشى رفع بصري صوب السماء مادامت السماء صافية من كل لون كدر.

لكن اللحظة سرعان ما تزول بصوت الحياة ينادي اسمي فأعود من مهربي لأرى الباب العالي مقيدا سلاسل، الفناء الفسيح الخالي، الحجر مهشمة، النوافذ مكسرة، الجدران مهدمة، لا طاولة ولا لوح في أرجاء المكان، لا دفتر ولا قرطاس، لا علم ولا نشيد للعلم، حتى الشجرة العملاقة أعدمت ولم يبق منها سوى أرجوحة ملقاة أرضا.

ثم تنادي الحياة اسمي مرة أخرى لأرى بين مصر والجزائر وصالا ممزقا، لا زائر لهم يطرق بابنا ولا زائر منا يطرق بابهم، لا سلام ولا كلام، لا لحن ولا نثر ولا شعر، حاضر موحش غريب ومستقبل مجهول مرعب.

زاد شوقي إلى عهدي الجميل الغابر، وكنت من بعد كل دمعة وتنهد، كنت أرفع بصري إلى السماء ثم أتمنى رؤية سربي ومطوقتي عائدين إلى بيتهم وإلي بعد أكثر من خمس سنوات على الفراق، فقد كان السرب ومطوقته كل ما تبقى لي من هذا الماضي بعد المكتبة.

لم يشغل بالي وفؤادي بذلك العهد أحد أو شيء غير الحال الذي انتهينا إليه جميعنا ووالدي الذي كان يخفي عني أمرا، فقد كان يتردد إلى حجرة نومي كل حين من الزمن، يدق بابها دقا خفيفا ثم يفتحه بهدوء، يتأملني للحظات ويهم بالحديث ثم يمتنع عنه ويعود أدراجه، ولما أسأله عن خطبه يقول وهو يتصنع الابتسامة أنه كاد يهم بسؤالي عن غرض ولكنه تذكر مكانه.

استمر جيئه وذهابه وخلقه للأعذار وتصنعه للابتسامة يومين كاملين فلما عرف أنه ما عاد في وسعه الكتمان جلس بجانبي ولسانه يتلعثم ثم أخبرني بكثير من التردد أن سيد الدار قد بعث برسالة يخبره فيها أنه قد قرر... أخذ الكتب إلى أحد... المخازن.

نظرت إلى والدي زمنا ثم طأطأت رأسي ولم أقل بعد الطأطأة كلاما، بدا لي قوله غريبا وساذجا ومستحيلا فقد كانت مكتبة الدار بيت هذه الكتب قرابة الخمسين عاما، بيتها مذ غادرت مصر ذات يوم من أولى أيام الاستقلال صوب الجزائر، وبيتها لما أرسلت بها دور النشر المصرية هدية معبرة عن الأخوة والمحبة، هنا رافقت الأشبال والقراء الزوار سنينا طوالا، غير أن المكتبة تداعت من بعد ذلك فامتنع الناس عن زيارتها ولكني ولدت فأضحيت الشبل والقارئ والصديق والأهل والناس جميعا، كانت مكتبة ذا تاريخ مميز وجوهر متفرد

فكان غريبا وساذجا ومستحيلا أن تؤخذ كتبها من رفوفها المقدسة لتوضع في صناديق بزاوية مخزن.

شعر والدي بحزني الذي فاض من عيوني حتى ملأ الغرفة كلها فدنا مني ومسح بيده على ظهري، حاول أن يبعد ذاك الفيض فلا شيء يكسر المتحابين بقدر أن يحزن أحدهم حزنا يخرس صوته وضحكته وحماسه ووجوده، حاول ذلك الرجل البسيط الذي يرتدي معطفا بالرقع أن يهب لنجدة صغيرته بقوله أن لا تحزني فسأشتري لك كل الكتب التي تحبينها، وكان مثلي عليما أنه وعد صعب المنال، وأنه وعد سيخلف، وأنه وعد من فرط الحب، وكنت مذ صغري أهوى وعوده المخلفة فقد كان قطعها دليلا على مكانتي في قلبه، وكانت وعوده مذ صغري تزيد من حزني فقد كان الإخلاف بها يشعرني بألم الأبوة العاجزة في أعماقه.

أخبرت أبي أني أصدقه فابتسم ثم غادر غرفتي بذات الملامح التي ارتسمت على محياه يوم شمعت الدار، وغادرت أنا حجرتنا من بعده ثم سرت صوب المكتبة لأبلغها الخبر، لأعلمها في رسالة رفضي لقرار غريب وساذج ومستحيل، ولكني استوقفت نفسي ما إن بلغتها ورحت بدل إعلامها في تأملها.

تأملت رفوفها وكل الكتب التي عليها، تأملت جدرانها، مصباحها، نافذتها فأرضيتها، تأملت طاولتها وكراسيها وبابها العتيق ثم أخذت نفسا عميقا من عطرها الفواح الذي لن تحمله قنان العطور، لوهلة بدت كأنها تدري ما النبأ الذي أحمله إليها، كأنها قد قرأته على جبيني أو أنها قد رأته على كفها، بدت كأنها قد كانت في انتظاري لتشتكي إلي وهي التي لم يسبق لها الشكوى من قبل ومن بعد ميلادي.

كانت تلك المرة الأولى التي لا ألجأ فيها إليها بل تلجأ هي بها إلي، كانت المرة الأولى التي تحتمي فيها هي بحضني بدل أن أرتمي أنا بحضنها، كانت المرة

الأولى التي تجلى لي فيها حزنها وخوفها وزوال السحر الذي كان يحميني وأنا بين ذراعيها ويحميها.

بدا واضحا يومها أني لن أغير قرار السيد برسالة أخطها ثم أسارع إلى إخفائها، هذا وبدا جليا بألا آل لها سواي يواسي فاجعتها ويسارع لنجدتها، كنت فتاة وحيدة بسيطة عزلاء في نظر الدنيا، غير أني قد كنت بنظرها كل جيوشها، كل ذروعها وكل أحصانها، كنت أقرب الناس إليها، صبيتها التي لم تفترق عنها مذ تعرفت عليها وهي رضيعة أتمت للتو صرختها الأولى.

تمتمت قائلة: «لا نفع لرسالة لا ترسل، لأفكار وعواطف لا تكشف، علي أن أعلم الدنيا بوجودي وأخبرها عن قدر عنايتي وتعلقي بالكتب، أخبرها أن أفضل المخازن لن تكون بمنزلة المكتبة ولا بأمانتي، أكشف لها أن لي حلم فتح الباب العالي مرة أخرى للقراء والأشبال فمثل هذه الكتب ومثل هذه الدار لا يليق بهما الهجر».

سرت عائدة إلى حجرتنا واسترجعت في الدرب المؤدي إليها ذكرى السيد، كنت لا أزال أحتفظ في ذاكرتي بملامح الرجل الغريب ونظرته ونبرة صوته بالرغم من أني لم أره سوى مرة واحدة مر عليها عدد لا بأس به من السنوات، مرة غيرت لوحدها الحياة كلها في أرضي.

لم أحرز لحظتها ما دفع به إلى اتخاذ مثل هذا القرار المفاجئ تماما كما لم أعرف وأنا بنت الخامسة عشر ربيعا ما دفع به صوب ترميم لم يملك سيولته، استوقفت نفسي ونظرت إلى الأرجوحة الملقاة أرضا ثم ذكرت نفسي أني طالبة في كلية الحقوق وأني يد العدل التي تستطيع إعادة الحق والحياة إلى هذه الزاوية المهجورة المحزونة.

سارعت رفقة خيوط الشمس الأولى إلى كليتي، كنت عازمة على تكليم أحد

أساتذتي عن قرار سيد الدار حتى يدلني على سبيل لإبقاء الكتب في أمانتي، فلا خطب في أن أطلب المساعدة، ولا نقدا قد يمنعني، يكبل صوتي فوجودي.

جثمت وسط ساحة الكلية ورحت أبحث بين جمع الطلاب الغفير عن أستاذ أكلمه، وبينما أنا على هاته الحال لمحت إحدى زميلاتي التفاتي صوب اليمين وصوب الشمال فألقت علي التحية ثم سألتني عمن أبحث علها تمد لي يد العون، أخبرتها عن ضالتي والسبب فارتسمت عليها ملامح التعجب، سألتها عن سر الذي ارتسم على ملامحها فسألتني دون مقدمات إن كنت قد أتلفت ذي الكتب أو وهبتها هدية أو سلمتها بمقابل، وإن كنت الآن أخشى أن يكتشف ما صنعته بها.

نظرت إلى عيني زميلتي مليا، حدقت إليهما زمنا ثم رحلت دون أن أتفوه بحرف واحد، بدا غريبا في نظري حب الآخرين لإلقاء التهم على غيرهم، بدا غريبا كيف يحمل كل واحد منهم قفصا يزج به كل من يخالفه الرأي أو الميول، يزج به كل من لا يعرف قصته، كسرته وجرحه، يزج به كل من لا يحمل عناء مجالسته بسبب ثوبه البسيط وأقراطه التي ليست من معدن الذهب.

غادرت الكلية سريعا فقد كان من المستحيل أن أفصح لزميلتي في بضع لحظات عن رواية عمرها عشرون عاما، غادرت الكلية فقد شعرت لحظتها أن أستاذي سيلقي علي إن أنا كلمته، سيلقي علي دون مقدمات بذات السؤال، بذات التهمة، شعرت لحظتها أنه سيصعب عليه مثلما صعب على غيره أن يدرك في بضع لحظات أني بيت بيتي.

عدت إلى الدار دون أن أحضر درسا واحدا، سارعت ما إن بلغتها إلى غرفتي، إلى كتب القانون الموضوعة فيها فقد كنت على يقين بأن العدالة لن تسمح بأخذ تلك الكتب لمجرد أن سيدا قد قرر ذلك، فمهما بدت فكرة ملء مخزن بالكتب سديدة له فإن الكتب لم تخلق للمخازن.

قررت وأنا أتصفح كتاب القانون، قررت المطالبة بإبقاء الكتب، المطالبة بإعادة جعل المكتبة أرضا يزورها القراء، المطالبة بالوفاء بالوعد وترميم الدار حتى تفتح بابها العالي مرة أخرى، تفاءلت ضاربة عرض الحائط شراسة الحياة التي شعرت بها تتربص بي مثلما يتربص الذئب الجائع بحمل ضائع، تفاءلت وعزمت على زرع شجرة توت فرعايتها حتى تصير شجرة عملاقة ثم تمتمت قائلة: «ويوم يرفع العلم ويدوي القسم سيعود يمامي ومطوقتي إلى بيتهم».

نكبت على صفحات الكتاب ورحت أقرأ النصوص القانونية ولكني سرعان ما استوقفت نفسي عند التعريف بشخصي فأنا لم أك في نظرها سوى ابنة بستاني سمح له ذات يوم أن يقطن حجرة صغيرة بالدار حتى يجتمع بحبيبته تحت سقف واحد، ابنة بستاني رضي وزوجه بحجرة صغيرة حتى يحققا حلم إنجاب طفل واحد، طفل دخيل على الدار.

سكنت كتمثال حجري بائس الملامح نحته فنان ليخلد حزنه للأبد، ثم تحركت شفاهي بعد زمن ببطء دون أن أشعر: «أنا...لا وجود لي...».

أطبقت جفني بقوة وجثمت مرة أخرى كتمثال الحزن الأبدي، ما استطعت لحظتها تصديق واقعي، فبعد سنوات عمري كلها في تلك الدار والمكتبة، بعد كل ذلك الحب وكل ذلك الألم قضي بأني دخيل لا أملك حق الحديث نيابة عنهما ولا طلب شيء لأجلهما، قضي أني الغريب بين أسوارهما.

اختفى الهواء فجأة من الغرفة فعجزت عن أخذ نفس أفك به قبضة الضيق عن صدري، شعرت بالوهن يسري في جسدي فوقع كتاب القانون من يدي، هوى أرضا مثلما هوت آمالي وأحلامي، وعكس القانون الذي لم يتأذ مطلقا فقد تحطمت جميعها للأبد.

«هل أبدو لك دخيلا، أأنا الغريب هاهنا؟»، تمتمت وأنا أتخذ من جذع

حديقة الدار المعدوم مقعدا، رحت أتأمل زواياها التي أحفظها كمن يتأمل وجه حبيب سيفارقه قريبا، «أحيانا يشعر المرء بأنه غريب عن الناس من حوله بالرغم من معرفته بهم ومعرفتهم به إذا صادف وتحدث أمامهم فعجزوا عن إدراك جوهر حديثه أو إذا هو أتى فعلا على مرآهم غير أنهم عجزوا عن بلوغ القصد من وراء فعله، وأحيانا يشعر المرء بأنه غريب عن نفسه إن هبت عليه لحظة غضب شديد أو حزن قاتل، ولكن يستحيل أن يشعر بأنه غريب عن بيته».

أطلقت نفسا طويلا حارا وتمتمت مرة أخرى: «من ينصفك أيتها الدار؟ من يستطيع إعادة الحياة إليك، أخبريني أيتها الأرض التي تستحق تفتح الورد فيها، وتعليق المراجيح أيضا».

خيم الحزن كالليل على أرضي فعدت إلى غرفتي، فتحت قفل باب خزانتها ونظرت مطولا إلى العلم المحفوظ فيها ثم حملته بين ذراعي والقمر الوحيد يحدق إلينا ويصغي إلى زفراتي وآهاتي.

ضممت علم الدار إلى صدري بقوة، بقوة الوجع والحزن والحنين والشوق، ضممته إلى صدري بضعف، بضعف من وحدة وبساطة وعجز ويأس: «قد انتهت الدار، انتهت الفضيلة، والسارية التي رفرفت بها سنينا طوالا محزونة، والسارية التي رفرفت بها أعواما وأعواما لك مشتاقة، والسارية التي رفرفت بها عقودا للنشيد حنانة، والسارية لا يذكرها أحد».

غمرني العلم بدفء لم أشعر به يوما ولكأن الجزائر كلها بأرضها وسمائها ويمها قد طوقتني في آن واحد، قبلت علمي ولففته حولي، كأني أحتمي به من بعد أن أدركت أني لا أقوى على حماية بيتي ولا على حمايته، من بعد أن تجلى لي أني جيش مهزوم وذرع هش وحصن مدمر، نظرت إلى الوحيد الذي يحدق إلينا من عل ثم رجوته بصوت خفيض: «أيها القمر، لا ترحل فالغد لن يحمل

لي شيئا إنما هو قادم لسلب كل المتبقي».

رحل القمر ببطء فأقبل الصباح بهدوء وكنت بين رحيل هذا وإقبال ذاك أخبر الحياة المجردة من الحياة أنها قد انتصرت مرة أخرى، قمت من مخدعي وجسدي التعب يسعى جاهدا لألا يقع، كان ريح خبز أمي يطيب أرجاء البيت وكان صوتها العذب ينادي اسمي فتوجهت صوب المطبخ، ألقيت عليها وعلى والدي تحية الصباح ثم جلست برفقتهما.

قال والدي على طاولة الإفطار أن عليه تسليم كتب المكتبة فالاحتفاظ بالمفتاح مثلما أمره السيد في رسالته، غير أني رفضت أن يتواجد بتلك اللحظة شخص غيري فقد كنت طيلة عمر طفلتها وصبيتها والقارئ والحكيم الحريص على طبها، كنت هذا كله وكنت صديقها ورفيقها وآلها والناس جميعا.

تركت حجرتنا ثم سرت ببطء في الفناء وعلى الدرج، استوقفت نفسي ما إن بلغتها ثم وشوشت لبابها بكلمة السر التي اتفقت وهو عليها حين كنت طفلة لما تتجاوز الخامسة بعد فانفتح، فلما صرت بداخلها أحكمت إقفال بابها ولم أك قد أحكمت إقفاله من قبل وأنا فيها.

سرت حافية القدمين بين أحضانها ورحت ألامس كتبها، تذكرت حين كنت أستعين بالكرسي وأنا طفلة لأبلغ رفوفها العليا، آخذ الكتب التي خطت لمن هم أكبر سنا ثم أتصفحها، فلما أمل من صفحاتها التي لا تحوي الصور أعيدها إلى مكانها، ولكني كبرت من بعد ذلك وازددت طولا حتى صار في وسعي بلوغها دون الوقوف على أنامل قدمي، هذا وصار في وسعي إدراك جوهرها فأضحيت لها القارئ الوفي.

جثمت لوهلة ثم انحنيت إلى أدنى رف فيها، مددت يدي وأخذت واحدا من كتبه، نظرت إلى رسوماته فتذكرت بعضا من الألقاب اللطيفة البريئة التي

أطلقتها عليها، ضحكت على سذاجتي وسألت الرسومات إن كانت لا تزال تحب كل ما نعتها به، وبدا لي جليا أنها ظلت على حبها لتلك الألقاب وظلت على حبها لمطلقها.

تحسستها بأناملي وتذكرت الساعات التي قضيتها أقرأ كل ما دون فيها، وكيف كنت أطبها وأزيل الغبار عنها ثم أخبرتها أني أهواها أيا كانت أحجامها وعناوينها وفحواها، وأهوى كتابها والأم التي أنجبتهم وأرسلت بهم ذات عهد سفراء إلينا.

أخبرتها أنه لولا وجودها لكانت مصر بلدا عربيا قد أزوره للسياحة وكفى، وقد لا أزوره قط، بلد قد أسعى لنيل وسام فيه أو صفقة أو شيئ من هذا القبيل، بلد أصدق الكره بيننا وبينه وأهينه وأخاصمه وأحرق علمه أيضا، أسمعتها بصوتي الذي لا يعرفه غيرها في هذه الدنيا بأنها أكثر من مجرد كتب فهي جسر يربط الجزائر والأوطان العربية كلها بمصر وبأبنائها الطيبين وأنا واحد من الذين يؤمنون بهذا الجسر ويقدسونه، ودونما تردد أوحت إلي أن أكون حجرا من حجارة الجسر الذي يربط مصر والوطن العربي كله بالجزائر وبأبنائها الطيبين...

فجأة طرق الباب لأول مرة في حياتي كلها فكتمت صوتي وحبست أنفاسي ثم نظرت إلى العتيق والقلب يخفق ولكني ما دنوت منه، ما فتحت قفله عسى الطارق يرحل ولكنه أبى الرحيل وطرقه طرقا عنيفا، اقتربت منه ببطء وأدرت مفتاحه بهدوء فلما رأيت الجاثم بعتبته عرفته توا وما كنت قد رأيته قبلا.

قال الغريب عنا أنه جاء لأجل أخذ الكتب فلم أنبس ببنت شفة، لا بل تنحيت جانبا وجثمت بزاوية المكتبة فأدركت أني ما اعترفت لنفسي في بلدي وفي أمتي سوى بحق الجمود كصنم.

اقتحم الغريب حرمتها ونظر إلى أرجائها ثم سألني مندهشا ناقما أن لم يتواجد علم مصري فيها؟ فوق طاولتها وجنب علمنا؟ واصلت التزام الصمت فاستطرد وبدأ بجمع الكتب كأنه يستعجل أخذ روحها.

وودت أن أصرخ في وجهه ما إن مد يده لكتاب بالرف الأوسط قائلة هذا لا، لا تأخذه فإني أحبه لعمقه، وذاك لا فإني أهواه لرقته، ولا للذي اتخذ من اليسار مكانا فقد اتخذ مع اليسار مكانا في قلبي، ولا للذي قطن باليمين فبيميني أقسمت على رعايته، ثم لا، ولا، لكل كتاب لا، لك أيها الطارق ألف لا، غير أني كتمت صرختي ووجعي فقد كنت الصنم في الزاوية المهجورة.

راح يضع الكتب بسرعة في صناديق سوداء اللون ثم راح يضع الصناديق في عربته، لم يقرأ منها صفحة أو فقرة ولم تنظر عيناه إلى عنوان مطلقا فلم يدرك أنه لا يجمع ورقا إنما جسرا عربيا عملاقا.

سرعان ما حمل بساعديه آخر الصناديق فسألت في نفسي أن ما عساه يقول، كيف عساه يبرر فعلته وقد آن لهم أن يرحلوا، لكنه ما التفت صوبي، ما نظر إلي كأن لم أك يوما آلها والوصي عليها، صعد مركبته وانطلق فرحت أنظر إليها وهي تبتعد رويدا رويدا، لم تقل من حزنها شيئا ولم أقل سوى: «وداعا».

جثمت في وسط المكتبة الشاغرة فشعرت بالوحدة التي لم أشعر بها من قبل فيها، كان ضربا من الخيال أن يكون أول طارق عرفته لبابها هو الجلاد المنفذ لحكم إعدامها، كان رهيبا إلقاء كتبها في زاوية مخزن لأجل بدا جليا أنه سيستمر سنوات وعقودا.

دنوت بخطى متثاقلة من نافذتها ثم أبعدت الستارة بيد رعشة، رفعت بصري وحدقت مطولا إلى السماء الملبدة فلما عاد ناظري إلى فناء الدار الحزين لمحت بيت اليمام الخشبي الذي طالما كنت مكلمه ومواسيه والرافض للتنازل عنه.

لم أتمن بتلك اللحظة عودة اليمام مع أني كنت لا أزال أكن له الوفاء والهيام، كل ما تمنيته بتلك اللحظة هو أن يبقى في منفاه، فأنا لم أود له حياة في أرض جردت من الحياة، أنا لم أود له الكآبة حتى الموت بعد كل تلك السنين من الفراق.

الفصل السابع

أتصوركم الآن يا من رافقتموني على منبر اعترافي، يا من أصغيتم إلى روايتي التي لم أدون بها نفاقا لأني على علم أنكم قد ضقتم ذرعا بالنفاق، لم أتصنع فصولها ولا تفاصيلها لأني على يقين بأنكم قد اختنقتم في عصر اشتهر بين العصور بالتصنع، لا زينت متاهاتها بقناديل من أوهام ولا بنيت فوق وديان أوجاعها جسورا من الأمل الزيف لأنكم تمقتون قناديل لا تنير العتمة، وجسورا تصب في الهاوية، أتصوركم وقد بلغنا نهاية مكتبتي تسائلونني بصوت هادئ قائلين: «أآنت لحظة الوداع أيتها الراوي؟».

أيتها الراوي، لقد طرقتنا حاملة أرضنا وديعة فاستوقفنا طرقك، نظرنا إليك فوجدناك غريبة عنا وقبل أن نسائلك عن شخصك انطلقت في تحديثنا عن بيتك والكتب، فلما عرفناهما عرفناك، ولما عرفناك استأنسنا وأنسنا ولكنا سرعان ما استوحشنا بسبب الأحداث التي شهدها البلدان الشقيقان، فلما أبصرت الانقلاب الرهيب بحالنا سارعت إلى الكشف عن إيمانك بالقومية العربية إيمانا هو كل سندك في مواجهة الحياة الشرسة، ثم ما اكتفيت وما اكتفينا حتى شاطرتنا كآبة عهد لا ينسى، إي والله، يا من توغلت بيننا دون خوف، لا ندري أدعوتنا من بعد ذلك للجلوس فلبينا، أم أنا جلسنا ففعلت مثلنا، ولكنا جنبا لجنب نقول آه، جسور القلم التي تربط أبناء أمتنا ببعضهم بعضا، فهل ترانا بلغنا الآن لحظة الوداع؟

أيم الله لا أريد وداعكم يا من توغلت بينكم لأني واحد منكم، فإن رحلت يوما وسأفعل فلن يكون إلا بمشيئة القدر، إنما أريد الآن تكليمكم عن السبب الذي دفع بي إلى طرقكم، السبب الوحيد الذي حطم أسوار خوفي فأسقط عهد صمتي وحرر بذلك أفكاري وعواطفي التي انطلقت كالرياح الهوجاء خارج بيتي البسيط والمهجور، أم أنكم حسبتم أني ودون سبب سرت وقلمي إليكم؟

وها أنتم تجارون طبعي بمحاولتكم تصور هذا السبب دون أن تغيروا شيئا من الرواية التي أسرد، وها أنا أطلب إليكم أن تطلقوا العنان لمخيلاتكم حتى تختلقوا ما شئتم من الأسباب، ثم لا تسمحوا لأحد أو لشيء أن يردعكم، ولا تسمحوا كذلك للزمن أن يستوقفكم، بل استرسلوا فيها قدر ما شئتم وقدر ما استطعتم إلى أن تختلسوا نفسا عميقا يفك قبضة الضيق عن صدوركم.

أما وقد أخذتم هذا النفس، فقد آن لكم أن تعترفوا بأنكم ومهما اختلقتم لا تستطيعون الجزم، فعودوا، عودوا إلي لأطلب إليكم ألا تتكلفوا التصور وألا تبالغوا فيه، فما أنا إلا ككثير من البشر، أنا كأغلب البشر، لم يحررني الوجع والحزن والخوف والمرارة والذنب ولكن... حررني الندم.

لا، لا تبتعدوا من بعد تلفظي بهذه العبارة، لا تبتعدوا عن ورقي، فمهما كان شبحها رهيبا لابد لكم من رؤيته ولابد لي من الوقوف بجنبه، فهذا قدر القارئ وقدر القاص على صفحات هذه الرواية، لا، لا تبتعدوا بل اقتربوا مني ما استطعتم ثم أنصتوا لحبري المنسكب...

كان على غير أيام الربيع يوما ملبد السماء، محروم الورد والشجر العملاق حين أخذت الكتب التي أحببت فقرأت والسفراء الذين صاحبت وكاتبت إلى زاوية قبو مخزن، جلست وحيدة بالمكتبة الخاوية زمنا طويلا ثم سرت سير من يهجر بحق وبغير حق نحو بابها العتيق.

كنت قد سمعتها ما إن بلغت العتبة تنادي علي وتشتكي إلي زوال حسنها والوحشة في أرجائها والبؤس والوجع والخذلان، صدقت شكواها فقد تراءى لي لأول مرة مظهر الفناء فيها، وصدقت هي دون أن أطلب إليها، صدقت تلك العبرات التي لم أملك المقدرة على حبسها، ولم أملك غير ذرفها مقدرة أخرى.

لم تسألني أن متى سأعود لزيارتها فقد أدركت بأنه ما عاد هناك سحر من

ورق يسير بي إليها، ولا تعويذة من حبر تشدني إلى أحضانها، أدركت أني قد أضحيت مجرد ذكرى، قصة لن تجد يوما من يسردها ولا من يستمع إلى فصولها، أدركت أني أهجرها ولن يرسل إليها كتاب ولن يطرقها من بعدي قارئ، وكان قاسيا عليها أن تراني لا أغير ما يصنع بنا تماما كما كان قاسيا علي.

أقفلت الباب العتيق ووعدت المفتاح أن أضعه بزاوية أمينة، أن أجعل له جنب علم دار الستة مكانا فكانت هذه نهاية المكتبة التي لم أزرها يوما ولم أطرق بابها لأني آلها، وأقسم يا من لم تطالعوا بها يوما أني ما كتمت عنكم شيئا من أخبارها، قصصت أسطورة ميلادها وما حملته رفوفها والرسائل التي ولدت بين ذراعيها، لم أخف عنكم خبر الريح الباردة المتربصة بها ولا شعاع الشمس الدائم الإطلال عليها، أفصحت لكم عن كل ما مجدها وأوجعها حتى أضحيتم تعرفون عنها الكثير، ولكأنكم قضيتم فيها عشرين عاما، ولكن أتراني كتمت عنكم بعضا من أخباري حتى خيل إليكم أحيانا أن لي فصولا غامضة؟

سأصدقكم القول كما فعلت منذ أودعتكم الأمانة، وسأعترف بأني قد أخفيت عنكم فصولا كثيرة، وها أنتم تسائلونني لماذا؟ وها أنا أسائلكم ماذا لو أحطتكم علما بثوب اشتريته وسوار وعقد، وأطلت في وصف حلتي حتى تراءت أمامكم، ثم مزقت دونما داع الثوب وقطعت خيط السوار فالعقد، ماذا لو كلمتكم عن عطر أحببته وأطلت في وصف حبي له فلما تمنيتم شم ريحه أوقعت قنينته فانسكب على الأرض، صداقة قصيرة الأمد أطلت قص تفاصيلها المملة فلما تعلقتم بها أنهيتها كأنها اللاشيء، خلاف دام لحظات منحته بدل السطر السطور حتى أحسستم بالمسؤولية اتجاهه فأقمتم له محاكمة وأصدرتم فيه أحكاما، ولكني تركت الأحكام كلها لأقيم الصلح، فناجين الشاي الساخنة أثناء ثرثرات شخصيات كثيرة عابرة...

كان في وسعي أن أملي عليكم تلك الفصول التي لا تخلو منها حياة ولكني عدلت عن ذكرها لأنها لم ترتبط بوطني وبأمتي ولو قليلا، لم ترتبط بكم مطلقا، لم أذكرها لأنها لا تستحق الذكر، فلا تسألوا عنها وقولوا ماذا بعد نهاية المكتبة؟

انقضت تلك الليلاء التي لم يغمض لي فيها جفن، ثم أقبل الشروق وأقبلت معه الواحد والعشرون ربيعا، ولم أحظ يوم بلغت هذه السن بهدية، والمحزن أني لم أحظ كذلك بحلم مميز، مر اليوم عاديا دون أن ألحظه، ومرت من بعده أيام أخرى وأسابيع كثيرة، وكنت قد حاولت خلال هذا الزمن مجاراة تلك الحياة الخالية من أي لون والتي استعمرت دنياي بأكملها، حاولت غير أني سرعان ما استسلمت ثم سلمت نفسي لها دون مقاومة كالعبد الذي لا يعصي أمر سيده ولا يبدي استنكارا ولا يسعى لتحرر، حسبه أن العبودية فطرة من ربه وربه العدل ما خلق عباده إلا بشرا سواسية أحرارا.

لم أقص لأحد ما صنع بكتبي، فبذلك العهد لم يك هناك أحد ليستمع إلى هذا الصنيع، لم يك هناك أحد لأخبره أني لم أستطع طرق باب المكتبات وأني لم أقدر ابتياع الكتب للمطالعة ببيتي، فبكل مكتبة كنت أسمع نحيب مكتبتي، وبكل كتاب كنت أرى منفى كتبي، هجرت أقلامي وأوراقي، وأضحيت كشبح لا يصدر وقعا، لا يترك أثرا، لا يلمح سوى بالظلال باهتا صامتا متخفيا حتى لا يكاد يجزم الآخرون بوجوده.

رحت أحاول ترتيب كتب القانون ودفاتري وأعمل على جمع كل ما فاتني من الدروس والمحاضرات، عزمت على الاهتمام بدراستي التي أهملتها زمنا ليس بالهين، فمع أني نجحت في الالتحاق بآخر سنة للتخرج إلا أن تصنيف علاماتي ضمن قائمة الأضعف، وتواجد اسمي بذيل الترتيب قد كان سقطة لم أعرفها من قبل في مشواري الدراسي، كان لابد أن أعود تلك الطالبة التي لا تتغيب عن محاضرة ولا تهمل درسا ولا تنشغل عن وظائفها بشيء، كان لزاما

علي أن أجتهد وأثابر مرة أخرى لأبلغ المكانة التي طالما عملت جاهدة لنيلها.

انطلقت حاملة محفظتي صوب الكلية وأنا عازمة على النجاح لنيل الشهادة، غير أني لم أك متحمسة ولا سعيدة أثناء السير في قاعاتها أو مكتبتها أو ساحتها، لم يبد علي النشاط قط فيها، يحسبني الرائي أني قد تعودت على أجوائها حتى الضجر أو أني طالب كسول يتردد عليها مجبرا حتى لا يفصل، ويخفى عليه أني لا كنت بالضجر ولا بالكسول، إنما كنت أحمل في أعماقي وجعا وحزنا وخوفا ومرارة وذنبا، والذي يحمل الخمس معا لن يلمح الرائي في خطاه مرحا وفي بصيص عينيه بريقا.

كنت أعود للبيت بعد الدوام مشيا على الدرب الذي هاله أن تصير في طرفة عين خطوات رقص خطوات منهزم في حرب، كنت أساعد والدتي في الأعمال المنزلية حتى لا تتعب وكنت أختلس أثناء ذلك، كنت أختلس دون أن تلحظ النظر إلى معصمها الذي تخلى عن سواره الوحيد لأجلي.

لم أقض زمنا طويلا في الاختلاس فالتفكير ولم أشعر مطلقا بالتردد بل رحت أبحث عن وظيفة بدوام جزئي، فلما عثرت على إعلان لإحدى الشركات الأجنبية المتعددة الجنسيات والتي دونت فيه حاجتها لعامل يتقن الرقن وكذا اللغات الأجنبية سارعت بإرسال سيرتي الذاتية.

قبلت بعد أن اجتزت المقابلة التي يفرضها قانون الشركة الداخلي، ثم سلمت المهمة التي وظفت لأجلها والتي لم تتعد ترتيب بعض الملفات ورقن بعضها الآخر، بدا لي العمل بسيطا كراتبه، إلا أني سعدت به كثيرا فقد كان طريقا نحو سوار ذهبي ما أقتنيه بعد أن أدخر رواتبي بضعة أشهر، سوار كان سيسعد أمي وكان سيسعدني.

انطلقت أعمل دون مماطلة، وصدق ظني لما اعتقدت ببساطة ما أوكل إلي،

غير أن ظني خاب بعد دوام واحد في زاوية ذلك المكتب الذي هيئ خصيصا لي، فقد شعرت بجوه مختلفا عما رسمته بمخيلتي لأن الحديث بلغة أجنبية طيلة ساعات المساء والرقن بها فمشاطرة أجانب المهام أشعرني بشيء من الغرابة.

أجل، كان غريبا ألا يستطيع كل من حولي فهم لهجتي الجزائرية إن أنا تحدثت بها، ولا لغتي العربية الفصيحة إن أنا استعنت بها للتعبير، كان غريبا أن تكون اللاتينية هي لغتنا الوحيدة للحوار، وأن أكون الجزائرية الوحيدة بينهم، ولكنني كتمت هذه الغرابة التي لم يشعر بها الآخرون معتقدة أني سأتعود عليها بمرور الأيام.

كددت في مهام منصبي وعملت جاهدة على إعطاء أفضل ما لدي، وكنت لا أتكاسل ولا أتهاون حتى تحين فرصة الاستراحة، حينها فقط أمنح نفسي زمنا لاسترجاع أنفاسي، فأجلس وحيدة بالقرب من باقي العاملين، أرتشف القهوة وأستمع في ذات الآن إلى أحاديثهم التي لم أشاركهم فيها فقد كانت دخيلة على معتقدي، مخالفة لأعرافي وتقاليدي، عاجزة عن تحريك عواطفي، كنت مثلهم أرى الاختلاف بيننا في كل مرة وكنت مثلهم أكتم ما أرى، بدا لهم الحال عاديا لأنهم في بلد مضيف، أما أنا فقد شعرت به خانقا بعض الشيء، لأن الأرض كلها أرضي.

بدا أن فصل حياتي التي نصفها دراسة ونصفها عمل سيستمر للأبد، غير أني شعرت في قرارتي بأن هذا الفصل المتسم بالهدوء لن يدوم طويلا، وكنت أستطرد كلما راودني هذا الشعور ثم أتمتم قائلة بأن الحياة قد اكتفت مني وبأنها قد تركتني لتبحث عن شخص آخر، شخص لا يزال يبتسم ويحلم ويأمل، غير أني أخطأت الظن لأن الحياة لا تكتفي من المستسلم المسلم بل تتبع ضرباتها بالضربات حتى ينتفض أو ينتهي.

بعد زمن من الدراسة الجادة بالكلية والعمل الكد في الشركة الأجنبية زارنا

الشتاء كما تعود أن يفعل في تلك الفترة من السنة، زارنا فصل المظلات وما خالجني أمر قبالة مطره وبرده والوشاح الذي ألف به عنقي فكل ما كنت أعنى به هو مسؤولياتي اتجاه الشهادة التي أطمح إلى الحصول عليها واتجاه المكتب الذي أعمل فيه، فأنا وبعد كل انكساراتي أدركت أنه ما عاد لأفكاري وعواطفي بد للميلاد، فالأفكار والعواطف تولد لتعطي المرء وجودا، هي لا تولد لتوءد في الصمت.

كان المطر ينهمر بغزارة حين عدت إلى البيت بعد جولة في السوق رفقة والدتي، خلعت معطفي المبلل وجلست على الأريكة منهكة القوى، أغمضت جفني زمنا بسيطا فلما شعرت بشيء من الراحة شغلت شاشة التلفاز، شرعت في تقليب قنواتها بحثا عن بث مثير للاهتمام كاختراع جديد أو اكتشاف لمخلوق بحري عجيب فلطالما ملكت تلك الشاشة سحرا متنوعا تشد به المتفرج إليها، وبينما أنا على هاته الحال إذا بإحدى القنوات تبث خبر قيام شاب تونسي بإضرام النار في جسده...

راعني الخبر الذي لم أك قد سمعت مثيلا له في حياتي كلها، فرفعت دون أن أشعر من صوت الجهاز ورحت أتتبع كل ما بثته القناة حول قصة هذا الشاب وأوضاع حياته القاسية فصفعة الشرطية فإضرامه للنار بجسده.

نادت علي أمي غير أني ما لبيت نداءها فقد عجزت عن ترك الشاشة، شعرت بالخبر يشدني إليه بقوة ويحيط بي من كل جهة فقد كان الشاب تونسيا، وقد كان إضرامه للنار في جسده بعد صب البنزين عليه أمرا رهيبا.

تشبثت عيناي بصورة الشاب وأبتا مفارقتها، رحت أتأمل لون عينيه وشعره وبشرته والانحناءات في جبهته، لوهلة بدا لي أني صادفته من قبل في مكان عجزت عن تذكره، ثم فك قيد شروذي يد أمي الناعمة وهي تحط على شعري المنسدل لتلاعبه كما تحب أن تفعل مذ طفولتي، نظرت إليها وهممت

باستسماحها لأني ما هرعت إليها حين نادت اسمي ولكني ما نطقت ببنت شفة فقد وجدتها هي أيضا تتأمل الصورة بتمعن وتصغي بكل جوارحها إلى قصة صاحبها، فجأة انحنت وقبلت بحرارة جبيني.

تملكني الدفء الناعم فقبلة أمي هي أول الحنان وهي أعظمه أيضا، سألتني أن أنضم إليها لتناول الطعام ففعلت، قمت بهدوء وجلست جنبها وجنب أبي في مكاني المعتاد، طغى صمت على غرفتنا كأن لم يك ثلاثتنا فيها فقد استطاع الحدث الحزين الذي بلغنا عزل كل حديث، لا بل بالكاد تذوقنا الطعام فقد استطاع إطفاء شهيتنا أيضا، لم أقدر التكهن بالذي كان يجول بفكرهما ولم أسألهما عنه، أما أنا، فكل ما استطعت التفكير فيه هو تلك اللحظات التي كانت ألسنة النيران تلتهم فيها جسد هذا الشاب التونسي.

توجهت إلى غرفتي بعد أن فارقنا طاولة الطعام فقد كان علي النوم باكرا للاستيقاظ مع الفجر، ارتسمت صورة الشاب في مخيلتي ما إن أغمضت جفني، وأعتقد أنها قد ارتسمت في مخيلة أمي كذلك فقد دقت بابي حاملة قنينة ماء صغيرة، وضعتها بالقرب مني وقالت أنها عادة علي الحفاظ عليها، رفعت غطائي حتى أخفت به عنقي وطلبت إلي أن أدعو لمحمد البوعزيزي بالشفاء ثم غادرت الغرفة دون أن تقول كلاما آخر.

كان في صوت أمي لحظة تلفظت بهذا الطلب لحن لم أسمعه من قبل، واستغربت أن يكون لها لحن لا أعرفه بعد فلا صوت في الدنيا أحفظه وأميزه كصوت أمي، كان لحنا من غضب وأمي لا تغضب، هي تريد بانفعالها من أفعالي أحيانا أن أدرك الصواب، أن تعبر عن خوف علي أو قلق، كان من عادتها إبداء انزعاجها من أقوال الآخرين وتصرفاتهم، والتعبير عن رفضها لكل ما يضايقها ويخض مضجعها، أمي ككل أم تنفعل بعفوية دون أن تغضب ولكن الذي سمعته تلك الليلة قد كان لحنا من غضب.

قمت في صباح اليوم الموالي باكرا وتوجهت إلى الكلية، حين بلغت قاعة الدرس وجدت زملائي بالصف منشغلين بقصة «محمد البوعزيزي»، ألقيت عليهم التحية ثم جلست برفقتهم ورحت أستمع إلى حديثهم الذي كان ترديدا لما بثته قنوات التلفاز، وأدركت من وصفهم للحظة التي بلغ فيها الخبر مسمعهم ومن وصفهم للطاولة التي بالكاد تذوقوا منها شيئا، أدركت أن زملائي كلهم قد تملكهم ذات الشعور الذي تملكني كما راودهم في مخيلاتهم ذات التصور الذي راودني، ثم قطع حديثنا انطلاق الدرس فجلس كل منا في مكانه وهو لايزال راغبا في الكلام حول الحادثة وراغبا في الإصغاء لكل كلام.

لما دقت الساعة معلنة عن بلوغها منتصف النهار، حملت حقيبتي وسارعت بالتوجه إلى مكتب العمل، استوقفت نفسي مرة واحدة في الطريق المؤدي إليه لابتاع صحيفة من أحد المتاجر، وضعتها في حقيبتي ثم واصلت الهرولة نحو وجهتي.

بلغت المكتب بعد ساعة من الزمن، توجهت صوب زاويتي فوجدت على طاولتي عددا لا بأس به من الملفات التي كان علي رقنها وترتيبها، وقبل أن أشرع في العمل تصفحت الجريدة علها تحمل مقالا حول حادثة الشاب التونسي، وحقا فعلت غير أنها لم تزد على الذي سبق بثه شيئا لهذا خطر على بالي تصفح الجرائد التونسية عبر شبكة الانترنت، ولكن رب العمل نادى علي ليعطيني ملفات أخرى وملاحظات جديدة فكان علي القيام وترك الحاسوب.

حين دقت فسحة الراحة سارعت لقراءة ما كتبه حبر الصحافة التونسية، وسألني على حين بغتة أحد العمال عن الملف المهم الذي رفضت لأجله ترك الحاسوب وآثرت العمل عليه بدل الاسترخاء في تلك الدقائق التي لا يتخلى العمال عادة عنها ببساطة!

أخبرته باللغة الأجنبية أني لا أعمل إنما أود الاطلاع على حادثة الأمس، هز

كتفيه وقال أني في الأخير حرة بفعل ما أشاء في وقت راحتي ثم غادر المكتب ليرتشف القهوة رفقة باقي الزملاء دون أن يسألني عن هذه الحادثة.

استغربت تجاهله للذي نطقت به، واعتقدت في قرارة نفسي أنه لم يفهم قصدي جيدا مع أن لغتي سليمة ثم عدت إلى تصفح الجرائد التونسية باهتمام بالغ، فمع أني حظيت بتفاصيل الحادثة كلها من قبل في قناة التلفاز والصحيفة وحديث زملائي بالكلية إلا أن الصحف التونسية استأثرت بشيء خاص لا يمكن العثور عليه في غيرها وكان لابد لي أن أجده، أن أكتشفه، أن أطلع عليه، كان لابد لي أن أنظر إلى رأي أبناء تونس كلهم وأن أرى نقدهم والسبيل الذي اختاروه للتعبير، لكن انتهت دقائق الاستراحة المعدودات قبل أن أبلغ غايتي، فعدت إلى الرقن وفي نفسي رغبة ملحة لمعرفة جواب ما كنت أبحث عنه، فلطالما كان رأي ونقد الآخرين مهما في نظري، لا بل كان الجوهر الذي شيدت عليه رسائلي، فحياتي.

عدت بعد الدوام إلى البيت منهكة القوى، وقبل نيل قسط من الراحة شغلت شاشة التلفاز رغبة مني في رؤية ما إذا كانت تنقل مستجدا عن صحة الشاب المصاب وبعضا من آراء المواطنين، ويا للمفاجأة، وجدت القنوات التونسية والعربية تبث تجمهر المئات من أبناء منطقة سيدي بوزيد وولاية القصرين التونسيتين تضامنا مع محمد الذي كان طريحا بأحد المستشفيات يعاني من جراح حروقه البليغة.

«لم ينتقد التونسيون ما فعله هذا الشاب بكلام جارح، قاس، مؤذ، لم تتجاهل أفكاره ولم تستنكر، لم يضرب بعواطفه عرض الحائط ولم يترك وحيدا، لم ينتقد التونسيون بعنف طريقته في التعبير عن ضيقه بالحياة القاسية الشرسة إنما تجمهروا من أجله».

لم أتلفظ بهذا الكلام بعد تفكير بل تبادر لوحده فهمست به شفتاي همسا

خافتا، قد كان من المتوقع في نظري أن أجد بشاشة التلفاز خبرا عن صحة الشاب، وكان بديهيا أن أجد آراء مختلفة حول ما قام به، وأن تكون أغلب الآراء انتقادا لاذعا لأن صنيعه بجسده فعل دخيل على مجتمعنا العربي، أما رؤية المئات من التونسيين متجمهرين للتعبير عن تضامنهم معه فحقيقة ما كنت لأصدقها لوما رأيتها بأم عيني.

«لماذا ترك تونسيون كثر حياتهم اليومية وواجباتهم والتزاماتهم ليقفوا معا هذه الوقفة؟»، همست شفتاي مرة أخرى، كان جليا لي ولكل من يتابع شاشة التلفاز أن كثيرا من التونسيين يعرفون ويعترفون بأوضاع الحياة القاسية والشرسة التي يعيشها محمد، وأنهم يشعرون بتلك الغصة التي اختنق بها صدره وذلك العجز الذي شل جسده وتلك الأفكار التي منع من تحريرها وتلك العواطف التي سلب حق مشاطرتها، وأنهم بوقفتهم السلمية يمدون يدهم إلى جراح حروقه ويمدونها إلى ذلك الجزء المعذب الذي يحمله كل واحد منهم في مأكله أو مشربه، في عمله أو بيته، في فؤاده أو فكره، في حلمه أو أمله، أو في جميعهم، لكأن هذا الجزء قد أضرم هو أيضا النار في ذاته تعبيرا عن رفضه للحياة التي لم تنصفه ولم ترحمه يوما.

وضعت يدي على قلبي الذي راح يخفق بقوة عله يهدأ، ورأت والدتي الجالسة بالقرب مني شيئا من الدمع الذي لمع للحظة بعيني ثم اختفى كأنه ضيف طرق الباب ثم رحل بعد أن استحى، لم تسألني عن خطبي بل قالت بلحن الغضب الذي كنت قد ميزته من قبل أن الحياة قد أضحت قاسية لحد أنها تأخذ الابن من بين ذراعي والدته ثم تحرقه أمام عينيها بالنار.

نظرت إلى والدتي وتأملت عينيها فأدركت أن غضب أمي إنما هو مواساة لوجع أم أخرى، فطنت لحظتها إلى أن قلب أمي لا يتحسر على الشاب التونسي فقط بل ويتحسر على والدته كذلك، فالأم ترى في وجع الابن وجع

أمه أيضا، ولحظة أدركت وفطنت إلى كل هذا أيقنت أن الحياة قد تمادت في شراستها وأنها لن تتوقف إلا إن هي استوقفت بشراسة أكبر، فجأة أشارت والدتي إلى الشاشة والذهول باد على محياها، وجهت بصري إلى الذي أشارت إليه فرأيت بث مواجهات بين المتجمهرين التونسيين وقوات الأمن.

استحال علي أن أبعد نظري عن الشاشة، فقد كانت تلك هي المرة الأولى التي أرى فيها أمرا مماثلا، كل ما شعرت به في تلك اللحظة هو يد والدتي تشد بقوة على يدي، لم تقل هي شيئا ولم أتفوه أنا بكلمة واحدة فقد كانت تلك المواجهة التي رافقتها الاعتقالات بتونس العربية الشقيقة.

تابعنا معا ما عرض من صور وما نشر من أخبار دون أن نلتفت إلى عقارب الساعة، كلام كثير ومتضارب من شخصيات لم أتعرف عليها، دموع وآهات وشكوى ودعاء ثم ما شعرت بنفسي إلا وأنا أستيقظ من النوم فجر اليوم الموالي بعد أن غفوت على الأريكة.

حملت حقيبتي مع الشروق وغادرت البيت متوجهة صوب الكلية، استوقفت نفسي عند أول متجر لبيع الصحف فأيقنت ما إن نظرت إلى عناوينها الرئيسية أن الحدث في تونس قد تربع على عرش أغلب مقالاتها.

سارعت إلى حمل عدد لابأس به من الصحف فلما جلست على مقعد موقف الحافلة انطلقت في قراءة ما دون بها وكذلك فعل الكثيرون من حولي، فقد كان يكفي الإلتفات يمينا أو يسارا لرؤية المارة بمختلف أعمارهم ماسكين بأيديهم صحيفة ويطالعون في صمت كل ما خط فيها، تحسبهم للحظة أنهم قد نسوا وجهاتهم وسافروا بين سطور أخبارها إلى تونس.

أنهيت قراءة ما حملته صحفي التي لم تزد شيئا عما بثته قنوات التلفاز ثم واصلت السير إلى الكلية بعد أن تأخرت الحافلة المؤدية إليها كثيرا، كان المطر

يبلل شارع العاصمة العريض بهدوء كأنه العزف الحزين وكان البرد الشديد يرسم حمرة على خدي كأنها قبلات الجليد، فلما بلغت وجهتي أسرعت إلى المقهى لأرتشف شايا دافئا.

جلست رفقة بعض من زملائي الذين وجدتهم قد اتخذوا من إحدى طاولات المقهى زاوية يحاولون الشعور فيها بشيء من الدفء، كان أول ما ساءلوني عنه بعد أن ألقيت عليهم السلام هو الحدث في تونس فقد بدا الكل مشدودا إليها بعد أن قضى الجميع ليلتهم أمام شاشات التلفاز، كان حديثنا كله تكرارا لما بث على الشاشات ولما نشر في الصحف، ما كنا نزيد شيئا وما كنا ننسى تفصيلا، ولوما حان موعد الدرس لما توقفنا ولما تركنا تلك الطاولة الصغيرة.

دقت الساعة معلنة بلوغها منتصف النهار، فغادرت الكلية وهرولت صوب زاوية العمل، حين بلغت مكتبي سارعت بوضع حقيبتي وصحفي عليه ثم هممت بالضغط على زر تشغيل الحاسوب، هنا، دق رب العمل الباب وقدم لي لائحة بالملفات الواجب علي رقنها وتقديمها إليه.

ما إن أنهى كلامه حتى هم بالذهاب غير أنه عدل عنه بعد أن لمح ما وضعت على المكتب، نظر إلي ثم قال بنبرة جافة أن صحفي توحي بأني أنشغل بها عن مهامي، مددت يدي إليها بهدوء ووضعتها في الدرج، لزم الصمت للحظة ثم قال أنه من المناسب أن أعود نفسي على مطالعة الصحف اللاتينية لأنها ستثري رصيدي اللغوي وستساعد على ترقيتي بالمستقبل.

غادر رب العمل مكتبي فأطلقت نفسا ثم انهمكت في العمل، كنت أود تصفح الجرائد التونسية عبر شبكة الانترنت، إلا أني لم أحظ بفسحة من الزمن فقد كانت الملفات كثيرة العدد، شعرت وأنا لا أرفع ناظري عنها أن عقارب الساعة تتباطؤ وتخرق قانونها لألا تبلغ دقائق الراحة التي أحصل عليها بعد قضاء ساعتين من الرقن، وأعرف أن العقارب ما ارتكبت هذا الجرم ولكن

رغبتي الشديدة في قراءة الحبر التونسي أفقدتني صبري.

مر الزمن المتثاقل ودقت فرصتي فسارعت إلى الصحف التونسية عبر شبكة الانترنت، وبينما رحت أغوص في مقالاتها سألتني زميلة لي إن كنت سأقضي دقائق الراحة جالسة قبالة الحاسوب أو أني سأرتشف كوبا من القهوة التي ستساعدني على مواصلة العمل في الساعتين المتبقيتين من تلك الأمسية، أخبرتها أني لا أستطيع الذهاب إلى مقهى الشركة فأنا لا أكتفي من قراءة تفاصيل ما حدث بالأمس في تونس، سألتني عن الذي حدث فقلت مشادات بين المواطنين وقوات الأمن، قاطعتني دون أن تستفسر عن المزيد قائلة أن عليها ارتشاف كوب قهوة رفقة زميل آخر كانت قد وعدته في وقت سابق بذلك.

ذهبت زميلتي الأجنبية إلى المقهى، وذهبت أنا إلى تونس عبر سطور مقالات الصحف، رحت أحيط كلماتها بعنايتي واهتمامي، فأحاط بي الاستنكار والتساؤلات، هذا لأن التجمهر والمشادات والاعتقالات كلمات عرفتها في الكتب غير أني لم ألاقها في واقعي يوما، كنت أقرأ بصوت شبه مسموع مطالب التونسيين وطموحاتهم وقص بعضهم للتجارب القاسية التي مروا بها، وكنت أستوقف نفسي عند كل قص كمن يستوقف نفسه لدى رؤيته لأمر ما سبق أن رآه وما سبق أن سمع عنه من قبل.

انتهى عمر الدقائق فعمر الدوام كله، حملت نفسي وعدت إلى البيت رفقة الغروب وأنا أشعر بتعب رهيب، لما بلغته وجدت والدي يتابعان شاشة التلفاز فجلست برفقتهما بعد أن ألقيت عليهما السلام، كانت القنوات العربية والاجنبية تبث مسيرات التونسيين الحاشدة فالمواجهات والاعتقالات بعدة مدن، وكانت ترفق بثها بما شاءت من التعاليق والتكهنات...

تلك المسيرات السلمية فالاعتقالات الكثيرة التي كانت تبعد عنا مئات الأميال ألقت على بيتنا البسيط صمتا لم نعرف له مثيلا، فتونس لم تك مجرد

بلد في هذا العالم الشاسع، تونس هي البلد الشقيق والمجاور، هي أرض العروبة والإسلام، هي ساقية سيدي يوسف، هي جزء أمتنا الذي لا سلام لنا ولا سعادة ولا هناء إلا بعموم السلام والسعادة والهناء فيه.

تركت والدي وتوجهت إلى غرفتي، أطفأت نورها وتمددت على تختي، كنت منهكة القوى، كثيرة المسؤوليات في الكلية والعمل ولكني ما استطعت التفكير بهذا كله فكل ما تبادر إلى ذهني هو حيرة شبيهة بظلمات قبو لا يعرف له مخرج فقد اكتشفت في يومين ما يعايشه التونسيون من ظروف صعبة وهموم كثيرة وأحلام مسلوبة وسعادة منهوبة، لكن لم لم أعلم شيئا عن حياتهم ومآسيهم خلال الواحد والعشرين عاما التي هي كل عمري؟

لم أعثر بتلك الليلة على جواب لسؤالي ولا على مخرج من القبو المظلم، سألت النجم بصوت خافت عن جمال تونس فلكأنه أوحى إلي بأنه كجمال الجزائر، جمال كالسحر خلق للتأمل، خلق لتتداوى به القلوب ولتسكن إليه النفوس، ابتسمت لوحي النجم الصادق ثم غفوت على صوت المطر الغزير وهو يروي الدنيا كلها لتزهر مرة أخرى.

سارعت في صباح اليوم الموالي بالتوجه إلى الكلية، استوقفت نفسي في الطريق المؤدي إليها ثم جثمت جنب معرض للصحف وهناك لمحت من بين العناوين المنشغلة كلها بتونس عنوانا عريضا يتحدث عن مطالبة كثير من التونسيين بتنحي رئيس الجمهورية!

لزمت السكون تحت المطر، ولم أشعر بحباته وهي تبلل وجهي وخصلات شعري الأسود الطويل، تمتمت قائلة: «سيغير هذا المطلب تيار الأحداث كلها، فهل يقوى أصحابه على التجذيف»، فجأة فطنت إلى أن الحبات قد ازدادت غزارة فحملت صحفا كثيرة بعد أن دفعت ثمنها ثم واصلت السير نحو الكلية.

كنت كالكثيرين أعتقد أن خطابا رئاسيا يحمل مراسيم تغيير سيرضي التونسيين، كنت كغيري أحسب أن بعضا من الوعود ستنهي المسيرات في تونس، ولكن هذا المطلب كشف لي بأن الخطاب والوعود لن يهدئا نبض الجزء الملتهب.

«هل سيتنحى رئيس الجمهورية التونسية عن منصبه؟»، سألت هذا وأنا أسير تحت المطر وكانت تلك هي المرة الأولى في حياتي كلها التي أعايش بها يوما يطالب فيه شعب عربي رئيسه بالتنحي عن كرسي الحكم.

بلغت وجهتي وجلست بصف قاعة المحاضرات الأول، رتبت أقلامي ودفاتري فوق طاولتي ثم رحت أصغي إلى الأستاذ ولكني عجزت عن التركيز في درسه، عجزت عن التفكير في أمر غير تونس: «كيف تبدو شوارعها؟ وما أسماء حاراتها؟ روايات المعذبين على أرضها ووحي يمها؟ ما حلقات التاريخ التي تجمعنا والتي محاها مس أصاب الكتب؟ هل ستنتهي اليوم التجمهرات فيها أم أن عهدا جديدا يكتب بيد بسطائها؟ وهل يكتب البسطاء أمثالي عهدا؟ هل يشيد أشباهي بأفكارهم وعواطفهم غدا؟ هل يغيرون حالا؟ هل يسترجعون قدرا، فحلما، فأملا، فوطنا؟»).

سألت في نفسي، فراودتني أشد الاحتمالات تعقيدا وأكثرها بساطة، وجدت نهايات لا تعد، وعثرت بعد كل نهاية على بداية جديدة، بدا لي ضعفي أمام الحدث تماما كما تبدو الشمس في العل، ثم جلست بمكتب عملي كاتمة كل ما خالجني وراودني وصارعني، لم أشارك أحدا من الأجانب أفكاري وعواطفي فهم لم يسألوا عن خطبي، اكتفيت بمراقبتهم في صمت وهم يخططون لسهرة راقصة بشقة أحدهم، غير مستوقفين أنفسهم ولا بعضهم للحديث عما يحدث في تونس ولكأن الأخبار لم تبلغ مسمعهم.

لم أشعر وسطهم بوجودي قط، فلا أفكاري تعنيهم ولا عواطفي ولا الأحداث

التي تحرك الاثنين، كنت وسطهم كشبح صامت، تماما كما كنت دوما.

طالعت صحفي مرة أخرى خفية عن رب العمل ثم سارعت إلى إخفائها بدرج الطاولة قبل أن يلمحها أحد منهم فينقل إليه خبرها، كان وضعا غريبا وخانقا، ففي ذلك المكتب وبذلك الفصل البارد كان هؤلاء الأجانب في منتهى الراحة والرضى ولم أك سعيدة ولا مرتاحة البال والفؤاد مثلهم، كنت في وطني وكانوا يرمقونني بنظرة الغريب بينهم، كانوا في وطني ولا تنقطع على عكسي أصواتهم، كنت في وطني ولم يكد يحس بوجودي أحد منهم، بل كدت لا أشعر أنا بوجودي.

فجأة اختنقت وانهمرت دمعة على خذي الأيمن فقد شعرت برغبة شديدة في ألا أكابد أحداث تونس وحيدة، برغبة في أن يشاركني الآخرون أفكارهم وعواطفهم وأن يسمحوا لي بمشاركتهم، فجأة تمنيت أن أغادر تلك الغرفة الباردة التي قلما يشغلون بها المدفأة التي يسخرون منها كثيرا قائلين ألا حاجة لهم بها فالشتاء في وطنهم شديد البرودة لا يشبه شتاءنا الذي لا حاجة للمدفئات في حضوره، فجأة وددت أن أسألهم ما ذنبي إن كان وطني لا يقسو علي بالشتاء؟ ولكني ما غادرت الغرفة، وما شغلت المدفأة وما فتحت فاهي.

مسحت عبرتي بأناملي ثم واصلت العمل بهدوء كأن لم يخالجني أمر، كأن لم ينهمر الدمع، واصلت العمل بحزن ثم غادرت زاويتي الباردة حين انتهت ساعات الدوام.

لم استوقف نفسي عند محطة الباص، بل تبعت الدرب نحو بيتي مشيا على الأقدام، كنت بحاجة لأن أستنشق هواء شوارع عاصمتي، وأن أبتاع قطعتين من المحاجب الساخنة لأتناولها أثناء تتبعي للدرب، أن أهرب من وحدتي إلى أحضان مدينتي التي طردت الوحدة عني لما استوقفتني فتاة بالرصيف المبلل طالبة إلي بعضا من طعامي، منحتها القطعة المتبقية وأنا أبتسم، ثم منحتها

مطريتي مع أنها لم تقل أنها تحتاجها، وأنها ستقف على الرصيف مهما اشتد هطول المطر حتى تستوقف أمامها سيارة رجل غريب.

شكرتني وهي تنظر إلى عيني فلمحت لمعة الدمع في عينيها، وما كانت قطعة الطعام مبكيها، إنما إحساني إليها وعدم تجاهلي لها فقد اعتادت أن يكون العالم من حولها منقسما بين محتقر وناهش لجسدها، وأن يكون من النادر أن يلمح قلب الانسان من بين ضلوعها.

واصلت السير صوب وجهتي، فلما هممت باتباع زقاق آخر استوقفت نفسي والتفت صوبها، كانت لا تزال تتبعني بعينيها، لوحت لي بيدها كأنها تشكرني مرة أخرى، ذكرني لقياها برسالتي التي كلمت فيها السفير عن قمة الهرم، أشعرني لقياها أن ما حملته رفوف المكتبة وما أخفاه درجها يحيا بكل الزوايا التي أمر بجانبها.

بلغت بيتي مع الغروب فسارعت بالجلوس رفقة والدي لتناول حساء أمي الدافئ، راح أبي يحدثنا عن الشجيرات التي زرعها ببستان أحد الأثرياء ولكنه سرعان ما توقف عن السرد فقد فطن إلى أن أمي لا تصغي إلى قصه تماما كما فطنت.

قالت سيدة الدار بعد لحظات من الصمت أنها تعتقد بأن الدراسة والعمل في آن واحد متعبان جدا، وأنها تخشى أن أنهك جسدي فيمرض وأن تنخفض علاماتي فأرسب.

أدركت لحظتها أن أمي قد عثرت بخزانتي على كل المال الذي أدخره، وأنها وبعد أن استرجعت بذاكرتها قائمة الأشياء التي أحتاج اقتناءها ولما أفعل بعد، أنها وبعد أن استرجعت هذا قد اكتشفت بميزة الذكاء التي عهدتها فيها أن المال يدخر لأجلها، لأجل سوار من الذهب يزين معصمها الطاهر.

أخبرت أمي أني لا أشعر بالإرهاق وأني قد استطعت التوفيق بين الاثنين، أني سأنجح في امتحانات سنتي الدراسية الأخيرة وسأنال كذلك أعلى العلامات، هزت أمي رأسها ولم تقل كلاما غير: «ان شاء الله».

هكذا كان حب أمي، وهكذا كانت أمومتها مذ ولدت، لم يك العناق يوما من عاداتها ولا القبل الكثيرة، لا المدح المطول ولا التغني ولا أسماء الدلع، حب أمي كان رعاية وثقة، كانت تعنى بكل تفصيل في حياتي وتثق بكل قرار أتخذه، كانت تحميني وتعلمني حماية نفسي في آن واحد، كانت تحرسني وتصنع مني قائدا في ذات الآن.

انزويت بعد طاولة الحساء في غرفتي، جثمت بالقرب من نافذتي ورحت أتأمل الدنيا ليلا، كان صوت الموج المتلاطم يبلغ مسمعي فرحت أصغي إليه كأنه لحن الطبيعة تعزفه لتواسي به الحزانى، راودني لوهلة أن ذا الموج قد لامس بالصبح شواطئ تونس ثم عاد سريعا ليمسح على شواطئ الجزائر وأنه يحمل أسرارها الكثيرة ثم إنه لن يبوح لأحد بها بل سيخفيها في قاعه العميق للأبد فهو الصديق الأمين.

«أيم، قد نادت تونس اسمي»، كذا كلمت يمي بعد أشهر من الصمت، «فجأة، دون مقدمات أو حمحمات، من غير استعداد مني أو تأهب نادت تونس اسمي، فلبيت النداء دون أن أشعر، أو أتردد، أو أفكر، لبيته بعفوية لكأني سمعته واحدا وعشرين عاما مع أني ما سمعت نداء لها باسمي من قبل.

أيم، كيف يعقل أن يكون هذا حالي بعد نداء واحد، أيم، قد نادت تونس اسمي فسرت إليها، إلى أبنائها وأوجاعهم وأحلامهم التي لم أعرفها من قبل، أجل، نادت تونس اسمي فأضحى هذا الجزء من أمتي كل حياتي، أستيقظ فأسرع إلى الصحف أسألها عن الذي تحمله من أخبارها وأحوالها، أنصت لأحاديث زملائي كلها مادامت الأحاديث عنها، أسعى إلى استيعاب تفاصيل

كل ما يحدث بها وقت الدرس وأسعى إلى معرفة المستجد فيها خفية وقت دوام العمل، نادت تونس اسمي ولكنه لم يك كنداء تسمعه الآذان، بل كان كأن جزءا لها يقطن بداخلي ثم ينطق لأول مرة متلفظا اسمي.

أجل، وجدت جزءا تونسيا بداخلي يحيا وينبض ويتساءل ويبحث ويقلق، كان بأعماقي يوم ولدت وظل بأعماقي طيلة سنوات حياتي ولكني ما شعرت به من قبل.

لإني أحب تونس فوحده الحب ما يحيا بأعماقنا وينبض ويتساءل ويبحث ويقلق، لإني أحب تونس بحكم ديني وعروبتي، أي أني أحب تونس حبا فطريا أبديا ومتى اجتمعت الفطرة والأبدية في الحب خلقتا رابطا عظيما، ولكني وبالرغم مما أحمل ما عرفت من قبل انتفاضة أبنائها، ما عرفت شيئا عن

أيامها بكل ما تحمله الأيام من أفكار وعواطف وآلام وأحلام وأحزان وآمال.

أفيا يمي الأمين، لم خفيت علي أيامها؟، لأن لا أحد كلمني وهو ممسك بيدي ذات مساء دافئ من أمسيات نيسان عن تونس، ولأن معلمي لم يحدثني عنها في المدرسة التي لا أتجاهل ما حدثت فيها ولا أتجاهل المعلم ولا أتجاهلها، ولأني لم أقرأ كتبها ولم أكاتب أبناءها والكتاب في معتقدي جسر القرب بيننا قبل كلام ودرس نحفظ بعضه ويمحو الزمن أغلبه.

لم خفيت علي أيامها؟ سؤال وجدت له أكثر من جواب ولكني ما عثرت له على عذر واحد، ويوم يجد المرء له العذر فسلام على الحب الفطري الأبدي، سلام على الرابط العظيم».

تلاطمت أمواج يمي كأنها اصغاؤه لمناجاتي، أطلقت نفسا طويلا حارا ثم وضعت يدي على قلبي وتمنيت على مسمعه أن يجلب الغد السلام لهذا البلد

ولجزئي.

أقبل الصباح فتوجهت صوب بائع الصحف قبل التوجه صوب كليتي، حملت عددا لا بأس به من ذلك الحبر الذي لا يشبه حبر الكتب ثم واصلت تتبع الدرب الذي ألف خطواتي وأنفاسي فهمساتي بين الحين والآخر من خلف وشاح صوف وردي اللون حاكته لي والدتي، لما بلغت وجهتي جلست في مقهاها لأرتشف شايا دافئا أقاوم به برد الشتاء ولأطالع ما استطعت من المقالات التي اعتنقت تونس قضية.

ما إن أنهيت قراءة كل ما حملت حتى رحت أسترق السمع إلى أحاديث زملائي من حولي، كانو يرددون كل ما نشر في الصحف وكل ما بث عبر قنوات التلفاز، يطلقون العنان لأسئلتهم وقلقهم وتنبؤاتهم ودعواتهم، كانو جميعا ودون استثناء واحد منشغلين بتونس، كأن ليس بانتظارهم درس، كأن ليس بحياتهم هم أو حزن أو انشغال، تمتمت من خلف وشاحي الناعم قائلة: «لكل جزء تونسي يحيا بأعماقه».

كان ريح هذا الجزء يفوح ببيتي وبكل أرجاء كليتي وبكل شوارع عاصمتي، لكن ريحه لم يك متواجدا بمكتب العمل، وكان المكان الوحيد الذي لم أستشعره فيه، فهؤلاء الغرباء عني لم يستهلوا حديثا واحدا عن تونس، لم يبدوا قلقا ولم يرفعو دعاء قط.

كانو يضحكون من بعد إلقاء نكت غريبة لم أستلطفها يوما، يتناقشون بجدية حول مهام العمل ملقين بين الحين والآخر كلمات من لغات أوطانهم ومخترقين بذلك قانون الشركة التي نص على اعتماد لغة أجنبية واحدة محددة، هذا وكانو يلزمون صمتا مخيفا، وكنت أستوحش ذاك الصمت الذي يغرقون الحجرة فيه، كنت أستوحشه وأخافه فقد كان غريبا مثلهم، غريبا كأوطانهم وألسنتهم ومعتقداتهم وما زرع في أعماقهم من أفكار وعواطف.

لم أشاركهم حديثا أو صمتا، كنت أنشغل عنهم بتتبع الأخبار عبر شبكة الانترنت، كنت أطالع على غفلة منهم مقالات الصحف التي ابتاع كل صباح، المقالات التي لم تسمح لي ساعات المحاضرات المتتابعة على قراءتها، ثم أسارع إلى إخفائها بدرج مكتبي حين يقترب مني أحد منهم، كنت أشهد انتشار المظاهرات في كثير من المدن التونسية وأشهد تحول هذه المظاهرات إلى انتفاضة شعبية، كنت أغرق بمحيط الأسئلة والحيرة والقلق وكنت أخفي غرقي حتى لا يقال لي مرة أخرى أني أهمل التزاماتي، كان وضعا خانقا ولكن أمي استحقت أن أحتمل الاختناق في سبيل سوار تزين به معصمها وتتباهى به أمام النسوة، مع أن معصم أمي دون سوار فائق الجمال والعروبة، يليق أن تتباهى بقصته دواوين الشعراء.

انقضى ذلك الأسبوع الذي فجر عواطفي وأفكاري التي حسبت لزمن أنها لن تولد مرة أخرى، انقضى ذلك الأسبوع وواصلت الأحداث كالأيام في التتابع ثم هي طلقة واحدة... ثم هي طلقة واحدة بتونس أصابت روحا... ثم إن هذه الطلقة قد أصابت روحي أنا أيضا... ثم إن الطلقة الواحدة تصيب كل الأرواح في وطني العربي...

جلست بغرفتي وحيدة مثلما تعودت ثم جثمت بالقرب من شرفتي ورحت أتأمل الهجر والغدر والخذلان من بلور نافذتها، ثم ألقيت ببصري إلى اليم الذي بدت عليه ملامح الحزن والحداد بعد أن ارتدى لون ثوب السحب الرمداء: «أيم، موجك يعلم أن تونس تبكي ابنا».

تلاطمت أمواج اليم بقوة كأنه هز الرأس فواصلت تكليمه ومن غير اليم استمع إلى أحاديثي من قبل، من غيره حمل آهاتي وأوجاعي وحلمي الذي لم يتحقق: «أيم، احمل لتونس رسالتي وفيها لا تطلقوا، لا تطلقوا النار على البسطاء إنهم لا يرجون غير دفء حساء وقلنسوة، وشيئا من الأمل وحلما

أو اثنين، لا تطلقوا النار على البسطاء فلهم أم كأمي لا سوار لها، وأب كأبي يعذبه عجز الأبوة فيه، لا تطلقوا النار على أبناء تونس إن كنتم حقا تحبون تونس، لا تطلقوا النار على أبناء تونس فالنار لا تطفئ شيئا، فالنار لن تصير يوما مثل الماء».

لم يحمل الموج رسالة ما استطعت خطها فلم تعلم تونس بوجودي، ظل عزائي سرا في أعماق اليم، ظلت مواساتي لحزن تونس على فراق ابنها حبيسة بيتي.

ما استطعت أن أبعث بعزائي لتونس فالعزاء لا يوقع إلا باسم كامل لا مستعار، وما كنت لأستطيع كتابة اسمي إلا إن أنا عرفتها على شخصي، على كل أوجاعي وأحزاني والدفين من أفكاري وعواطفي والذنب الذي أحمله على كتفي.

كنت راغبة أشد الرغبة في أن أكتب للتونسيين رسالة هي عزائي لشهدائهم، أخبرهم فيها عن غضب أمي وعن جزئي التونسي الذي يحيا بأعماقي، كنت أود إخبارهم أن الجزائريين كلهم قد اعتنقوا تونس طيلة تلك الايام المتلاطمة وأنهم قد صلوا من أجلهم كثيرا، ولكني ما تجرأت على خط أفكاري وعواطفي واكتفيت بالهمس: «بلغت في أمتي حد كتم العزاء».

همست لليم والليل والنجم والقمر أني لا أقوى إرسال عزائي لهم إلا إن أنا كشفت عن رسائلي الأولى التي تقضي في السجن عقوبة الموت، فالمرء إن قرر يوما الكشف عن وجوده فعليه أن يقف بكل ثبات وأن يتحدث بأعلى صوت وألا يكتم بعضا من أفكاره وألا يخفي قطعا من عاطفته كأنه الشمس، لا تشرق إلا قرصا مكتملا منيرا دافئا.

مجهول بداخلي تحرك بعد أن عجزت عن تعزية أشقائي التونسيين، مجهول

حي ولكنه دفين تحت الواحد والعشرين عاما، كنت أشعر به كمن يدفع عنه أنقاض انكساراته الثقيلة ليتنفس، كنت أشعر به كمن يحاول تحطيم أسوار سجنه العملاقة ليتحرر، كنت أشعر به كمن يسعى لرفع مرساته ليبحر، مجهول بداخلي تحرك فانتابني الخوف الشديد فأنا لم أتعود سوى أن أكون كبحيرة أسفل الجبل، تكاد لا تلمسها الرياح فلا يعرف لها موج، لا يعرف لها صوت ولا مد ولا جزر.

رحت أتأمل الدنيا من وراء البلور وهي غارقة في قرار الليل، كل ما شعرت به لحظتها هو اختناقي بالعزاء غير المرسل، بذنبي، بجبني، بصمتي وبوحدتي، بخطاي المثقلة، بنظرتي الكئيبة وبكل تمتماتي خلف الأوشحة، كل ما شعرت به لحظتها هو اختناقي بهم جميعا كأنهم قاتلي.

الفصل الأخير

«قد بلغت القمة»، قلت لليم وسواد الليل لا يفوق سواد مآلي، «قد بلغت قمة الهوان، قمة الضعف والاستسلام والجبن والخذلان، أيما جزء لأمتي إلا وقد يأس مني، كسحب لا تمطر أنا وكأرض قحط، كعين لا يرجى تفجرها، كجذع عديم الجذور والأغصان.

قد بلغت القمة بعد أن عجزت عن إرسال العزاء لتونس وأبنائها، بعد أن عجزت عن مشاطرتهم الحداد علنا، فماذا بعد القمة أيتها الحياة القاسية، ماذا بعدها والرحمة في جعبتك تنعدم والتوسل في طبعي محرم، لقد بلغت قمة الخوف والألم والحزن والوجع والمرارة والذنب وبالقمم تدفعين المرء بيدك الظالمة فإما أن يحلق وإما أن يهوي وينسحق».

لزم اليم الصمت وكذلك فعل النجم والقمر، ما عاد الكلام يجدي ولا عاد للنحيب بد، اسدلت الستارة وانزويت بالتخت، أخفيت نفسي تحت ملائته ثم حنيت ظهري، ملت بوجهي نحو صدري ورفعت ركبتي ثم شددت عليهما بذراعي.

لم تعلم لحظتها تونس بوجودي ولم تعلم أن لي قلبا يخفق بأسماء أبنائها كلهم، لا، لم تعلم أني كنت بتلك الليلاء قد عزمت على زيارة مكتبات الجزائر حتى أبحث فيها عن كل ما خطه سفراء أدبها، فوحدها الكتب كانت لتكشف لي عن وجه تونس، تونس وأفكارها وعواطفها وأخبارها وآلامها وأحلامها وآمالها الحية أبدا.

جسر القلم كان طلبي، وما كنت أرجو ولا أعترف بغيره جسرا: «أنا لا أصدق غير كتاب خطه كاتب حق، كاتب توجع في تونس وبكى وتألم وصرخ ومزق حلمه وسلب السعادة مرة ومرات، كاتب عد حبات البرتقال واستحى من حذاء والده ورثى مفتخرا معصم أمه، كاتب اتهم ظلما في وطنيته وأجبر

على إخفاء قوميته بأرض مهجورة، كاتب صان علم داره وعهدها وظل للبسطاء وفيا، أنا لا أصدق سوى كتاب خطه كاتب صادق»، قلت مخاطبة يمي من تحت ملجئي، وكان اليم يدري أني ربيبة الدار والمكتبة وسيدة الرسائل، وأني وبعد الذي كابدت وأكابد لا يزال دربي وعرا.

بالكاد غفوت تلك الليلة وكان لزاما علي أن أستيقظ باكرا من أجل درسي ووظيفتي، توجهت رفقة الشروق نحو الكلية وأنا أشعر بالكثير من التعب وبشيء من الصداع، فلما بلغتها سارعت إلى اقتناء كوب من القهوة عل القهوة تخفف عني بعضا من الذي ألم بجسدي.

التحقت بعد ارتشافها بقاعة المحاضرات، جلست على مقعدي بالصف الأول ورحت أنتظر انطلاق الحصة بعد أن نظمت كتبي وأقلامي فوق الطاولة، فجأة اقتربت مني إحدى زميلاتي، قدمت لي صحيفتها بعد تحية طيبة ثم قالت بنبرة حنونة أنها تعتقد بأني سأود النظر إلى ما دون فيها.

بدى الاستغراب واضحا على ملامحي غير أنها لم تقل كلاما يزيل استغرابي، بل عادت بهدوء إلى مقعدها وراحت تكلم بعضا من زملاء صفنا الذين التفتو جميعهم صوبي قبل أن يبسطو أيديهم للتحية.

رددت التحية بمثلها ثم مددت يدي إلى الصحيفة وقد ازددت شعورا بالاستغراب، رحت أقرأ عناوينها العريضة التي كانت تشير جلها إلى تونس الشقيقة وما تعاقب فيها من أحداث فالمستقبل الذي يسعى إليه أبناؤها، ثم قلبت بضع صفحات فكان حملها أخبار وطنية واقتصادية واجتماعية وثقافية كتلك التي تنشر كل يوم.

وضعت الصحيفة جانبا وهممت أن أسأل زميلتي عن قصدها من فعلتها، ولكني عدلت عن سؤالها بمجرد أن لمحت عيناي دون قصد عنوانا يحمل أنباء

عن دعوة إلى التجمهر في مصر.

دق قلبي دقا قويا فسكنت برهة من الزمن، لوهلة بدا كأن الصمت قد خيم على القاعة بعد أن كانت تعج بأصوات الطلبة فتمتمت مخاطبة نفسي: «انقطعت عنا أخبارك سنة كاملة تماما كما انقطعت عنك أخبارنا، فلما أريق الحبر كان هذا أول ما يبلغنا».

كذا خاطبت نفسي وأنا جالسة بالصف الأول، قرأت العنوان مرة ثانية ثم أطلقت نفسا طويلا حارا وأنا أتأمل مصر على الصحيفة كمن يتأمل وجه عزيز بعد فراق.

أخذت نفسا عميقا ثم رحت أقرأ المقال الذي نقل ما كان يتداول بمواقع التواصل الاجتماعي؛ عن أن عددا كبيرا من المصريين يدعون بعضهم بعضا عبر هذه المواقع للتجمهر تنديدا بظروف الحياة القاسية.

سرعان ما أفقت من شروذي وعاودت سماع حوارات زملائي من حولي، فجأة فطنت إلى أن أحاديثهم كلهم قد كان عن مصر وعن الذي ينادى به فيها، التفتت ذات اليمين وذات الشمال فوجدت كل من يبلغني صوته يقول مصر ويحاول اكتشاف ما سيحمله الغد لترابها.

هؤلاء الطلاب الذين آلمهم تطاول بعض الاعلاميين والمشاهير والسياسيين المصريين على جزائرنا وشهداءنا وشعبنا، هؤلاء الطلاب الذين أحزنهم وأدمى قلوبهم تجريح بعض الاعلاميين والمشاهير والسياسيين المصريين لجزائرنا وشهدائنا وشعبنا، هؤلاء الطلاب الذين امتنعوا من فرط الوجع عن الحديث عن مصر سنة كاملة لأن الوجع الذي تسبب به بعض الاعلاميين والمشاهير والسياسيين المصريين قد كان وجعا رهيبا، هؤلاء الطلاب هم أبناء جزائري، يتألمون ويجرحون ويتوجعون لكنهم ينشغلون بدعوة قد تغير مستقبل مصر، دعوة من

أبنائها البسطاء الذين ما ذكرو جزائرنا وما ذكرو شهدائنا وما ذكرونا بسوء إنما كانو مثلنا مجبرين على اعتناق الخصام، كانو مثلنا، الأوائل في دفع ثمن عقوق البعض، والأواخر في دفعه أيضا.

سارعت لجمع أغراضي ووضعها في حقيبتي، كنت أهم بمغادرة القاعة لكن صاحبة الصحيفة عادت واستوقفتني، دونما مقدمة شدت يدي وقالت أنها تتمنى الخير لمصر.

نظرت إليها باستغراب متسائلة أن لم توجهين لي هذا الخطاب من بعد أن قدمت لي تلك الصحيفة، وإذا بملامح الاستغراب ترتسم على وجهها هي أيضا، ضمت ذراعيها ثم قالت وكلها يقين أني من أخبرها بأن مصر بلد أحد والدي.

سكنت للحظة ثم ابتسمت فقد تذكرت حوارا دار بيننا مذ سنة، هذا وتذكرت أني لم أقل يومها كلاما، إنما لزمت الصمت قبالة تكهناتها حتى اعتقدت أنها مصيبة في أحدها.

عادت زميلتي إلى كلام وقالت أنها تدعو للمصريين إن هم احتشدو ألا يصيبهم مكروه، ثم عانقتني بقوة فعلمت أن علي التزام الصمت مرة أخرى حتى لا تشعر بالحرج من تكهناتها التي تدفع بها لعناقي أمام جمع غفير من الطلبة.

اعتلى الاستاذ المنصة فعادت زميلتي لمقعدها، حملت محفظتي وغادرت القاعة بهدوء فقد كان من الصعب علي أن أتابع درسي بعد أن شغل المقال فكري حتى أضحى كل همي هو الاطلاع عبر شبكة الانترنت على مقالات صحف أخرى فقد كنت على يقين أن كثيرا منها قد سارع إلى نقل هذا الخبر.

غادرت القاعة بعد أن تركت الصحيفة على الطاولة، ابتعت صحيفتين

وقرأت على عجل كل ما حملتاه من أخبار مصر، ثم توجهت إلى أقرب مقهى للانترنت وجلست قبالة إحدى حواسيبه ثم رحت أنتقل من صحيفة إلى صحيفة دون هوادة، فقد كنت على علم أن تاريخا إن صح الخبر سيكتب، أن أياما غير التي ألفنا ستقدم، أن حياة غير التي تعودنا سنستطعم، أن فصلا سينتهي ليبدأ من بعده فصل جديد.

قبالة ذلك الحاسوب رحت أقرأ كل ما خط على الصحف، وكان الخط واحدا؛ دعوة المصريين للمصريين، دعوة فارقة، دعوة غير الدعوات التي تسأل الآخرين مشاطرة الفرح والسرور والرقص على الأنغام المختلفة، إنما كانت دعوة لمشاركة الألم، لكشف الندوب، لطرد الوحدة وترك الزوايا الظليلة، لبسط الأحلام والآمال كما تبسط اليد للتحية أو للسلام.

لا، لم تخط الصحف هذا، إنما هذا الذي تمتمت به خلف وشاحي، أما المقالات فقد حملت كل ما نطقت به شفاه شخصيات كثيرة مصرية وعربية وأخرى أجنبية: «هل سيتجمهر المصريون حقا؟ هل ستشهد مصر عنفا وخرابا فهذا ما يفعله المتجمهرون غالبا؟ هل تجمهرهم تمرد؟ هل مطلبهم حق؟ ثم ما مطلبهم؟ لا نريد استباق الأحداث ولكن هل سيتجمهر المصريون حقا؟».

غادرت الصحف كلها بعد أن بدت كل المقالات متشابهة في نظري بالرغم من اختلاف عناوينها واختلاف أساليب النقل والسرد عبر سطورها، شددت مطريتي بقوة ثم رحت أتبع الدرب نحو مكتب العمل بخطى بطيئة كأني قد أثقلت بقوارير حبرها.

«هل سيجتمع المعذبون في مصر غدا»، سألت في نفسي وكنت أكثر الناس علما بالذي تحمله أعماقهم، كلهم: «لن تشهد مصر عنفا ولا خرابا فتلك القلوب المعذبة تؤذى ولا تؤذي»، جثمت للحظة في وسط الشارع العريض ونظرت إلى وجوه المارة الراكضين خلف الحياة والفارين منها في آن واحد،

نظرت إلى وجوههم ثم تمتمت مرة أخرى قائلة: «تؤذى ولا تؤذي، مثلنا تماما».

أخذت نفسا عميقا وقلت في نفسي: «أآن لصالح أن يهنأ؟»، ثم أطلقت زفيرا طويلا وواصلت تتبع الدرب فهذا كل ما يفعله البسطاء إذا ما تملكهم الضعف، أطلقت زفيرا طويلا وواصلت تتبع دربي وبرد كانون الثاني الشديد يطوقني فأقاومه بالشد على وشاحي.

بلغت وجهتي بعد ساعة من المقاومة، وضعت الصحيفتين بدرج مكتبي ثم جلست على الكرسي، نظرت إلى كم الملفات التي كان علي رقنها وإلى كم الملفات التي كان علي ترتيبها في قسم الأرشيف، مددت يدي ببطء نحوها ورحت أجاهد نفسي لأنطلق في انجاز العمل الذي أوكل إلي، لكن عبثا فعلت فقد كان من الصعب علي أن أنشغل حقا بالذي كان بين يدي، كان مستحيلا ألا أشرد وأنا أرسم في مخيلتي مدن مصر وأريافها التي أهواها وأهوى آلها البسطاء الحزانى.

فجأة نادت علي عاملة بالمكتب قائلة باللغة الأجنبية: «يا آنسة، يا آنسة، إني بحاجة للملف الخامس والسادس»، قمت من الكرسي ثم قدمتهما إليها وقبل أن أعود إلى مقعدي لمع في بالي لحظتها أنها وغيرها يلقبونني بالآنسة طيلة الأشهر الأربع التي قضيتها برفقتهم مع أنهم ينادون بعضهم بعضا بأسمائهم.

«ربما استحال عليهم حفظه أو أنهم قد عجزوا عن تلفظه تلفظا سليما»، فجأة سألتني العاملة عن سبب تحديقي إليها فسكنت للحظة ثم أخبرتها أني أود تشغيل المدفأة لأن البرد شديد غير أنها رفضت طلبي دون تردد وقالت أن أغلب من بالمكتب معتادون على تساقط الثلوج الكثيفة في بلدانهم، ومثل هذا الطقس لا يتطلب سوى قميص صوف واحد.

عدت إلى مكتبي وأنا أتفهم فصول الشتاء التي ربوا في قسوتها، لكني لم

أستسغ عجزي عن نيل شيء من الدفء في وطني، حدقت إليها مرة ثانية فوجدتها بشوشة على عكسي، تتحدث إلى غيري عن أي شيء، وكل شيء، عدا ما يدعى إليه بمصر، كأن الخبر لم يبلغ مسمعها ومسمعهم، أو أنه لا يعنيها ولا يعنيهم.

بهدوء جلست على الكرسي وأنا مرتدية معطفي على عكسهم، فوحده المعطف الأزرق ما بعث في جسدي الهزيل شيئا من الدفء، لما دقت فرصة الاستراحة سارعت إلى شبكة الانترنت للإطلاع على كل ما نشر في مواقع التواصل الاجتماعي خلال تلك الساعتين اللتين قضيتهما بين محاولة الرقن والتفكير في أم الدنيا، وبينما كنت أقرأ المنشورات المرفوقة أغلبها بالعلم المصري بلغ مسمعي ضحكة عالية لأحد العمال، وجهت بصري صوب صاحب الصوت بعد أن نال مني الفضول لأنظر إلى مضحكه، فإذا به جاثم يشير إلى حاسوبي ويقول: «من المسلي أن أراك تقرئين عما يحدث في مصر، كأنك تهتمين».

سكنت برهة من الزمن غير مصدقة ما تلفظ به على مسمعي، قمت بهدوء ثم سألته بنبرة ثابتة عن قصده فقال دونما تردد أو تلعثم: «يا آنسة، لن يهمك أمرهم بعد الذي حدث بينكم مذ سنة، واو، اعتقدت أن حربا ستندلع».

غادر المكتب ضاحكا كأنه ما نفث سما، ولزمت أنا السكون كأني ما لدغت توا، جلست بانكسار ورحت أستمع إلى قهقهاتهم بغرفة الشاي التي بلغت مسمعي، كان من المستحيل ألا أعتقد بأنه يعيد على مسمعهم حوارنا وألا أعتقد بأن كل تلك القهقهات قد فجرها ذا الحوار، انهمرت دمعة من عيني فسارعت إلى حجبها بمنديل ورقي أبيض، ثم سارعت إلى إخفاء المنديل بالدرج قبل أن يراه فينتقده أحدهم، نظرت عبر النافذة إلى الشارع فبدى بالرغم من لون بلورها الداكن مواسيا بصوت حبات المطر التي دقت زواياه

كلها، لوهلة شعرت أنه ينادي علي فحملت حقيبتي ومطريتي ثم رحلت.

هرولت تحت المطر متجهة صوب بيتي، كل ما كنت أرجوه هو بلوغه والاحتماء بين جدرانه من لدغات الآخرين وقهقهاتهم، كل ما كنت أشعر به هو حاجتي لدفئه، كل ما اشتهيته هو كوب من الحليب وقطعة من الكسرة الساخنين بالقرب من مدفأته.

لم أك يومها أعود إلى بيتي إنما كنت أهرب إليه، ولم أحسبني الوحيدة فقد خيل إلي وأنا أهرول جنب المارة السريعة خطواتهم أنهم مثلي فارون صوب بيوتهم، صوب تلك البيوت البسيطة التي نعرف ونحفظ ونحب ونصاحب ونكن العاطفة.

ما إن تجاوزت عتبة باب البيت الخلفي حتى ارتسمت ابتسامة على ثغري، لكني ابتسامتي عادت للاختفاء بمجرد أن بلغت حجرتنا فقد أبصرت عيون والدتي دامعة ورأس والدي مطأطأ، سألتهما عن خطبهما فقالا بكل انكسار أنا سيد الدار قد بعث برسالة يأمرنا فيها بترك أرض الستة.

دون نبس كلمة واحدة جلست جنبهما وأنا مرتدية الأزرق المبلل، خيم الصمت الكئيب على ثلاثتنا كما لم يفعل يوما، لم يك هناك بد للكلام ولم تك هناك فسحة للأمل ففي النهاية كنا جميعا بعيون الأقوى دخلاء غرباء.

لزمنا الصمت الكئيب زمنا طويلا ولوما صوت المطر الذي دق القرميد العتيق لما كان بالأرجاء حس، ظل الحساء باردا جنب قطع الرغيف وظل جسدي الهزيل يرتعش، كل ما دار بفكري لحظتها هو أني لن أقدر إهداء أمي سوارا ذهبيا لأني سأمنحها المال الذي ادخرت لأجل المساعدة في دفع إيجار غرفة ما، ثم قطع الصمت صوت والدتي وهي تقول بأنها تتذكر يوم زارت الدار لأول مرة من أجل تقديم أوشحة صوف كانت قد حاكتها بنفسها...

غلب الدمع والدتي فلم تتم سرد قصتها التي كنت أحفظ تفاصيلها لأنها أكثر ما سردته على مسمعي قبل النوم حين كنت طفلة لا أغفو إلا بعد قصة ترويها أمي، قصة الأوشحة البيضاء التي حاكتها وجلبتها للدار لما كانت شابة مولوعة بجمال العاصمة التي استقرت فيها حديثا رفقة والديها، قدمتها للدار ثم جلست بإحدى زواياها وراحت تتأمل الكثيرين وهم يقدمون ممتلكاتهم البسيطة لتمنح لهؤلاء الذين لا يملكون شيئا، شعرت لحظتها بعظمة الدار وقدسيتها فاقشعر جسدها ثم غمرها دفء ناعم لم يسبق لها أن أحست به في أعماقها، فجأة اقترب منها شاب وسيم لطيف ومنحها كل ما يملك؛ بذور أزهار القرنفل.

هكذا تعرفت أمي على أبي، ثم أحبا بعضهما كثيرا لكنهما لم يملكا ثمن بيت يجتمعان فيه برابطي العشق والزواج، ولم يملكا أيضا مبلغ إيجار شقة أو غرفة، لهذا عرض عليهما عمال الدار الاقامة في إحدى حجرها الشاغرة ففعلا، ثم ولدت مع فجر الربيع كالأزهار فأقامت الدار حفلا وزعت فيه كعكا كثيرا على الأشبال والزوار البسطاء، وبصباح اليوم الموالي، استيقظت ووالدي فأبصرا سرب يمام ينقر كل ما تبقى من فتات هذا الكعك.

حسبا أنه سيرحل مع الغروب، لكنه آثر النوم على أغصان شجرة التوت الأبيض العملاقة، ثم صار اليمام ينقر فتات خبز الأشبال الصغار الذي يتناولونه في فسحة الراحة، فعلما أنه ليس بمرتحل وأنه قد اختار مشاطرتهما الدار.

صنع أبي بيت اليمام الخشبي بيديه قبل مقدم الشتاء، وكان بيتا جميلا بشهادة كل العمال وكل الزوار، ثم مر الزمن سريعا وإذا بالزهرة من يعتني باليمام والشجرة.

كانت هذه أحب روايات أمي لقلبها ولقلبي، ثم أضحت بمرور الزمن أكثرها

إيلاما لكلينا.

لم تكن أمي بذلك المساء سيدة البيت القوية التي ألفنا، بل الحزينة الباكية التي يفطر قلبها وقلب من تحب أمام عينيها دون أن تقدر بغريزة الأمومة وبوفاء الزوجة على الوقوف في وجه هذه الفاجعة، هذا ولم يكن والدي البشوش الضاحك، بل الحزين الذي راح يحكي عن ليلة أحرقت فيها دار الاثنين والعشرين بيد مجهولين، ذنبها أن قد كان فيها مسرح وعود وقانون وكمان، لهذا كان على الأشبال أن يسلمو شارتهم بمجرد بلوغهم سن العشر فقد التهمت النار الدار التي كانو سيلتحقون بها بعد هذه السن، ولهذا طلب منه العمال هجر دار الستة خشية أن يطرقها هي أيضا المجهولون ليلا حاملين بأيديهم نار الدمار، لكنه رفض ترك داره ووروده وشجرته ويمامه، لأنه يعشق هذه الأرض أكثر من الحياة.

قلت لأمي وأبي ألا تحزنا، فسأشتري لكما بعد نيل الشهادة بيتا جميلا، بقرميد أحمر اللون وحديقة صغيرة مثلما تهويان، وكانا لحظتها مثلي عليمين أنه وعد صعب المنال، وأنه وعد سيخلف، وأنه وعد من فرط الحب، لكنهما رضيا به وخلدا للنوم قائلين أن الغد سيكون على غير الأيام شاقا وطويلا.

جثمت وحيدة بالقرب من نافذتي، لا صديق أنادي عليه غير يمي، كان مثلي حزينا، وكان مثلي يود الارتماء بحضن ليبكي، أخبرته أني لا أشبه البشر إنما أشبهه، في أعماقي أسرار بيت فاضل ومكتبة أصيلة وخصام أمة، ثم سألته إن كنت سأحضى يوما بأمواج عاتية فيها القوة والحرية، تلاطمت أمواجه كأن ريحا شديدة قد مرت به مع أن الريح لم تهب، هززت رأسي وأسدلت الستارة على نافذتي ثم انزويت في تختي.

هبت علي ذكريات بيتي الواحدة تلوى الأخرى، كانت كلها عامرة بالفضيلة، هذا وكانت مقدسة بالوطنية والنضال والتضحيات، أخبرت بيتي

أني الفتاة الأوفر حظا في هذه الدنيا لأني ترعرعت في كنف جماله وعذابه، أني أنا بفضله، وأني أحب أناي وأحبه وأني لن أنساه أيا كانت القساوة التي سيحملها إلينا الغد.

أقبل الشروق وكان علي التوجه للكلية فالعمل غير أني امتنعت عن السير إليهما واخترت المكوث بالبيت، لم تسألني والدتي عن السبب فقد انشغلت بالعلب الكثيرة التي جلبها والدي من أجل وضع أثاثنا وثيابنا فيها، أما أنا فقد جلست قبالة شاشة التلفاز مثلما فعل الملايين.

رحت أقلب القنوات لأنظر إلى الأخبار وحدث حقا ما امتنعت بسببه عن مغادرة البيت فقد احتشد المصريون في ميدان التحرير بالعاصمة القاهرة وفي أماكن أخرى بمصر، عشرات فمئات من المواطنين يقفون جنبا لجنب دون أن يحملوا شيئا غير السلام ومطالب منادية بحياة كريمة عادلة رحيمة.

تجمهر المصريون في القاهرة والاسكندرية والسويس فرحت أتأمل تلك الصور التي لم يسبق لي أو لأحد غيري أن رآها في مصر ولكأن مصر قد كشفت للدنيا عن وجه لم يعرفه الكثيرون، وجه أبنائها البسطاء الذين قرروا الإفصاح عن أفكارهم وعواطفهم دون خوف أو خجل أو تردد، دون زيف أو تصنع أو قيد واحد.

رحت أتأمل صورهم، صور هؤلاء الذين حرمت السفر إليهم ومجالستهم والحديث معهم، كنت قادرة على رؤية القصة التي يحملها كل واحد منهم لأنها القصص التي قرأت وكتبت عنها سنوات طوال، كان في وسعي رؤية آلاف من قصص العذاب والصبر والوحدة والفضيلة والحزن والألم والأمل والهجر والخذلان والشجاعة تسير معا نحو وجهة واحدة، كنت قادرة على الشعور بنبض قلب كل منهم لأنها القلوب التي نبضت برفقتها مذ ولدت.

سرعان ما تركت والدتي كل العلب لتجلس بجانبي، ثم ما هي إلا لحظات حتى اتخذ والدي مكانا بالقرب منا، خيم الصمت على بيتنا تماما كما كان يفعل حين كنا نتتبع أخبار التجمهر في تونس، وتماما كما حدث بتونس، لم يمد أحد يده للدمار والخراب، كان تجمهر أبناء مصر شبيها بالثبات في وجه الحياة القاسية الشرسة، تخبرها أنك لن ترفع في وطنك بندقية ولن تحمل سيفا ولن تشعل حريقا ولن تهدم جدارا ولن تقطع شجرة ولن تقطف زهرة ولكنك لن ترضى بقسوتها وشراستها وستقف وقفة صمود وشجاعة حتى تروض طبع الظلم فيها، هكذا وبعد أن غابت عنا أخبار المصريين سنة كاملة بسبب الأحداث التي عاشها بلدانا، بعد أن انقطع وصالنا بتلك الأيام والليالي الغريبة والحزينة والمؤلمة والقاسية التي أجبرنا على تجرعها، هكذا اجتمعنا جميعا لأجلهم دونما طلب، دونما سؤال، اجتمعنا بعفوية، تماما كما فعلنا لما تجمهر أبناء تونس، وكنت على يقين أن بيوت الجزائريين البسطاء كلها كبيتنا.

رحنا نتتبع كل ما بث من تعاليق كثيرة ومختلفة لشخصيات مصرية وعربية وأجنبية أيضا، كان والداي يتساءلان ويسألان بعد كل خبر ينقل وكل صورة تنشر، أما أنا فلزمت الصمت طيلة الزمن الذي رحت أتأمل به كل ما نقلته القنوات المصرية والعربية والأجنبية من صور وأخبار وأقاويل وحوارات وخطابات وتكهنات، اكتفيت باستقبال الجميع بكل ما حملوه لنا، نحن الذين نبعد ألف ألف ميل عن أم الدنيا.

لم أطرح في نفسي سؤالا واحدا، لا، لم أشعر بالاختناق والضياع والحيرة وكان ذلك هو الزمن الوحيد مذ بلغت العشرين عاما، الزمن الوحيد الذي لم أشعر فيه بالغرابة في حاضري ولا بالتيه وسط أحداثه فكل ما تحدث عنه المصريون، وكل ما أشاروا إليه وسردو قصته، كله كان في أعماقي يقظن، كله دون استثناء واحد ولكأني قضيت بمصر واحدا وعشرين عاما.

كل ذلك الجيش الإعلامي الذي جند لينقل للدنيا أحوال المصريين ما كان ينقل إلي أمرا جديدا ولا مفاجئا ولا مجهولا ولا حديثا ولا غريبا، أما حيرة ذا الجيش وهو يتساءل إن كان ذا التجمهر ليتحول إلى عاصفة من عنف مدمر فقد كانت حيرة لا تعنيني مطلقا لأني أعرف الجواب، أعرف القلوب الطيبة المسالمة التي طالما تمنيت وحلمت أن أحلق وأبحر صوبها، تمنيت وبعض الأماني يوقعها كسر الجناح، وبعض الأحلام يغرقها تمزيق الشراع...

ثم هي طلقة واحدة، ثم هي طلقة واحدة أصابت فاخترقت فأردت أحد البسطاء قتيلا، ولا ذريعة لفتح النار على آل صالح، ولا مبرر لاسقاط المعذبين في الأرض أرضا...

جثمت بعد أن فقدت القدرة على الحراك، ما عدت أقوى على سماع ما راحت تتلفظ به تلك الشخصيات الكثيرة، فالكلام بكل ما يحمل قد أضحى زبدا قبالة الدم المهدور، ولا أعرف لم تذكرت لحظتها الأطفال الذين أخبروني ذات يوم أنهم يتفادون التلفظ بمصر المدونة في الكتاب المدرسي، ولا أعرف لم تصورت مرة أخرى الأطفال وهم يتفادون ذات يوم بمصر التلفظ بالجزائر المدونة في الكتاب المدرسي، ولكني أيقنت أنه العزاء والحداد والرثاء والوجع والبكاء، وأن إخفاء الخمس عن أطفالنا الذين حرموا الترعرع في جبروت الأمة الموحدة ذنب، أن إخفاء الخمس عن أطفالنا الذين حرموا الترعرع في جبروت الأمة الموحدة ذنب عظيم لا أقوى على اقترافه.

ما كان للتاريخ يومها إلا أن يكتب اسماءنا في قوائم الحاضرين؛ الحاضرين يوم العزاء لتقديمه وتلقيه، الحاضرين عهد الحداد وليالي الرثاء وكل لحظات الوجع والبكاء، ما كان للتاريخ إلا أن يكتب أن شهداء أمتي يسقطون كل خلاف، ويرممون كل وصال، وينهون كل قطيعة، وينثرون بعد الحرق رماد كل فتنة، فشهداء أمتي لا يوارون الثرى إلا وأمتي كلها مجتمعة معا، فنحن قوم لا نواري

شهدائنا الثرى متخاصمين.

ما كان للتاريخ إلا أن يكتب بأن سيدة الرسائل قد تحررت من الصمت حتى تعزي المصريين ثم تقف جنبهم لتلقي التعازي، فإن بدا هذا للغرباء مستحيلا فهذا لأن الغرباء لم يفقهوا حق الفقه عظمة أمتي.

كنت قد اختنقت لما احتفظت بعزائي لأبناء تونس سرا، كنت قد أوهمت نفسي أني لا أستطيع السير في قوافل الجزائريين الحاملين للتعازي، لكن الحياة القاسية لا ترضى إلا بصب المزيد من الأسى على المآسي، فلكأنها سألتني لآخر مرة إن كنت سأنتحر بكتم عزاء آخر هو كالصلح بعد كل ذاك الشقاق، أم أني سأشتد أخيرا وأقوى على الحياة.

ما كان للتاريخ يومها إلا أن يكتب بأن سيدة الرسائل وربيبة المكتبة وصديقة السفراء ومدللة الدار الفاضلة قد فارقت زاوية الظل والتحقت بقوافل الجزائريين الذين أحزنهم وأوجعهم رؤية سقوط الشهيد تلو الشهيد في مصر، أحزنهم وأوجعهم فالأخ لا يقدر إلا أن يحزن ويتوجع لفراق أخيه، هكذا أحرقت كل الروايات التي قال فيها أصحابها أن الجزائريين يكرهون المصريين، وأن المصريين يكرهون الجزائريين، هكذا تمزقت كل الروايات التي كتب عليها أصحابها أن المصريين والجزائريين غير متحدين، وغير متحابين، وأنهم يكنون لبعضهم بعضا غضبا وخصاما وقطيعة وأن كرة وحاشيتها قد فرقتهم للأبد.

ما كان للتاريخ إلا أن يكتب بأن الصادقة لم تكذب لما رآها الجزائريون تتوغل في صفوفهم لأول مرة، ولم تكذب لما رآها المصريون تتوغل في حشودهم لأول مرة أيضا، لا، لم تكذب فمثلها لا يليق بها الكذب، ومثلها لم تتعلم الكذب، ومثلها كان يحمل العلمين معا، تماما كما كانا دوما، تماما كما سيظلان للأبد.

قمت رفقة خيوط الشمس الأولى ثم ارتديت ثوبي الأسود ومعطفا ووشاحا

لم يخالفاه اللون، تركت الدار وسرت ببطء في شوارع عاصمتي، وبلغ مسمعي حوارات المارة بكل الزوايا التي سرت بالقرب منها، كان الجميع يقول مصر بصوت حزين موجوع، زال كل شعور دخيل صوب مصر بدم الشهداء، لوهلة أغمضت عيني فكأنما تراءت لي شوارع مصر كلها وقد زال منها كل شعور دخيل صوب الجزائر بعد أن بلغهم عزاؤنا ووقوفنا لتلقي التعازي، فبأمتي كلنا آل، في أمتي لا وجود للغرباء، وهذا ما يميز أمتي عن غيرها من الشعوب، وهذا وحده ما سيفجر ذات يوم مجدها.

واصلت السير صوب وجهتي بذات الخطى وما استوقفت نفسي إلا جنب معرض الصحف، كانت كل عناوينها العريضة عن مصر، وكانت صفحاتها الرئيسية ملآى بصور أبناء مصر الشهداء، تأملتها زمنا طويلا تحت المطر، كنت أجهل أسماءهم غير أني قد كنت عليمة بأفكارهم وعواطفهم وجراحهم وأحلامهم وآمالهم، وشتان بين امرئ نحفظ اسمه ونجهل كل شيء عداه عنه، وآخر لا نعرف اللقب الذي يحمله ولكننا نعرف ما مر عليه، ونعرف كل ما نبض في داخله وجال بخاطره، وكل ما سعى إليه وصلى من أجله: «لو أني سافرت، لو ما مزق حلمي، لكنت صادفتهم، ربما، لكنا ألقينا على بعضنا بعض تحية وابتسامة وأمانا، لكنا قصصنا لبعضنا بعض أسرار سنوات عمرنا، لكنا نظرنا إلى عيون بعضنا دون وسيط يرسم زورا ما ليس فينا، لكنا تصالحنا وبرأنا أنفسنا من ذنوب اقترفها غيرنا وألقو بإثمها علينا، لكنا تعانقنا بقوة تلتئم بها جروح خلفها عقوق وجشع الآخرين فينا.

إنه لحزن وقاس ومجحف أنا ما تصادفنا وما التقينا وما تشاركنا التحية والابتسامة والأمان، إنه لحزن وقاس ومجحف أنا ما قصصنا أوجاعنا وأحلامنا وما نظرنا إلى عيون بعضنا بعض البريئة، إنه لحزن وقاس ومجحف أنا ما تصالحنا وما عانقنا بعضنا بعض بقوة الأخوة التي تجمعنا، إنه لحزن وقاس ومجحف أنهم رحلوا قبل أن نشهد يوما طيبا بعد أن تخاصمنا وانقطع وصالنا وصور لنا أنا

أعداء بعضنا بعضا، إنه لحزن وقاس ومجحف أنا ما سرنا معا جنب الأهرام وما جلسنا بقرب النيل وما تشاطرنا صحن الفول، إنه لحزن وقاس ومجحف أني ما احتفظت منهم بقنديل أزين به طاولتنا البسيطة، إنه لحزن وقاس ومجحف أني ما دعوتهم لجزائرنا وما رأيت غبطتهم بالدعوة وما اغتبطت بتلبيتهم لها دون تردد، إنه لحزن وقاس ومجحف أنا ما سرنا معا بين أحضانها الآمنة وأني ما قصصت على مسمعهم أساطير أسماء شوارعنا، إنه لحزن وقاس ومجحف أنا ما تشاطرنا صحن كسكسي بالخضار، إنه لحزن وقاس ومجحف أنهم ما احتفظوا منا بقنينة من فخار يزينون بها طاولتهم البسيطة»، قلت في نفسي قبل أن أطلق نفسا طويلا حارا، تأملت وجوه أبناء مصر الشهداء مرة أخرى ثم تمتمت: «نحن أمة خلقت لكل شيء إلا للخصام، نحن أمة خلقت لكل شيء إلا للخصام».

واصلت السير بخطى بطيئة حتى بلغت وجهتي، ما إن لمحني رب العمل جاثمة بالقرب من المكتب الذي كان مكتبي حتى أخبرني بنبرته الباردة أنه قد خصم أجرة الأيام التي تغيبت فيها وأجرة اليوم الذي غادرت به الدوام دون إذن، وأنه غاضب من فعلتي ويشك في أنه سيجدد عقدي الذي ستنتهي مدته بعد أسبوعين، كما أنه...

مددت يدي دون نبس كلمة واحدة ثم سلمته رسالة الاستقالة، قد كنت أبدأ عهدا جديدا وما كانت تلك الزاوية لترضيني، إنما مكانا دافئا أتشاركه وأشباهي، أتقاسم فيه معهم أيامنا دون أن أخفي أفكاري وعواطفي وعزائي ودون أن يتملكني الحزن كل يوم لأني لا أجد بين الجمع من يشاركنيها، كنت أبدأ عهدا جديدا لا أكون فيه الغريب بأي حكم وبأي عرف.

قبل رب العمل استقالتي ولم يخفي قط تعجبه من السبب الذي دونته، ولم يكتم في نفسه آراءه فالحداد على شهداء وطن آخر أمر لا يفهمه ولا يتقبله،

كذا قال لي أمام الحاضرين.

تركته وآراءه ومددت يدي صوب الدرج، لزم باقون الصمت حين انكببت على أشيائي أجمعها لأزيل من ذلك المكان كل ما قد يذكر بأني مررت به ذات يوم، وما استوحشت وأنا ألتقطها بهدوء وأضعها في علبتي دونما ترتيب، ما استوحشت قط صمتهم وصمتي فقد كانا أكثر ما تشاركناه مذ لقاءنا الأول، لا بل كانا كل ما عمدوا إلى وهبي إياه وكل ما استطعت تقديمه إليهم.

دونما قصد لمحت انعكاس صورتي بزجاج النافدة الداكن الذي لم أك قد لاحظت من قبل أنه يعكس وجودي، تأملت لوهلة مظهري ثم قلت في نفسي: «إن سواد ثوبي ووشاحي ليس كسواد خصل شعري فقد كشف حدادي وكل الذي أحمله من الرثاء والتعازي، جرحي ووجعي وما جرت به وما جار به غيري، تا لله هو لون يستطيع لوحده أن يحكي».

عدت من بعد هذا ببصري إلى علبتي فأدركت مثلما فعل الجميع في تلك اللحظات الأخيرة بأن جل ما امتدت إليه يداي لتوضيبه قد كان صحفا ومنديلا؛ بياض غزاه الحبر فلم يعد من بعد الغزو إلى سابق عهده وبياض ناجاه الدمع فلم تكسبه ذي المناجاة ذرة ولم تسلبه فتيلا.

حين انتهيت من التقاط ذاك الماضي الموضوع كله بالأدراج تأهبت لمفارقتهم فخطوت باتجاه الرواق خطوة أولى، فجأة قطع الصمت تلفظ أحدهم باسمي فاستغربت على عكسهم فعلته، غير أني ما أبديت استغرابي أمامه وأمامهم بل استوقفت نفسي ثم آمأت ليفصح.

بهدوء المحزون أصغيت إليه، وبذات الهدوء أصغيت إلى أصحابه من بعده حين ساءلوني وهم ينظرون لأول مرة مليا إلي وينتظرون دون كلل حراك شفتي، ساءلوني وهم ملتفون على غير العادة من حولي، جاثمون بالزوايا الأربع التي

اهتزت بنبضي وأنفاسي، ساءلوني الواحد تلو الآخر مع أنهم لم يدركوا حتى السبب الذي دفع بي إلى اتخاذ الرحيل قرارا، لم يأبهوا لهذا الهجر المفاجئ ولو قليلا، لا أسفوا على ثوبي الأسود ولا تصنعوا شيئا من الأسف، ساءلوني ولسانهم أجنبي قائلين: «لم الحداد وقد كنتم في خصام»، «لم الحداد وبينكم يقف الخلاف»، «لم الحداد على موتاهم؟»

كانوا على يقين أني صدقتهم الرد حين تلفظت بالعبارة الوحيدة التي تنسج روايتي مذ واحد وعشرين عاما، فلا نبرة صوتي ولا نظرتي حملتا الريب والشك لحظة نطقت قائلة: «القومية»، فالقومية هي عنوان الرواية التي جمع حبرها الجزائر ومصر وأنا، والقومية فصولها وتفاصيلها والنقطة التي حام السرد حولها ثم انتهى إليها.

اكتفى الجميع بهذه الوحيدة التي لم يعرفوها فلم يألفوها والتي لم تنبض بها قلوبهم ولن تفعل، عادوا في هدوء الغريب إلى التزام الصمت دون أن يبدوا عجبا للواحد والعشرين عاما التي نسجت، هذا لأنهم ذهلوا لنسجها الذي سيستمر أبدا.

بتلك الحجرة الباردة التي جمعتني وهم والتي طالما شعرت فيها بالعزلة بينهم نازعهم جوابي فحاول كل منهم كتمان هذا النزاع عن غيره وعني لكن بصيصه لمع قويا في عيونهم، ولست ألومهم، بل لا أقدر إلا عذرهم فبعضهم عرف قصة بلغت من العمر واحدا وعشرين عاما، وبعضهم الآخر ذو حظ وافر فقد عرف قصة فاقت هذا العمر، إلا أنهم لن يحظوا برواية تدوم أبدا هذا لأن عناوين ما عرفوه وفصوله وتفاصيله قد حوى كل عاطفة وكل رابط ماعدا القومية.

لم يفقهوا حق الفقه عظيم ما ينبض بأرض الجزائر وأرض مصر وقلب فتاة صبية، بيد أنهم أدركوا وأنا أرحل للأبد حاملة علبة البياضين أن القومية ميزة

أمتي عن غيرها وأنها ما سيفجر ذات يوم مجدنا...

عدت إلى بيتي، ولم أغادره طيلة أيام، عدت إلى البيت الذي كنت أناديه بيتي والذي لم يك ملكي، بل كان دوما لغيري الذي قرر أن يشيد عليه مطعما فخما يلائم جو قصور الأغنياء التي كانت تحيط به، لم أغادره طيلة أيام، طيلة الأيام الأخيرة التي جمعتني به، حتى أني تغيبت عن امتحاناتي وأنا مدركة أن الرسوب قد صار قدري، لم أود هدر لحظة واحدة بعيدة عنه فقد كنت على علم أني لن أستطيع الجلوس بين أحضانه قريبا، ثم لن أستطيع رؤيته مرة أخرى، فالغرباء سيزورنه مجددا، وسيزيلون كل معالمه للأبد.

كان والداي قد نقلا رفقة بعض الأقرباء والأصدقاء كل أغراضنا إلى الشاحنة، ثم صعدا في السيارة الأجرة بعد توديعهم وظلا ينتظرانني بصبر...

ارتديت يومها فستانا مزينا بالورد على عكس ما اعتقده الجميع، أسدلت شعري الأسود الطويل على كتفي، ثم سرت متجهة صوب المكتبة، مددت يدي بهدوء إلى درج الطاولة ثم حملت الرسائل كلها، رسائلي التي تغير لونها بسبب صقيع الأشتوة، وضعتها في حقيبتي ثم حملت العلمين بيمناي، تأملت زواياها مليا ثم تأملت من وراء بلور نافذتها الحديقة وحجرتنا وبيت اليمام والجذع العملاق: «أنا سيدة الرسائل وصديقة السفراء وربيبة دار الستة والمكتبة، أنا حافظ العلمين، أنا الشجرة المقطوعة واليمام المنفي والارض المهجورة، أنا السفير والاستثناء والمحارب نثرا، أنا المكتبة المخذولة وشاد حبال الجسر الذي يربط شعبي الجزائر ومصر ببعضهما بعضا، أنا الشخص الذي ولد مذ واحد وعشرين عاما، أنا صرخة دون خوف ولا وجل، أنا صرخة للحياة وللمستقبل».

أخبرت بيتي أني سأتذكره، كل ليلة، فائق السحر والجمال بشجرته ويمامه وأشباله وزواره وأسطورة ميلاده بالرغم من كل الخذلان الذي ألقي به عليه، ثم

طلبت إليه أن يتذكرني طفلة سعيدة ضاحكة، وأن يتذكرني بحلتي هته، جميلة حرة بالرغم من كل الحزن الذي يقطن عيني.

هذه روايتي التي لن يعثر لها غير القومية عنوانا، أحيانا، أسردها بكل فصولها وتفاصيلها، وأحيانا، يغلبني الدمع على أمري فأكتفي بالقول: «وتخاصمنا وانقطع وصالنا وكلنا آل، وما كنا راغبين في الخصام ولا محبين لقطع الوصال ولكن كنا مجبرين، لكنا عدنا واجتمعنا، فنحن قوم لا نواري شهداءنا الثرى إلا مجتمعين».

لي أن أتصور بعضكم مبغضا لكل فصول وتفاصيل روايتي، ولي أن أتصور بعضكم الآخر عاشقا لها جميعا، أتصوركم تسيئون بها الظن وتحسنون إليها في ظنونكم، تصدرون عليها أحكام الإدانة والبراءة ثم تجهرون أو تكتمون أحكامكم، تمزقون صفحاتها وتصونونها، تقصونها مثلما قصت عليكم أو تحرفون كل ما جاء فيها، تتذكرونها في خلواتكم وتلقون بها في النسيان، توصون أبناءكم بوديعتي وتتركون لهم وصية غيرها.

وأيا كانت أفعالكم وأقوالكم المختلفة والمتضاربة فهي لن تغير التاريخ ولن تغيرني ولكنها قادرة على تغيير مستقبل هذه الأمة.

امينة شرنيخ

الفهرس

الفصل الأول 5

الفصل الثاني 47

الفصل الثالث 89

الفصل الرابع 159

الفصل الخامس 173

الفصل السادس 203

الفصل السابع 217

الفصل الأخير 243